زكريا

من وحي القرآن والسنّة

تأليف

أ د عقيل حسين عقيل

2017م

المحتويات

المقدّمة 4

زكريا من وحي القرآن 20

الشهيد هو الحي القيوم: 31

زكريا من الخاشعين: 88

من صفات النبي زكريا 91

. منادي: 91

2 . نبي: 93

3 . مُبشَّر: 105

4 – عبد: 162

5– موهوب: 165

6 . صالح: 178

7 . كافل: 182

النبي زكريا من السنّة 240

كفالة زكريا لمريم: 241

دعاء زكريا: 243

زكريا يوكلّ أمره لربّه تعالى: 246

زكريا قيّوما: 307

عمل زكريا: 391
وفاة نبي الله زكريا: 391

المقدّمة

النبي زكريا عليه السّلام من أنبياء بني إسرائيل، وهو من دخل المنافسة مع غيره من أجل كفالة مريم؛ فكانت الاستجابة والحظ أن يكون زكريا عليه السّلام كفيلا؛ أي بعد أن لجأ المتنافسون إلى أجري القرعة، كانت كفالتها من حظ زكريا.

نشأت مريم كما سبق وأن بينا نشأة دينية، وتفرغت للعبادة، فكان زكريا يجد عندها رزقا من رزق الله لم يأتها به، وفي غير وقته، وهذا من إكرام الله لها.

كان زكريا عليه السّلام يخشى على دين الله من المفسدين والمارقين، وهذه الخشية جعلته يدعوا ربّه سائلا أن يرزقه ولدا لتكون سلالة آل يعقوب وارثة لذلك في بني إسرائيل؛ فاستجاب الله له وبشّرته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أنّ الله يبشرك بيحيى، وأنّه سيكون من الأنبياء الصالحين، وأنّه خير أهل زمانه.

توالت على زكريا عليه السّلام في زمانه كثير من الشدائد الثقال، ومع ذلك كان صبورا، وبالزّمن وهن العظم منه واشتعل الرّأس شيبا، وفي كلّ أعوامه الناضجة كان من الصّالحين الربّانيين الذين يخدمون الهيكلّ، حتى أنبأه الله تعالى واصطفاه نبيا كريما. فقام عليه السّلام يدعو قومه إلى دين الله الإسلام وعبادة الله وحده، ويحذرهم عذابه، وذلك بما هم عليه من فسوق وفجور ومفاسد، إلى جانب تسلط الملوك على الحكم وكذلك تسلطّهم على الأنبياء والصّالحين وسفك دمائهم.

كانت زوجة عمران من الصّالحات العابدات قد كبِرت وعجزت ولم تلد ولدًا؛ فدعت الله تعالى أن يهبها ولدًا، ونذرت إن رزقها الله تعالى ولدًا أن تجعله من سَدَنة بيت المقدس وخدمه، وحررت ما في بطنها، ولم تكن تعلم ما الحمل، وكان النذر المحرر عندهم هو أن يصبح الولد لله يقوم بخدمة المسجد ولا يبرح منه حتى يبلغ الحلم؛ فإذا بلغ خيِّر، فإن أحبّ أن يقيم فيه أقام وإن أحبّ أن يذهب ذهب حيث شاء.

وقبل الولادة مات الرّجل الصّالح (عمران) أبو مريم في حملها؛ فلمّا وضعت أمّ مريم حملها إذا هو أنثى، فقالت: {ربّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}[1] أي أنّها تعتذر لربّها لأنّها لم تنجب الذّكر الذي نذرته لخدمة الله تعالى، كون الأنثى لا تصلح لما يصلح له الذّكر من خدمة المسجد والإقامة فيه.

وضعت أمّ مريم ابنتها عند الأحبار العلماء أبناء هارون، وقالت لهم: "هذه المنذورة" فتنافسوا فيها لأنّها كانت بنت إمامهم وسيدهم عمران الذي كان من علماء بني إسرائيل الصّالحين، وكانوا يقترعون على الذين يؤتون بهم إلى المسجد لخدمته، فقال زكريا عليه السّلام وكان نبيهم يومئذ: أنا أحقّ بها لأنّ خالتها عندي، وذلك أنّ الخالة تعد بمنزلة الأم، فأبوا وطلبوا الاقتراع عليها وقالوا: نطرحُ أقلامنا في النّهر الجار، قيل هو نهر الأردن فمن صعد قلمه فوق الماء فهو أحقّ بها؛ فذهبوا إلى ذلك النّهر وألقوا فيه أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة؛ فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم، فأخذها زكريا عليه السّلام وكفلها وضمنها إلى خالتها ‘‘أمّ يحيى’’

[1] آل عمران 36.

واسترضع لها حتى كبرت ووضعها في غرفة في المسجد لا يرقى إليها إلا بسلم ولا يصعد إليها غيره. وكان يغلق عليها الباب ومعه المفتاح لا يأمن عليه أحدًا، وكان بين الحين والحين يخرجها لخالتها مؤقّتا.

كان نبي الله زكريا عليه السّلام يرى من عجائب قدرة الله تعالى من الكرامات في حفظ هذه السيدة الطاهرة العفيفة ما يبهر العقول، يقول الله تعالى: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[2].

كان نبي الله زكريا عليه السّلام إذا دخل على مريم عليها السّلام في المحراب وهو معبدها الذي تعبد فيه الله تعالى يجد عندها من الرّزق ما لم يكن يتوقّعه، إنّها رعاية الله عزّ وجلّ وكفالة زكريا عليه الصّلاة والسّلام.

في ذلك المعبد الربّاني كانت الفتاة الصّالحة الشّريفة (مريم) تتعبّد توحيدا لله تعالى ليلها ونهارها.

كان نبي الله زكريا عليه السّلام وقد تقدمت به السّن وانتشر الشيب في رأسه وبلغ من الكبر عتيًا، وكانت امرأته عاقرا لا تلد، ولكنّه لما رأى فضل الله الرزّاق على مريم المكفولة من قبله، تبيّنا له أنّه لا شيء مستحيل على الله تعالى فدعاه بالرّغم من أنّ زوجته عاقرا وقد تجاوزت عمر الإنجاب؛ وكانت لزكريا رغبة (أن يرزق بولدٍ)؛ فطلب ربّه أن يرزقه غلامًا تقيًا يرثه في العلم والنبوّة ويكون

[2] آل عمران 37.

رحمة بين النّاس؛ {هُنالِكَ دَعَا زكريَّا ربَّهُ قالَ ربّ هَبْ لي مِن لدُنْكَ ذُرِّيَّةً طيّبةً إنَّكَ سميعُ الدُّعاء}3

والذي يجب التوقّف عنده هنا، هو: أنّ العاقر لا يمكن أن تلد، وذلك لأنّها عاقر. أي لم تخلق فيها أنوثة الإنجاب، بمعنى: أنّها لم تعد خلقا لتكون منجبة، وهذه مشيئة الخالق {يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}4، وقد يقول البعض: أنّ الطبّ الحديث قد بلغ من العلم ما بلغ مقدرة ومعرفة تمكّن من أن تجعل العاقر منجبة.

أقول:

الطبّ بلغ من المعرفة العلمية مبلغ عظيما، ولكنّه لا يعالج إلّا من هي لم تحرم خلقا من معطيات الإنجاب، ولهذا وجب التمييز بين المرأة التي لم تحمل بعلل يمكن علاجها، وبين امرأة عاقر (لا إمكانية لأن تنجب) ولهذا؛ فللمرض علاج (المرض الذي يعيق أن تحمل الأنثى) أمّ العقم فلا علاج له لأنّه خلقي.

وعليه؛ فإنّ حمل زوجة زكريا معجزة، لأنّ زوجته عاقر، وهذا الأمر لا يكون خاضعا إلّا للأمر (كن) الذي لا يكون إلّا أمرا من عند الله تعالى.

وحتى لا يتعصّب البعض لأقوالهم أنّ للعقم علاج ودواء أقول:

عليكم أن تميّزوا بين أربّعة حُجج:

---

33 آل عمران 38.

4 الشورى 49، 50.

الحجّة الأولى: إنّ العمل المستحيل لا يكون إلّا بيد الله تعالى. ومن هنا كان إنجاب العاقر بإذن الله

الحجّة الثانية: إنّ العمل المعجز لا يكون إلّا على أيدي أنبياء الله ورسله، وهنا تعدّد معجزات الأنبياء والرّسُل عليهم الصّلاة والسّلام.

الحجّة الثالثة: إنّ عمل الخوارق لا يكون إلّا على أيدي النوابغ بإذن الله. وهنا تمّ غزو الفضاء ولا يزال يغزى علما ومعرفة من قبل النوابغ الكرام.

الحجّة الرّابعة: إنّ عمل الممكن لا يكون إلّا على حالتين:

الأولى: الممكن المتوقّع، وهو الذي يكون على أيدي عموم النّاس بإذن الله. ومن هنا، كان علاج من لا تلد طبّا ولا استغراب.

الثانية: الممكن غير المتوقّع، وهو الذي لا يكون إلّا على أيدي متحدّي الصّعاب بإذن الله. وهنا كان بلوغ الحلّ والاستغراب يصاحبه.

ولأنّ للأنبياء خصوصية ربّانية؛ فاعتقد أنّ نداء الملائكة كان مسموعا لزكريا، وذلك لانّ الملائكة مكلّفة بالتبليغ وهو على كلّ ما ورد في القران الكريم تبليغ مسموع (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِين)، وهو خلاف قدرة الشيطان على الوصول إلى البشر حيث يكون بالإلقاء مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آَيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي

قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}5، وبالوسوسة، {قُلْ أَعُوذُ بِربّ النّاس مَلِكِ النّاس إِلَهِ النّاس مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النّاس}6.

عليه فإنّ زكريا سمع قول الملائكة وعرف أن مصدر قولها هو أمر الله بلغته الملائكة، لذلك توجه بالخطاب نحو الملك جلّ في علاه هو الذي أمر فنفذت الملائكة، ومن المؤكد سماع زكريا لنداء الملائكة لان زكريا كان في الصّلاة حيث هي عنده خشوع تام مطلق لم يكن للوسوسة أو الهاجس أثر في تلقيه لهذه البشرى التي كان ينتظر.

ومن عبر هذه الإجابة إنها تقدم صورة لما يجب أن يكون العبد لله في الصّلاة حيث الإخلاص والخشوع والتواصل في الطاعة واليقين بالإجابة.

والله سبحانه وتعالى إذ أجاب زكريا فأنه أجاب زكريا بعلم منه فكانت الإجابة أكبر من الطلب لانّ الله أرحم بعباده واعلم بهم فقد وهبه الابن ومعه أصلح له زوجه (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ).

وأصلحها بمعنى: "أنّه سبحانه جعلها مصلحة في الدين، فإن صلاحها في الدين من أكبر أعوانه في كونه داعيا إلى الله تعالى فكأنه عليه السلام سأل ربّه المعونة على الدين والدنيا بالولد والأهل جميعا. وهذا كأنه أقربّ إلى الظاهر لأنه إذا قيل: أصلح الله فلانا فالأظهر فيه ما يتصل بالدين، واعلم أن قوله: (وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى

---

5 الحج 52-53.

6 الناس 1-5.

وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) يدل على أن الواو لا تفيد الترتيب لأن إصلاح الزوج مقدم على هبة الولد مع أنّه تعالى أخره في اللفظ وبين تعالى مصداق ما ذكرناه فقال: (إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الخيرات) وأراد بذلك زكريا وولده وأهله فبين أنه آتاهم ما طلبوه وعضد بعضهم ببعض من حيث كانت طريقتهم أنّهم يسارعون في الخيرات، والمسارعة في طاعة الله تعالى من أكبر ما يمدح المرء به لأنّه يدل على حرص عظيم على الطاعة.

أمّا قوله تعالى: (وَيَدْعُونَنَا رَغَبا وَرَهَبا) قرئ رغبا ورهبا وهو كقوله: (يَحْذَرُ الآخرة وَيَرْجُواْ رَّحْمَةِ ربّهِ) والمعنى أنهم ضموا إلى فعل الطاعات والمسارعة فيها أمرين: أحدهما: الفزع إلى الله تعالى لمكان الرغبة في ثوابه والرهبة في عقابه. والثاني: الخشوع وهو المخافة الثابتة في القلب، فيكون الخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الأمور خوفا من الإثم"7.

نناقش الآن كون زكريا من الأخيار، لاشكّ أن النبوّة توجب أن يكون النبي من الأخيار، ذلك أن النص القرآني ربّط بين الاصطفاء وخيرية الأنبياء فقال عز من قائل: {وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ}8.

لكن التمايز التفضيلي (تِلْكَ الرّسُل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) يمكن أن يُلحظ في وصف زكريا حيث إنه كان يسارع في الخيرات أي أن تفضيلا في عمل الخير واضح جلي في الآية، والمسارعة في الخيرات تبعا في الآية وصف مهم مبين لطبيعة هذه المسارعة هو قوله تعالى (وَيَدْعُونَنَا رَغَبا وَرَهَبا)

---

7 - تفسير الرازي، ج 11، ص 68.

8 - ص 47.

قال تعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا ربَّهُ قَالَ ربّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِّمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}9

فقوله تعالى: (قائما يصلي في المحراب) يدلّ على قيّومية زكريا التي لا تكون إلّا مستمدّة من القيوم جلّ جلاله، القيوم "القائم على كلّ نفس بما كسبت، وقيل القائم بذاته المقيم لغيره، وقيل القائم بتدبير خلقه وحفظه، وقيل هو الذي لا ينام وقيل الذي لا بديل له"10.

وهنا فالقيوم من أسمائه الحسنى جلّ جلاله، والتي جاء ذكرها مقترنا مع اسمه الحي؛ لاقتران القيام بالحياة وهي رمزها ودلالتها؛ فكيف تعرف الحياة إذا لم يعرف ويظهر قيامه على الأشياء، وجاء اسم القيوم بهذه الصيغة البلاغية لما تحمله من معنى دقيق في قيامه على الأشياء الدقيقة وبما تحمله من معنى واسع لاشتماله على كلّ الأكوان من السماوات والأرضين وما بينهما، فهي التي يتضح بها معنى الأسماء الأخرى بما لها من ارتباط وثيق وأساسي، فنعرف الحياة بالقيام، وبها نعرف الثواب والانتقام، ولهذا جاء قوله تعالى: (قائما يصلي في المحراب) والقيام هنا تعبّد للحي القيّوم؛ فزكريا عليه السّلام كان قيّميان أي متعبّدا وحريصا على تعبّده لله تعالى، ومن ثمّ فالقيوم هو الذي تظهر علامات قيامه على خلقه كما ظهرت على زكريا عليه الصّلاة والسّلام، وكما تظهر فيما حولنا من الأمور والأشياء جلية وخفية، ومنها:

---

9 آل عمران 38، 39.

10 المصدر السابق، ص 236.

-قيامه على كلّ نفس: قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كلّم بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النّاس جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كلّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ}11. والخليفة القيوم هو الذي يرعى النفوس من الهلاك الجسدي والمعنوي، فيقوم برعاية الأجساد عن أسباب الهلاك بالنصيحة السليمة ويدعوهم إلى الطريق القويم وينهاهم عن الرذائل والموبقات التي بعدت بهم عن الطريق المستقيم.

. قيامه على استجابة الدّعاء: قال تعالى: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفي آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}12. والخليفة دوره أن يدعو

11 الرعد 31-34.

12 النمل 59 . 62.

العباد المستخلفين في الأرض إلى العمل الناجح والصلاح والفلاح في الدين والدنيا؛ إن إعمار الأرض والحكم بما انزل الله تعالى هو صفة من صفات القيوم بالإضافة الذي استمد صفاته من صفات القيوم المطلق، وبذلك فإن تعليم العباد القيم الخيرة التي بها تعمر الأرض وتقوى العلاقات بين النّاس هو خير وسيلة لاستجابة الدعاء، مصداقا لقوله تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[13] فعلى الخليفة أن يحث النّاس ويحرضهم على الإكثار من أفعال الخيرات، ويعلمهم بأن لهم ربّ قيوم يقوم ويرى حوائجهم ليلا ونهارا، ويعلمهم أنه تعالى قريب مجيب، ولكون الخليفة قيوم بالإضافة فلابدّ أن يرى للناس أمرهم وأن يستجيب لمطالبهم، وأن يرعى حقّوقهم، بالمتابعة عينا وأثرا، وأن يشجعهم على أداء واجباتهم وحمل مسؤولياتهم وأن يتقوا الله وهم مدركون بأنه لا قيوم عليهم بالمطلق سواه.

إنَّ الحديث عن وصف إخلاص زكريا كما ورد في القرآن الكريم، هو وصف خصّ الله به بعضا من عباده، وهو تنزيه مطلق من الله عزّ وجلّ لإخلاص هؤلاء العباد المخصوصين، وذلك يتمثل في نسبة العبودية لله عزّ وجلّ في كلّام الله بلفظ عبده، أو عبدنا أو عبدي، يقول الحقّ جلّ وعلا عن سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم:

---

13 التوبة 103 . 105.

{وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}14.

وكذلك عن نوح صلّى الله عليه وسلّم: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ}15، كذلك أيوب وداود صلّى الله عليهما وسلّم.

إنّ هذه الألفاظ لها دلالات غاية في المباشرة والإيحاء معا، إذ أنّ الله عزّ وجلّ اختار لهؤلاء هذه الصفة المخصوصة ونص عليها في كتبه تنزيها وتشريفا لهؤلاء وإيحاءً لغيرهم من العباد بما يجب عليهم أن يسلكوا من سلوك ليكونوا عبادا لله، وقد يتساءل متسائل:

ألسنا جميعا عباد الله؟

نقول: إنّ هذه صفتنا التي ندّعي لأنفسنا ولغيرنا ولكن العبودية الحقّة المخلصة لا تكون بالادعاء بل تكون بالإيمان وبالعمل؟

أيّ عمل؟ فقد يجهل البعض نوع العمل الواجب للعبودية!

نقول إنّها سنن الصالحين الذين نقرأ عنهم ونتدارس أمرهم وكان هذا من أهم دوافعنا للتأليف في هذا الباب من الموضوعات، غايتنا تقديم المنهاج الذي نهجه هؤلاء من الصالحين للائتساء به، ومن الطالحين لتجنب ما جاؤوا به.

على ذلك فإنّ وصف الله سبحانه وتعالى لزكريا بـ (عبده) هو نوع من التشريف والتنزيه من جهة وكذلك فإنّ سلوك زكريا التعبدي

---

14 البقرة 23.

15 القمر 9.

المتمثل بالعبادات لاسيما منها صلاة القيام لانّ الله خصّها بالذكر من عباداته فقال: (وهو قائم يصلي في المحراب) هو من إيحاءات استحقّاق زكريا لهذه الصفة.

أمّا عن كون زكريا رحمة، فقد أشارت أغلب كتب التفسير إلى هذه الرّحمة على أنّها رحمة الهداية، حيث يرجح الرازي ذلك قائلا: يكون المراد من قوله رحمة ربّك أعني عبده زكريا ثم في كونه رحمة أن يكون رحمة على أمته لأنّه هداهم إلى الإيمان والطاعات[16].

والى ذلك ذهبت التفاسير التي قالت بأن السياق (ذِكْرُ رَحْمَةِ ربّك عَبْدَهُ زَكَرِيَّا) يدل على أن الرّحمة هي زكريا، ويمكن لنا أن نضيف أمرا مهما لتفسير هذه الرّحمة هو أن زكريا كان رحمة للعموم أي عموم المؤمنين وللخصوص لمريم وعيسى، فدور زكريا في ما جرى لمريم وابنها عيسى صلّى الله عليهما وسلّم لم يكن دورا هينا، بل إنّ حالة مريم بعد أن أنجبت عيسى ابن مريم أكثر ما كانت تحتاج إليه هو الرّحمة بكلّ أشكّالها، وقد خصها الله برحمة منه هو زكريا النبي الذي كفلها ثم صدقها من قبل وهو يرى الرزق يأتي مريم معجزا من الله عزّ وجلّ، ثم هو يراها تحمل ابنها من غير أب (عيسى ابن مريم) وتتجه به نحو محراب التعبد لله الواحد الأحد، إنّه رحمة الله عزّ وجلّ للناس الذين اتبعوه وصدقوه عموما وهو رحمة لمريم وابنها صلّى الله عليهما وسلّم.

هنا يكمن الودّ في نفس زكريا تجاه مريم وابنها، ولهذا فهو ودود طيب النفس، قلبه على مريم حريصا حفيظا راعيا، ولهذا فهو الودود

16 تفسير الرازي، ج 10، ص 261.

الذي له من الودود ودّا حيث ودّه بابنه يحي الذي سماه الله وبشره به.

وعليه فالودود هو الشهيد الذي شهد حال مريم وما هي عليه من تعبّد (توحّد الله) الذي رزقها من حيث لا تحتسب، ولا يحتسب الغير، ولهذا فزكريا شاهدا على زرق الله لمريم مصداقا لقوله تعالى: {كلّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقً}17.

ولهذا فالشهادة هي شهادة زكريا على مريم، وهنا يوصف زكريا بالشهيد كونه قد تمكّن بعزّة الشهيد المطلق جلّ جلاله أن يكون شاهدا على ما لدى مريم من رزقٍ، وهو الرزق الذي لم يكن إلّا من الرزاق عزّ وجلّ، وهنا تعدّ الشهادة صفة لزكريا.

ومع أنّه شهيد، ولكنّه بلا مطلقية، ذلك لأنّه لا إطلاق إلّا للشهيد المطلق جلّ وعلا الذي وحده يرى ويسمع ويلاحظ ويحكم ويجيب ويقدر ويهيمن وهو بكلّ شيء محيط وعليم، والشهيد بالإضافة هو من يستمد صفات الشهادة الحميدة حتى تكون شهادته الحقّ والعدل.

فالشهيد دليل إثبات الشهادة، فلو لم يكن ما كانت، ولأنه الشهيد بالمطلق فهو يُشَاهِد ولا يُشَاهَد {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ}18، وفي غير ذلك يكون الشهيد بالإضافة تحت المشاهدة والملاحظة، ولذا فالشهيد المطلق يشهد الظاهر والباطن ويعلم بالمطلق علم اليقين، والشهيد بالإضافة لا يشهد ولا يعلم إلا ظاهرا وفي دائرة الممكن يستنبط ويستقرأ.

---

17 آل عمران 37.

18 الأنعام 103.

الشهيد المطلق الله جلّ جلاله، وشهادة الله لا تقابلها غيبة، فلا غيب لديه، وعالم الغيب والشهادة بمعنى إنه يعلم ما يغيب عنّا وما نشهده، وعلمه يسع ما يعلمه جميع الخلق وما يغيب عنهم، من علم ملائكي وجنّي وبشري وكائناتي، وغير ذلك من علم معلوم ومجهول، ومشهود ومحجوب، وغائب ومغَّيب قال الله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}19، ويقول الله تعالى:{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}20 ويقول الله تعالى: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النّاس إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ}21

فالشهيد: هو الذي لا يغيب عنه شيء وقيل: هو العالم الرائي فيرجع معناه إلى صفة العلم وصفة الرؤية22.

وهو سبحانه وتعالى – كما قلنا– عنده الشهادة المطلقة فلا يوجد عنده غيب فالغيب ما غاب عنا، ولا ينبغي أن نقول: إن عند الله غيب، فالغيب خلق من خلقه فكيف يغيب المخلوق عن خالقه، ولا أن نقول إن الشهيد مشتق من الشهادة، بل هو سبحانه

---

19 البقرة 255.

20 طه 110.

21 الحج 75،76.

22 الاعتقاد، ج 1، ص 60

وتعالى خالق الشهادة التي لغيره أما شهادته غير مخلوقة وهي ذاتية سرمدية بلا أولية ولا انتهاء لأنّه الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية.

كما لا نقول: إنّ الشهيد مبالغة في الشهادة بل نؤكد: إنّ الشهيد جلّ جلاله له العلم المطلق الذي يليق به وبالكيفية التي يعلمها هو ولا نعلمها نحن على مر الآجال والأجيال.

والشهيد الحاضر يقال شهدت الشيء وشهدت به وأصل قولهم شهدت به من الشهادة التي هي الحضور، واليوم المشهود يوم القيامة لأنه معلوم كونه لا محالة فكان معنى الشهيد العالم23.

والشهادة لا تقتصر على فرد واحد بل تتعداه لجماعة وتتعداها لأمة بأكملها، فقد يكون الفرد شهيدا كقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كلّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرّسول لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا}24، فالرّسول عليه الصّلاة والسّلام شهيدٌ.

أو الجماعة تكون شهيدة، لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَربّعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}25، فالشهادة هنا كي تكون مقبولة لابدّ أن يجتمع فيها أربّعة شهداء كي يُعْترف بها، إذا فالشهادة في هذه الحالة تعدت الفرد الواحد إلى جماعة،

23 تفسير أسماء الله الحسنى ج 1، ص 53.

24 النساء 40: 42.

25 النور 4.

لأنّها أصبحت من شروط الإدانة في هذه الحالة اجتماع أربّعة شهداء، ولا يُقبل شاهد واحد فقط.

أو الأمّة بأسرها قد تكون شهيدة كقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاس وَيَكُونَ الرّسول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}26، فالأمة هنا في هذه الآية ستكون شاهدة على نفسها، ومن المعروف أن الأمة تشمل الكثير من الأفراد، فلا يمكن أن تدخل في إطار الجماعة. والحمد لله ربّ العالمين.

أ د عقيل حسين عقيل

القاهرة 2017

26 البقرة 143.

زكريا

من وحي القرآن

يقول الحقّ جلّ وعلا عن عبده زكريا: {كهيعص ذِكْرُ رَحْمَةِ ربّك عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى ربّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ ربّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ ربّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آَلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ ربّ رَضِيًّا يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا قَالَ ربّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ ربّك هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا قَالَ ربّ اجْعَلْ لِي آَيَةً قَالَ آَيَتُكَ أَلَّا تُكلّمَ النّاس ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}27.

هذه الآيات الكريمات لم تضع تعريفا محددا بزكريا بل قدمت للوعي ملامح عامة لهذا النبي الكريم تتعلق بما يحتاج إليه الباحث عن الإئتساء بمثل هؤلاء العظماء. ومن هذه الملامح سننطلق في عرض مضامين سيرة النبي زكريا عليه الصّلاة والسّلام.

تشير الآيات الكريمة إلى أنّ نبوّة زكريا كانت في بني إسرائيل لاسيما تلك التي تذكر عيسى عليه الصّلاة والسّلام (وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ) وكذلك اتفقت المصادر على أن زكريا من أنبياء بني إسرائيل، وكان نبيا فيهم قبل رسالة عيسى أمّا بعد رسالة عيسى فهو من أتباعه إن هو حضر دعوته.

---

27 مريم 1-11.

هنا ألحت مسألة للعرض يطرحها التساؤل الآتي:

هل للنبي دور عقدي في وجود الرّسول؟

معلوم أنّ الرّسول اشمل دورا من النبي، فالرّسول يرسل برسالة غالبا ما تكون مشفوعة بكتاب كالقران والتوراة والإنجيل والزبور، أو صحف (صحف إبراهيم وموسى)، والنبي يأتي بنبأ يختصه الله به ليبلغه قوما مخصوصين لحالة مخصوصة كشعيب الذي أرسل موحدا وداعيا إلى التوحيد أوّلا ولإصلاح فساد مخصوص هو التلاعب الاقتصادي (بالميزان)، قال تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النّاس أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}28.

فالنبي والرّسول يدعوان إلى الواحد الأحد لكن الرسالة أشمل وأعم من النبوّة.

عليه إذا حضر نبي رسالة رسول فإنّ دوره عند ذاك سيكون التصديق والتأييد والنصرة ويكون على الرّسول المتبعة والحرص على السلامة، وهذا ما حصل مع سيدنا إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم وسيدنا لوط، إذ كان لوط نبيا ومن أتباع الرّسول إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم في آن واحد لذلك كان على لوط الإتباع وعلى إبراهيم المسؤولية عنه كبقية الرعية، وهذا ظاهر في خطاب إبراهيم مع ملائكة البشرى والعذاب إذ سأل عن حال لوط قبل وقوع العذاب،

28 هود 84-85.

{قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ}[29].

فالدور العقدي للنبي سيتحدد بالنصرة للعقيدة التي هي في الأساس عقيدة واحدة لا تختلف باختلاف الأنبياء والرّسُل إلا بقدر الأقوام التي تخصهم هذه النبوّة أو الرسالة وما يكتب الله عليهم من حلال وحرام في المعاملات وصلاة وصيام في العبادات.

وزكريا إذن في حال حضوره رسالة عيسى سيكون من أتباعه وان كبره سنا وإن سبقه نبوّة، طائعا لانّ ذلك أمر الله عزّ وجلّ ما كان له أن يرده وهو من المخلصين.

زكريا من آل يعقوب كما نصت الآية (يرثني ويرث من آل يعقوب)، وقد اختلف تفسير هذا الآل في كتب التفسير إلى قسمين هما:

- أنّه آل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

- إنّه آل يعقوب بن ماثان.

وهذا الاختلاف يحدد قضية مهمة جدا هي طبيعة الوراثة التي قصدها زكريا في دعائه (يرثني ويرث من آل يعقوب):

هل كانت وراثة مادية؟

أم وراثة عقدية؟

ويمكن تحديد هذا الإرث من خلال تحليل آل يعقوب.

---

29 العنكبوت 32.

والأمر يحتاج إلى اشتراطات افتراضية للوصول إلى مقاربّة الحقّيقة على النحو الآتي:

إذا كان المقصود يعقوب بن إسحاق كانت الوارثة للنبوّة.

إذا كان المقصود يعقوب آخر كان المقصود وراثة مادية لمال أو غيره لغياب النبوّة في هذا الأصل.

هذان الاشتراطان الافتراضيان يؤدّيان بنا إلى مجموعة تساؤلات هي:

هل امتلك زكريا مالا يُورث؟

هل كان زكريا حريصا على الدنيا وتوريثها؟

هل بين سياق الطلب في الدعاء وراثة ماديا؟

أيهما أهم عند زكريا النبوّة أم المال؟

أيُطلب وريث المال في المحراب؟

أتبشر الملائكة بوريث للمال؟

هذه التساؤلات أفضت ولاشكّ إلى أنّ زكريا يريد وريثا لغير أمر مادّي، إذ أن كلّ معطيات الدعاء والإجابة لم يكن فيها ما يشير أو ما يوحي حتى بشيء من المادية، كما أنّ قاعدة من قواعد النبوّة المنصوص عليها في الحديث الصحيح ستتعارض مع هذا السياق التفسيري لطلب الوريث عند زكريا، يقول الرّسول الأكرم محمّد صلّى الله عليه وسلّم عن الأنبياء: "لاَ نُورَثُ مَا تَرَكْنَا فَهُوَ

صَدَقَةٌ"30. على ذلك استحال أن يطلب زكريا وريثا لمال أو أيّ مادي آخر.

كما أنّ صفة الوريث المنصوص عليه في دعوة زكريا تدل دلالة قاطعة على طبيعة طلب الوريث (واجعله ربّي رضيا) هذا دليل على أنّ المقصود في نفس زكريا بعيد كلّ البعد عن المادية إذ أنّ المطلوب وريث يكون مرضيا عند النّاس أي مقبولا عندهم وهذا لا يستوي اقترانه بالمادة بل ينسجم مع من يدعو النّاس إلى مقصد محدد هو الحقّ عند زكريا ووريثه يحيى لذلك فهو يحتاج رضا النّاس وقبولهم لكي تتحقّق مقاصد دعوته التي كانت رسالة الحقّ والتوحيد لله الواحد الأحد، لذلك وجب أن يكون طلب الوريث لغير الأمور المادية.

فلأي شيء طلب زكريا وريثا؟

إنّ الأمر يجب أن يقرأ منطقيا أكثر من قراءته نقليا ذلك لان المنطق يعطي العقل إقناعا أقوى، والقراءة ستكون من خلال تساؤلات:

هل أجيب دعاء زكريا؟

ماذا كان الوريث؟

هل كان نبيا؟

الدّعاء أجيب وكان الوريث (يحيى) نبيا، هنا يتأكد أن المراد من طلب الوريث هو أمر يتعلق بالنبوّة، عليه:

---

30 صحيح مسلم، ج 5، ص 153.

المقصود من قوله تعالى (آل يعقوب) هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم صلّى الله عليهم وسلّم لان النبوّة كانت فيهم.

صفات زكريا؟

يقدم القرآن الكريم صفات عديدة لزكريا صلّى الله عليه وسلّم كلّها من صفات الصّالحين، وسنحاول تحليل هذه الصفات بعد تعدادها وهي:

– مخلص (عبده).

– رحمة (رحمة ربّك).

– مجاب الدعاء (وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ ربّ شَقِيًّا).

– من الأخيار (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ).

– من الخاشعين (وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ).

– من المصلين (وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ).

– من المسبحين (فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا).

– من الصالحين (وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كلّ مِنَ الصَّالِحِينَ).

– من المبشرين (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا).

– من الوارثين (يرثني ويرث من آل يعقوب).

– له آية (قَالَ ربّ اجْعَلْ لِي آَيَةً قَالَ آَيَتُكَ أَلَّا تُكلّمَ النّاس ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا).

نبدأ بالحديث عن وصف إخلاص زكريا كما ورد في القرآن الكريم، وهو وصف خص الله به بعضا من عباده، وهو تنزيه مطلق من الله عزّ وجلّ لإخلاص هؤلاء العباد المخصوصين، وذلك يتمثل في نسبة العبودية لله عزّ وجلّ في كلّام الله بلفظ عبده، أو عبدنا أو عبدي، يقول الحقّ جلّ وعلا عن سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم:

{وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[31].

وكذلك عن نوح صلّى الله عليه وسلّم: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ}[32]، كذلك أيوب وداود صلّى الله عليهما وسلّم.

إنّ هذه الألفاظ لها دلالات غاية في المباشرة والإيحاء معا، إذ أنّ الله عزّ وجلّ اختار لهؤلاء هذه الصفة المخصوصة ونص عليها في كتبه تنزيها وتشريفا لهؤلاء وإيحاءً لغيرهم من العباد بما يجب عليهم أن يسلكوا من سلوك ليكونوا عبادا لله، وقد يتساءل متسائل:

ألسنا جميعا عباد الله؟

نقول: إنّ هذه صفتنا التي ندّعي لأنفسنا ولغيرنا ولكن العبودية الحقّة المخلصة لا تكون بالادعاء بل تكون بالإيمان وبالعمل؟

أيّ عمل؟ فقد يجهل البعض نوع العمل الواجب للعبودية!

---

31 البقرة 23.

32 القمر 9.

نقول إنّها سنن الصالحين الذين نقرأ عنهم ونتدارس أمرهم وكان هذا من أهم دوافعنا للتأليف في هذا الباب من الموضوعات، غايتنا تقديم المنهاج الذي نهجه هؤلاء من الصالحين للائتساء به، ومن الطالحين لتجنب ما جاؤوا به.

على ذلك فإنّ وصف الله سبحانه وتعالى لزكريا بـ (عبده) هو نوع من التشريف والتنزيه من جهة وكذلك فإنّ سلوك زكريا التعبدي المتمثل بالعبادات لاسيما منها صلاة القيام لانّ الله خصّها بالذكر من عباداته فقال: (وهو قائم يصلي في المحراب) هو من إيحاءات استحقّاق زكريا لهذه الصفة.

أمّا عن كون زكريا رحمة، فقد أشارت أغلب كتب التفسير إلى هذه الرّحمة على أنّها رحمة الهداية، حيث يرجح الرازي ذلك قائلا: يكون المراد من قوله رحمة ربّك أعني عبده زكريا ثم في كونه رحمة أن يكون رحمة على أمته لأنّه هداهم إلى الإيمان والطاعات33.

والى ذلك ذهبت التفاسير التي قالت بأن السياق (ذِكْرُ رَحْمَةِ ربّك عَبْدَهُ زَكَرِيَّا) يدل على أن الرّحمة هي زكريا، ويمكن لنا أن نضيف أمرا مهما لتفسير هذه الرّحمة هو أن زكريا كان رحمة للعموم أي عموم المؤمنين وللخصوص لمريم وعيسى، فدور زكريا في ما جرى لمريم وابنها عيسى صلّى الله عليهما وسلّم لم يكن دورا هينا، بل إنّ حالة مريم بعد أن أنجبت عيسى ابن مريم أكثر ما كانت تحتاج إليه هو الرّحمة بكلّ أشكّالها، وقد خصها الله برحمة منه هو زكريا النبي الذي كفلها ثم صدقها من قبل وهو يرى الرزق يأتي مريم معجزا من الله عزّ وجلّ، ثم هو يراها تحمل ابنها من غير أب (عيسى ابن مريم)

---

33 تفسير الرازي، ج 10، ص 261.

وتتجه به نحو محراب التعبد لله الواحد الأحد، إنّه رحمة الله عزّ وجلّ للناس الذين اتبعوه وصدقوه عموما وهو رحمة لمريم وابنها صلّى الله عليهما وسلّم.

هنا يكمن الودّ في نفس زكريا تجاه مريم وابنها، ولهذا فهو ودود طيب النفس، قلبه على مريم حريصا حفيظا راعيا، ولهذا فهو الودود الذي له من الودود ودّا حيث ودّه بابنه يحي الذي سماه الله وبشره به.

وعليه فالودود هو الشهيد الذي شهد حال مريم وما هي عليه من تعبّد (توحّد الله) الذي رزقها من حيث لا تحتسب، ولا يحتسب الغير، ولهذا فزكريا شاهدا على زرق الله لمريم مصداقا لقوله تعالى: {كلّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقً}34.

ولهذا فالشهادة هي شهادة زكريا على مريم، وهنا يوصف زكريا بالشهيد كونه قد تمكّن بعزّة الشهيد المطلق جلّ جلاله أن يكون شاهدا على ما لدى مريم من رزقٍ، وهو الرزق الذي لم يكن إلّا من الرزاق عزّ وجلّ، وهنا تعدّ الشهادة صفة لزكريا.

ومع أنّه شهيد، ولكنّه بلا مطلقية، ذلك لأنّه لا إطلاق إلّا للشهيد المطلق جلّ وعلا الذي وحده يرى ويسمع ويلاحظ ويحكم ويجيب ويقدر ويهيمن وهو بكلّ شيء محيط وعليم، والشهيد بالإضافة هو من يستمد صفات الشهادة الحميدة حتى تكون شهادته الحقّ والعدل.

فالشهيد دليل إثبات الشهادة، فلو لم يكن ما كانت، ولأنه الشهيد بالمطلق فهو يُشَاهِد ولا يُشَاهَد {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ

34 آل عمران 37.

يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ}35، وفي غير ذلك يكون الشهيد بالإضافة تحت المشاهدة والملاحظة، ولذا فالشهيد المطلق يشهد الظاهر والباطن ويعلم بالمطلق علم اليقين، والشهيد بالإضافة لا يشهد ولا يعلم إلا ظاهرا وفي دائرة الممكن يستنبط ويستقرأ.

الشهيد المطلق الله جلّ جلاله، وشهادة الله لا تقابلها غيبة، فلا غيب لديه، وعالم الغيب والشهادة بمعنى إنه يعلم ما يغيب عنّا وما نشهده، وعلمه يسع ما يعلمه جميع الخلق وما يغيب عنهم، من علم ملائكي وجنّي وبشري وكائناتي، وغير ذلك من علم معلوم ومجهول، ومشهود ومحجوب، وغائب ومغَّيب قال الله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}36، ويقول الله تعالى:{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}37 ويقول الله تعالى: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النّاس إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ}38

فالشهيد: هو الذي لا يغيب عنه شيء وقيل: هو العالم الرائي فيرجع معناه إلى صفة العلم وصفة الرؤية39.

---

35 الأنعام 103.

36 البقرة 255.

37 طه 110.

38 الحج 75،76.

39 الاعتقاد، ج 1، ص 60

وهو سبحانه وتعالى - كما قلنا- عنده الشهادة المطلقة فلا يوجد عنده غيب فالغيب ما غاب عنا، ولا ينبغي أن نقول: إن عند الله غيب، فالغيب خلق من خلقه فكيف يغيب المخلوق عن خالقه، ولا أن نقول إن الشهيد مشتق من الشهادة، بل هو سبحانه وتعالى خالق الشهادة التي لغيره أما شهادته غير مخلوقة وهي ذاتية سرمدية بلا أولية ولا انتهاء لأنّه الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية.

كما لا نقول: إنّ الشهيد مبالغة في الشهادة بل نؤكد: إنّ الشهيد جلّ جلاله له العلم المطلق الذي يليق به وبالكيفية التي يعلمها هو ولا نعلمها نحن على مر الآجال والأجيال.

والشهيد الحاضر يقال شهدت الشيء وشهدت به وأصل قولهم شهدت به من الشهادة التي هي الحضور، واليوم المشهود يوم القيامة لأنه معلوم كونه لا محالة فكان معنى الشهيد العالم40.

والشهادة لا تقتصر على فرد واحد بل تتعداه لجماعة وتتعداها لأمة بأكملها، فقد يكون الفرد شهيدا كقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كلّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرّسول لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا}41، فالرّسول عليه الصّلاة والسّلام شهيدٌ.

أو الجماعة تكون شهيدة، لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا

40 تفسير أسماء الله الحسنى ج 1، ص 53.

41 النساء 40: 42.

تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}42، فالشهادة هنا كي تكون مقبولة لابدّ أن يجتمع فيها أربّعة شهداء كي يُعْترف بها، إذا فالشهادة في هذه الحالة تعدت الفرد الواحد إلى جماعة، لأنها أصبحت من شروط الإدانة في هذه الحالة اجتماع أربّعة شهداء، ولا يُقبل شاهد واحد فقط.

أو الأمة بأسرها قد تكون شهيدة كقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاس وَيَكُونَ الرّسول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}43، فالأمة هنا في هذه الآية ستكون شاهدة على نفسها، ومن المعروف أن الأمة تشمل الكثير من الأفراد، فلا يمكن أن تدخل في إطار الجماعة.

والشهادة تكون دائما ملازمة للحقّ، قال تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ ربّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ ربّنا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ ربّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا}44 فشاهد الزور ليس بشهيد، لأنه لا يشهد بالحقّ بل هو مزيف للحقّيقة كاذب يقلب الأمور حسب مصلحته.

الشهيد هو الحي القيوم:

لا يمكن أن تأتي الشهادة من غير الحي، فالحياة لازمة لحصول الشهادة لأنّ الحياة تدل على القيومية وهذا بالتالي يجعل من الحي

42 النور 4.

43 البقرة 143.

44 الفرقان 72: 77.

المطلق شهيدا مطلقا لا يمكن أن يغفل أو ينام وذلك كما جاء في قوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}45، فالشهيد المطلق هو من كان مطلق العلم بعباده وبما خلق لما تتطلّبه الشهادة من متابعة ومراقبة وعلم وعدل وهذه الصفات لا تكون مطلقة إلا لدى الواحد الأحد الذي يشهد على كلّ صغيرة وكبيرة ويجعل من كلّ منها شاهدة على الإنسان في كتابه يوم تقوم الساعة فيقف بين يدي الحي القيوم كما في قوله تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ ممّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ ربّك أَحَدًا}46، ولا يمكن أن تكون هذه الدقة وهذا النظام إلا بوجود شهيد دائم الحياة والقيومية لا يغفل ولا ينسى ولا ينام ولا يظلم، وفي تقديمه للصغائر عن الكبائر أكبر دليل على عدل شهادته ودقته وعلمه المطلق بكلّ شيء، فالغافل لا يمكن أن يدرك كلّ ما حوله والنائم لابدّ أن تفوته الكثير من الأمور والميت تنتهي علاقته بكلّ شيء منذ ساعة موته، وهذا ينتفي مع صفات الله تعالى الذي يحاسب على كلّ شيء فكيف يحاسب الإنسان على أمر من غير أن يكون شهيدا عليه.

ولله المثل الأعلى إذ أنّه لابدّ لولي الأمر أن يكون دائم الانتباه والمراقبة على رعيته، بذلك فإنه سيكون شاهدا على أغلب ما

45 البقرة 255.

46 الكهف 49.

يقومون به من أعمال وهذا لا يمكن أن يحصل إلا إذا كان قائما عليهم منتبها لهم فلا يستطيع الرعية عند ذلك التحايل عليه وإيقاعه في الخطأ فيظلم بدون علم منه بوقوع هذا الظلم، فكيف يدرك ذلك وهو لم يكن شاهدا على ما حصل بسبب إهمال أو غفلة أو جهل؟

ونستطيع أن نمثّل لذلك بحالة انفصال الزوج والزوجة عن بعضهما البعض فينشغل كلّ من الزوجين بأموره الخاصة دون الالتفات لوضع الأبناء النفسي الذي لابدّ وأن يكون الطلاق له بالغ الأثر فيه، فغياب الأم مثلا أو اضمحلال دورها وغفلتها عن ما يقوم به الأبناء بسبب ابتعادها عن البيت وبقاء الأبناء مع الأب ذلك من شأنه أن يجعل منهم معرضين للفساد الأخلاقي، ممّا يجعل منهم ضائعين لا يجدون صدرا حنونا يضعون رؤوسهم عليه عندما يشعرون بحاجتهم لذلك، وهذا الحرمان يولّد أحيانا القسوة والعناد، فيكبرون بهذه النفسية دون شاهد عليهم يراقبهم ويراعيهم، وكذلك الحال في غياب الأب الذي له الدور الكبير في ردع الأبناء عن كلّ ما هو غير مرغوب بتعلمه.

فالوالد والوالدة لابدّ أن يكونا شاهدين على الأبناء كي يؤدّيا واجبهم بشكلّ كامل، ولابدّ لهما من يكونا على وعي تام بأهمية دورهما في حياة الأبناء، فلا يجعلا من الأبناء شهداء على الانهيار الاجتماعي الذي قد يحدث بين الزوجين في كثير من الأحيان فبذلك يكون المجتمع ضعيفا مفككا لا يُرجى منه شيء.

لذلك فالشهادة ليست بالأمر الهين الذي يستطيعه الكلّ بل هي مسؤولية كبيرة ومهمة تصعب على الإنسان تحملها لأن عاقبتها لا تقتصر عليه فقط بل تمتد لتشمل الكثير ممن حوله، ولأن الشهادة

أمرٌ عظيم كانت من أسماء الله تعالى الحسان وبالتأكيد لا يتصف الخالق إلا بعظائم الصفات والأفعال.

وكلّ شهيد بالإضافة مصيره إلى الفناء والموت حتى وإن كانوا رسل الله – صلوات الله عليهم وسلّم- كما جاء في قول الله عزّ وجلّ: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}47، لذلك فإن شهادتهم تقتصر على فترة حياتهم وتنقطع بعد ذلك لعدم قيامهم على أمور قومهم، أما الشهيد المطلق فهو دائم الحياة فلا ينقطع عن عباده ولا يغفل عما يقومون به ويفكرون فيه، فشهادته يوم الحساب أوّل شهادة على الإنسان كما جاء في قوله تعالى: {قُلْ كَفي بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}48، ففي هذه الآية الكريمة دلائل تامة للشهادة المطلقة وهي:

أ- الكفاية: فالاكتفاء بالأمر يعني الاستغناء عن غيره، فشهادة المولى عزّ وجلّ تفصل بين الحقّ والباطل بشكلّ قطعي لا شكّ ولا رجوع فيه فتتحقّق الكفاية بهذه الشهادة التي لا يمكن أن تكون إلا للشهيد المطلق سبحانه وتعالى.

47 المائدة 116: 118.

48 الإسراء 96.

والاكتفاء لا يتوفر إلا إذا كان الشهيد مطلق العلم والخبرة والعدل، والمولى عزّ وجلّ هو الشهيد المطلق بقيوميته الأزلية وببقائه الأبدي.

ب- الخبرة بالعباد: وهذا ما تستند إليه الشهادة الحقّ، فلا يمكن أن تكون شهادة الحقّ صادرة عن شاهد جاهل أو غافل بل لابدّ أن تكون عن وعي تام وخبرة تامة بالغير، فكيف بالله الخبير المطلق الذي خلق الخلق؟

بما أن الله تعالى قائم على أمور عباده عليم بما يسرون ويعلنون فهو الشهيد الحقّ عليهم، هذا بخلاف الخليفة الذي لا يستطيع التعمق في خفايا الصدور بل تتحكم به وبشهادته ظواهر الأمور، قال تعالى: {وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}49

ج – البصر المطلق: البصر لدى الشهيد عزّ وجلّ يصل إلى ما تخفي النفوس وتسِّر، فلا يخفي عليه خافية في الأرض ولا في السماء، فهو المطلع على أمور العباد خيرهم وشرهم صلاحهم وفسادهم، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالحقّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}50، فالخالق تعالى بصير بمن خلق وبصره المطلق شاهد أزلي على خلقه.

---

49 الملك 13: 14.

50 التغابن 2: 4.

والخليفة يجب عليه أن يكون شهيدا على نفسه طالما هو حي على وجه الأرض، وأن يكون على ثقة تامة بأنه تحت الشهيد عزّ وجلّ الذي يحييه ويميته، فيراقب الشهيد في كلّ ما يفعل وما ينطق به فيجعل من نفسه مستحقّا للحياة بأن يكون داعيا للحقّ والصلاح، لأنّ شهادة الحقّ من شأنها أن تزرع الأمن والطمأنينة بين البشر لعدم ضياع الحقّوق، فشهادة الخليفة تجعل منه حيا بضميره وإيمانه وخوفه من الشهيد بالمطلق، وعلى الخليفة أن يكون قائما على أمر نفسه وأهله وعلى المسلمين، رادعا للظلم والزور والخطأ.

وشاهد الزور هو إنسان ميت بالرغم من حياته، لأنه من فقد صلته بالله مات وهو على قيد الحياة، فمن يميت ضميره ويشهد زورا وافتراء فقد علاقته بالله لأنه من شأن هذه العلاقة أن تجعل المرء من اتباع الشيطان فيكون مأمورا بكلّ ما فاسد ومخجل.

الشهيد هو العدل:

الله تعالى هو العادل المطلق الذي فعله وقوله حقّ عزّ وجلّ، فحكمه عادل فلا جور ولا ظلم عند الشهيد العادل، إذ تنتفي المصالح الدنيوية عنده عزّ وجلّ، فلا قيمة لإنسان يوم القيامة إلا إذا كان ميزانه مليء بالخيرات مصداقا لقوله تعالى: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحقّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآَيَاتِنَا يَظْلِمُونَ}[51] فشهادة الله تعالى فعلية إذ يكون ميزان أعماله شاهدا على الإنسان نفسه، فلا تزوير ولا نقص ولا زيادة وكيف ذلك والحكم يومئذ للحكم العدل الشهيد؟

51 الأعراف 8: 9.

العدل في الدنيا لا يتحقّق بوجود الظالمين والمتكبرين والعاصين والمنافقين، مع أنّ العادل بالإطلاق أمرنا بالعدل مع أنّفسنا ومع من حولنا من أقربّاء وغيرهم، وجعل من العدل منهجا لحل الأزمات والوصول إلى النتائج المرضية، قال تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}52، ففي الآية الكريمة السابقة نجد أنه:

* من أساس طرق الحل والعلاج هو الإصلاح وعدم الإفساد.

* من وجوه العدل أن يُرد بالقوّة على الظلم والاستبداد لردع الطغيان والظلم.

* العدل أساس الحقّ فلا إحقّاقٌ للحقّ دون عدل.

فالشهيد بالإطلاق هو العادل بالإطلاق في شهادته، فلا يظلم أحدا ولا يُنقص عمل إنسان، قال تعالى: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالحقّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كلّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كلّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ قَالَ قَرِينُهُ ربّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ يَوْمَ نَقُولُ

---

52 الحجرات 9: 10.

لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ}53، فالشهيد لا يحتاج إلى سجل أو كتاب ليسجل فيه أعمال البشر ولكنه بالرغم من ذلك يجعل من كتاب أعمال الإنسان شهيدا عليه يوم القيامة كي لا تكون حجّة لأي كافر أو جاحد على الله تعالى.

ومن عدله تعالى في شهادته أنه:

أ- لا يغفل عن صغيرة أو كبيرة لقوله تعالى: {وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ ربّك مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}54، فالعدل الحقّ هو عدم إغفال صغائر الأفعال قبل الكبائر.

ب- عدم تجاوز الحد في العقاب كما في قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجنّة يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ}55.

ج- لا فرق بين العباد لديه إلا بالتقوى والعمل الصالح، كما جاء في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}56، فالفروقات الدنيوية بين البشر التي يصنعها المال أو اللون أو تصنعها القوّة والسلطة هي فروقات ظالمة، يلغيها العادل بالمطلق عندما يقف البشر بين يديه للحساب، فيكون شاهدا على الغني والفقير وعلى القوي والضعيف وعلى المسلم وغير المسلم وعلى

53 ق 19: 30.

54 يونس 61.

55 غافر 40.

56 الحجرات 13.

البشر أجمعين حيث تتحقّق العدالة التامة التي لا يستطيع البشر الارتقاء إليها بما في نفوسهم من ضعفٍ وغفلة، وبما للشيطان من سلطة على أتباعه.

لذلك فالشهيد عادل في شهادته على كلّ شيء وكيف لا يكون كذلك وهو الخالق العظيم القائم على أمور الخلق؟

وعلى الخليفة أن يثق أنه لا عدل مطلق إلا عدل الله الشهيد المطلق، فإذا حكم بحكمه تعالى كان العدل والحقّ، وإذا اتجه لغير حكم الله تحقّق الجور والظلم، وعليه أن يلزم العدل في القول قبل الفعل مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}57 فهناك أمر في الآية الكريمة السابقة للمؤمنين بأن يعدلوا مع القريب والغريب، بل إن في هذه الآية منهجا قويما للطريق الصحيح وهو البدء بالنفس دائما في الإصلاح فلا يمكن مثلا أن نعدل مع من حولنا ونكون في نفس الوقت ظالمين لأنفسنا، فالذي يظلم نفسه من المستحيل أن يعرف العدل طريقه لقلبه وعقله، ومن كان عادلا مع نفسه فمن المستحيل أن يكون ظالما لغيره جائرا عليهم.

فالإصلاح دائما ينبعث من النفس فإنّها إن صلحت صلح المجتمع وإن فسدت فسد المجتمع، لذلك بدأ الشهيد بالعدل مع النفس في البداية ثم مع الوالدين والأقرباء.

---

57 النساء 135.

وعلى الخليفة في الأرض أن يلزم شهادته العدل فلا يظلم نفسه وغيره بقول الزور والكذب والافتراء الذي قد يصل إلى درجة الافتراء على الله تعالى كما جاء في قوله عزّ وجلّ: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاس وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشكّرُونَ}58 وهذا أسوأ درجات الكذب والافتراء الذي تكون نتيجته جهنم وبئس المصير.

الشهيد هو الرقيب:

إنّ الشهادة تحتاج إلى مراقبة مستمرة كي تكون شهادة حقّ، فلا يمكن أن تأتي الشهادة وصاحبها غائب أو غافل عما حوله، إذا فالشهادة لا تكون إلا من حي وقائم ورقيب كي تكون شهادته شهادة عادلة وشهادة حقّ.

فالشهيد عزّ وجلّ على عباده هو الرقيب عليهم بالتأكيد، بل بمراقبته لهم تكون شهادته وعدله في جزائهم، وهذا من شأنه أن يجعل من الإنسان رقيبا على نفسه لشعوره بأن الرقيب بالإطلاق يبصره ويسجل أعماله ويشهد عليها، فسبحانه وتعالى لا يغفل عن صغيرة ولا عن كبيرة لقوله تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ رَقِيبًا}59 فلفظة (كلّ) هنا في هذه الآية تدل على جميع الأقوال والأفعال فلا يفلت من مراقبته أي شيء مهما صغر حجمه، فهو الرقيب على الأنفس لقوله سبحانه وتعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ

58 يونس 59: 60.

59 الأحزاب 52.

فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}60، في الآية الكريمة السابقة تحذير من الله تعالى سببه مراقبته للأنفس وما تحمل الصدور وعلمه المطلق بما يدور في أنفسنا، فمراقبة الله وشهادته تتعدى الأقوال والأفعال لتصل إلى ما في النفوس البشرية، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}61، والرقيب بالإطلاق هو الشهيد بالإطلاق على الخلق ومراقبته هذه لا تنقطع ولا تتغير كما جاء على لسان عيسى – صلّى الله عليه وسلّم– في قوله تعالى: {مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَربّكمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}62 ففي هذه الآية نجد أنه:

أوّلا: الرّسُل صلوات الله عليهم وسلّم هم شهداء بالإضافة لا يمكن أن تستمر شهادتهم لعدم استمرار حياتهم.

ثانيا: المراقبة مهمة أوكلّها الله لخلفائه.

ثالثا: اسم الله الرقيب يتفق مع اسمه الشهيد.

لذلك فعلى خليفة الله أن يكون أوّلا رقيبا على نفسه، فلا يجعل منها مسكنا للفساد والشر بأن يكون على يقين بأن الشهيد هو الرقيب على الضمائر والأنفس فكيف الحال بما نفعل أو نقول؟

60 البقرة 235.

61 المائدة 116.

62 المائدة 117.

في هذا اليقين عصمة للخليفة من الخطايا والشرور والرذائل، بأن يخلص لله في السر والعلانية، فهذه المراقبة والشهادة تلزمان الإنسان بالسير على الطريق الصحيح الذي أمره المولى عزّ وجلّ بالسير عليه.

وعلى الخليفة أن يجعل من مراقبته مراقبة علم ونفع لتكون مراقبة إيجابية تعود بالنفع والخير على الخليفة نفسه وعلى من غيره، ولا يجب أن تكون مراقبته لدافع سيء يعود بالضرر عليه وعلى غيره، كأن يراقب الجار جاره لمجرد الفضول.

وإذا داوم العبد على مراقبة نفسه وتيقن من اطلاع الله تعالى على خفاياه وظاهره فإنه يصل إلى خير نفسه وصلاح حاله، وتوصل إلى حالة من الود لله والخشية من الله توصله لأن يكون في مواجهة مع نفسه ومراقبة لذاته في كلّ لحظة وحين، فيراعي الشهيد والرقيب عليه في قلبه ولسانه، فيكون خالصا لله تعالى عالما بما يرضيه مبتعدا عما يغضبه.

فمراقبة الشهيد عزّ وجلّ هي عبادة تقربّ العبد من ربّه وتحفظه من وسوسة الشيطان الرجيم الذي لا سلطان له عليه كما في قوله تعالى: {قَالَ ربّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ ربّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}[63].

ومن شأن اسم الله الرقيب أن يجعل من العبد متيقنا بأن الشهيد قد وكلّ ملكين يحصيان أعماله وأقواله وأنّ حسابه يكون

---

63 الحجر 36: 42.

مكافئا لهذه الأعمال والأقوال، فينعكس ذلك على حياته فيبتعد عن الباطل ولا يكون غافلا عن وقته الذي يجب أن يستغله في طاعة الله وحبه، فيعمر قلبه بالإيمان بأن الشهيد يراقبه ويشهد ما يقوم به دون انقطاع لأنّ الله يراه، فعندما سُئِل الرّسول صلّى الله عليه وسلّم عن الإحسان قال: "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنَّكَ إِنْ لاَ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ"64، فالشهيد يرانا ويراقبنا فطوبى لمن كان رقيبا شاهدا على نفسه جاعلا من عقله وقلبه شاهدين عليه.

الشهيد هو الحافظ:

بما أنّ الله تعالى هو الشهيد كما أسلفنا القول على أقوالنا وأفعالنا وعلى إسرارنا وإعلاننا فهو بالتالي الشهيد الحقّ الرقيب على كلّ العهود والوعود التي تتم بين البشر بغرض حفظ الحقّوق، فالله هنا هو الحافظ الشهيد أي الراعي لأيّ عهد أو اتفاقية أو دين أو معاملة أو عقد، ولو استحضرنا هذه الفكرة في أبسط مثال ألا وهي عقود العمل وعقود الزواج ففي حالة أن كلّ طرف من الأطراف المشتركة في العقد يضع نصب عينيه أن المولى عزّ وجلّ شهيدا على هذا العقد المبرم وأن يكون الشهداء على أي عقد مستحضرين هذا الاسم الكريم في أنفسهم لاستطعنا أن نصل بفكرنا لضرورة حفظ الحقّوق وأنه يجب أن يوفي كلّ شخص بما يمليه عليه بنود هذا العقد الذي شهد عليه أو اتفق عليه مع الطرف الآخر وأن ينفذه بكلّ أمانة وإخلاص وصدق، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الحقّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ ربّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الحقّ

64 صحيح مسلم ج 1، ص 30.

سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}65، وبذلك تكون النتيجة رائعة بمراعاة كلّ طرف مرضاة وصون حقّوق الطرف الآخر كما يمليه عليه العقد، وكذلك في حالة عقد النكاح الذي يتم بين طرفين ينويان الارتباط للشروع في تكوين أسرة، ذلك الارتباط الشرعي الأساسي في تكوين المجتمع المسلم والذي يجب أن يقوم على أساس الاحترام والحب والمودة في أجمل صورها.

لذلك فلو أنّ كلّ إنسان وضع نصب عينيه أنّ الله هو الشاهد الأوّل في كلّ عقد لتوصل إلى صونه والحفاظ على حقّوقه وحقّوق الطرف الآخر حتى ولو تطلب ذلك بذل جهد وتضحية، فإذا كان هذا حال الإنسان فما بالك بالشهيد المطلق والحافظ المطلق والذي يوفق بين العباد كيفما يشاء، فهو مثلا الذي يوفق الزوج للتواصل مع زوجته باحترام وحب وهو الذي يهبهم الأبناء أمانة كي يحافظوا عليهم بالتربيّة السليمة والرعاية الشاملة وبذلك نكون على قدر المسؤولية بأن نستطيع أن نكوّن أسرة نموذجية صحيحة نفسيا فالأسرة هي نواة المجتمع وبذلك نكون من المساهمين في تكوين مجتمع مسلم يرضى عنه الله تعالى، كما أرادنا المولى عزّ وجلّ في قوله

65 البقرة 282.

تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}66، فإذا توصلنا لتحقّيق هذا المجتمع الذي أفراده على هذا القدر من الوعي والالتزام والأمانة فسيكون قد توصلنا إلى معرفة أساس الخلق الذي يحفظ للمجتمع آدميته ويجعله مستحقّا لخلافة الأرض، هذا المجتمع الذي يبحث عنه الغربّ بالوسائل والتقنيات والآليات.

ولا يوجد منه هو حافظ لكلّ شيء غير الحافظ المطلق الذي يحفظ بعلمه المطلق وشهادته المطلقة ما يشاء، وطوبى لمن كان في حفظ الله، قال تعالى: {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}67، فهو الحافظ لنا برحمته وقدرته وبشهادته.

فهو الحافظ لنا من المرض برحمته، والحافظ لنا من النّار بمغفرته، والحافظ لنا حقّوقنا بشهادته، والحافظ لنا المال والبنون بكرمه.

فعلى الخليفة أن يكون حافظا للتالي:

لحدود الله: قال تعالى: {وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}68، فالله تعالى أعلم البشر بحدوده ومن يتجاوز هذه الحدود فإنه ظالم لنفسه، فلا حقّ لإنسان بتعدي حدود الله تعالى، والله بالتالي شهيد على من يحفظها وعلى من يتعداها، ومن أراد النجاة فما له إلا أن يبقى ضمن هذه الحدود حافظا لها، واسم الله الشهيد من شأنه أن يذكّر الإنسان بالحفاظ على هذه الحقّوق لأن من تجاوزها فإنه الله يشهد عليه بذلك.

66 آل عمران 110.

67 يوسف 64.

68 الطلاق 1.

والشهيد أعلم بالإنسان من نفسه لذلك فقد جعل عقابا لمن تجاوز حدوده سبحانه وتعالى، وجعل ثوابا لمن حفظها، ولنا في رسلنا وأنبيائنا القدوة الحسنة في حفظهم لحدود الله، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلّم فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلاَّ أُسَامَةُ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلّم. فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلّى الله عليه وسلّم "أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ. ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ: أَيُّهَا النّاس إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ محمّد سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا"69.

فيجب أن نراعي حدود الله ونحفظها في أنفسنا وفي أهلنا وأقربّائنا، فلا أعظم من أن نكون عادلين وحافظين لهذا العدل وهذا الحقّ.

وحافظا لشهادته: فهو بالتالي حافظا للحقّ من الضياع وحافظا للعدل أن يسود ويعم النفوس البشرية التي تلجأ أحيانا لطمس هذا الحقّ، فلا يجب أن يترك المؤمن مؤثرا يؤثر عليه لتغيير شهادته لأنّ في ذلك ضياع للحقّوق وعدم حفظ حدود الله تعالى.

حافظا لنفسه:

من يحفظ الله تعالى فقد حفظ نفسه من النّار ومن سوء العقاب، فالله حافظ المؤمن من وسوسة الشيطان الرجيم، قال تعالى: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ

---

69 صحيح مسلم ج 5، ص 114.

رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ ربّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ ربّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}70، فمن أراد أن يكون في حفظ الله لابدّ أن يكون على يقين بأن الله شهيد عليه في كلّ لحظة فيراعي الله في كلّ ما ينطق به أو يفعله، بالتالي فهو يحفظ الشهيد في نفسه والشهيد يكون حافظا له من الشيطان الرجيم.

حافظا لصلة رحمه: قال سبحانه وتعالى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِيْنَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}71، فقد أوضح الله تعالى الحقّوق المادية كما جاء في الآية السابقة لصلة أرحامنا، وكذلك أوضح الحقّوق المعنوية لهم في قوله تعالى: {وَقَضَى ربّك أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرّحمة وَقُلْ ربّ ارْحَمْهُمَا كَمَا ربّيَانِي صَغِيرًا ربّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا}72، فهذه الحقّوق المادية والمعنوية التي تؤدّي كلّ منهما إلى الآخر من الأمور المهمة التي أمرنا الله بأن نكون حافظين لها وهو شاهد على من يحفظها ومن يضيعها.

---

70 الحجر 32 . 42.

71 البقرة 215.

72 الإسراء 23 . 25.

فمن أثر اسم الله الشهيد أن يجعل منا حفظة لكلّ حدوده التي بيّنها لنا وأشهد عليها ملائكته ورسله، فلا مهربٌ من مسؤوليتنا أمام الله عند تجاوز هذه الحدود وكيف ذلك وهو الشهيد على كلّ شيء؟

الشهيد هو الكريم:

الله سبحانه وتعالى هو الشهيد علينا وعلى الرّسُل والملائكة وعلى كلّ عملٍ نقوم به، فمثلا وفي أبسط صورة حينما نقف للصلاة أو القيام بأي نوع من أنواع العبادات متذكرين أن الله تعالى شهيدا علينا لوجدنا انفسنا تهفو للمزيد من هذه الطاعات والقيام بها على أكمل وجه، وقد أكرم الله تعالى الإنسان محفزا إياه للطاعة والعمل الصالح والزيادة في سعيه وراء الحسنات في قوله تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}73، وكذلك قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كلّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}74.

فالكريم يعطي الإنسان من أوسع أبوابه ويضاعف الحسنة بعشرة أمثالها ولا يكتب السيئة إلا بسيئة مثلها، وهو الشهيد فشهادته بمثابة فرحة عظيمة للإنسان المسلم الذي يجعل من هذا المسلم يسارع في فعل الخيرات لنيل جنة النعيم، قال تعالى: {وَالَّذِينَ

73 الأنعام 160.

74 البقرة 261: 263.

يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}75 وبذلك يكرمه الله بنجاته من النّار ودخوله جنات عدن، ونستطيع أن نتصور كيف ستكون همة الساعي لطاعة الله ونيل رضاه فهمته ستكون في أعلى مراتبها وأروع صورها وهذا يجعل من المؤمن مستشعرا بلذة السجود لله تعالى الشهيد عليه وعلى ما في قلبه، فليتنا نتخيل مدى الجمال الذي يتمثل في قمة العبودية له سبحانه وتعالى وهذا يكون انطباع المؤمن وإحساسه تجاه الله تعالى في لحظة سجوده لله تعالى وهو يشهد عليه بالإضافة إلى أن في سجوده هذا يتخلص من الكثير من الأعباء والهموم وقد أثبت العلم الحديث في دراسة جديدة أن الإنسان يتخلص من بعض الشحنات الكهربّائية الزائدة والتي تساعد على الحصول على راحة نفسية لا يمكن وصفها.

والكريم هو الذي يعطينا الخير أمّا الشر فيأتي من أنفسنا، لأن الله رفع الحجّة عن البشر ببعثه للرسل والأنبياء، وشهد على تبليغهم كلّمات الله وهداه، وهذا كرم من المولى الذي لا يريد إلا الخير بنا مصداقا لقوله تعالى: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفي بِاللَّهِ شَهِيدًا}76، فمن الآية الكريمة السابقة يتضح لنا أن الحسنة والخير من عند الله تعالى لأنه الكريم والكريم لا يمكن أن يبخل بالخير على غيره فكيف بالكريم المطلق؟ أما الشر والفساد فمن يد الإنسان نفسه بإتباعه خطوات الشيطان الرجيم الذي لا يدل إلا على المفسدة والمعصية، لم يكن الله تعالى ليشهد على كفر أو إيمان أي

75 المؤمنون 60: 61.

76 النساء 79.

إنسان إلا بعد أن يكرمه بتوضيح طريق الحقّ من الباطل وبعد ذلك لا يكون للبشر حجّة على الله في كفرهم وعصيانهم.

ومن شأن الوصول إلى اليقين بأنّ السيئة تأتي للإنسان من نفسه أن يحاول على الفور الابتعاد عن كلّ ما هو سيء وفاسد، فعلى الإنسان أن يبحث عن الخلل ويحاول إصلاحه ويساعده في هذا الإصلاح كلّ سبل الهداية من الكريم جلّ جلاله.

الشهيد هو الوكيل:

تتخلص الصلة بين اسم الله الشهيد واسمه الوكيل في هذه الآية: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا}77 بما أن الله تعالى دائم الحياة وقائم على أمر العباد وبما أنه الحي فهو الشاهد على كلّ شيء، والشاهد على كلّ شيء لابدّ أن يكون الوكيل عليهم، وإذا وصل المسلم لفهم هذه العلاقة لتوكلّ على الشهيد الذي لا يموت.

والوكيل المطلق هو الذي يشهد على حفظه ما وكلّه به عبده صغيرا كان أم كبيرا، وبعدله المطلق يحفظ حقّوق الخلق ولا يظلم المولى سبحانه وتعالى أحدا وهذا ما وصل إلى قلوب الخلفاء في قوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاس إِنَّ النّاس قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}78، فالاكتفاء بتوكيل الله تعالى في أمورنا هو أساس الإيمان والطاعة للمولى جلّ جلاله.

ويتوكلّ على الله كلّ مؤمن بقدرته وبأنه شاهد على كلّ شيء، فما من حقّ أو أمانة أو اتفاق إلا وكان الله شهيدا عليه، الله هو

---

77 الفرقان 58.

78 آل عمران 173.

الوكيل الذي يجب أن نتوكلّ عليه وحده ونثق بعدله وحكمه وقضائه، فلا تضيع الحقّوق لديه عزّ وجلّ ولا تُكتم الشهادات عنده بل هو الحافظ لما وكلّناه به الله شاهد بعلمه وقدرته المطلقين.

ولذلك فإن الخليفة من وكلّ أمره لله واثقا به ومسلما أمره له عزّ وجلّ، وهذا يجعل منه راضيا بما قدّر له من تقسيم رزق، وأن يجعل من الله وكيل على كلّ ما يقول أو يفعل كما فعل سيدنا موسى – صلّى الله عليه وسلّم- في قوله سبحانه وتعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النّاس يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ ربّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}79، ذلك بأنه الشهيد على القول والفعل سرا كان أو جهرا، والخليفة من يتبرأ من أمره ويفوضه للشهيد عليه، فهو يشهد حاجته ويعلم ما ينفعه وما يضره.

الشهيد هو العليم:

---

79 القصص 23 . 28.

الشهيد عليمٌ بمن يراقبهم ويحفظ أعمالهم، فلا تكون شهادته بها نقصٌ أو عيب وهذا ما يتفق مع أنّه تعالى منزه عن النقائص والعيوب، فعلمه عزّ وجلّ يحيط بكلّ شيء والإحاطة تتوفر في مراقبته عزّ وجلّ، وبهذه المراقبة هو الشهيد علينا.

وعلمه عزّ وجلّ لا يقتصر على ما ظهر من أعمال وأقوال بل يتعداه لما تخفيه الصدور لقوله تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بالحقّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}80، فبعلمه وخبرته يشهد على عباده فهو الذي لا يعزب ولا يغيب عنه أي شيء في الأرض أو في السماء، وكذلك علمه لا يتحدد بزمن أو وقت فهي يعلم ما كان وما سيكون.

فالعليم عزّ وجلّ شاهد على العباد بعد أن جعلهم مدركين عاقلين بما وهبهم إياه من نعمة العقل لكي يميزوا بين الحقّ والباطل، فقد جعل من الأرض والسماء شواهد على قدرة الله يخاطبان عقل الإنسان ويهديانه إلى قدرة الله تعالى لقوله عزّ وجلّ: {نَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النّاس وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كلّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}81 وأعلمهم

80 التغابن 1: 4.

81 البقرة 164.

بالخير بإرساله الرّسُل والأنبياء مبشرين ومنذرين، قال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حجّة بَعْدَ الرّسُل وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفي بِاللَّهِ شَهِيدًا}82 ففي الآية الكريمة السابقة نجد أنه:

الله يعلم ما ينفع البشر وما يضرهم ويعلم مسبقا بما سيكون في نفوس العباد.

الله والملائكة يشهدون على الإنسان يوم القيامة.

خطاب الله تعالى للرسول عليه الصّلاة والسّلام بأنّه شهيد إنما المقصود به تأكيد للبشر على كفاية شهادة المولى عزّ وجلّ.

ولذلك فإنّ خليفة الله يجب أن يملك من العلم ما يرفع به خُلُقه ويرقى به ليصل إلى استخلاف الأرض وإعمارها، فالعلم يكون شاهدا على صاحبه بالنفع والخير.

الشهيد هو الحليم

بالرغم من أنّ المولى عزّ وجلّ شهيدا على عباده ويعلم العاصي والجاحد منهم إلا أنه لا يسارع في عقابهم لحلمه بهم، فلو عاجل الله تعالى العاصي والمذنب لما وجدنا تائبا أو مستغفرا، ولكن الله تعالى العليم بعباده وبضعفهم يمنحهم الفرصة تلو الأخرى كي يرجعوا للحقّ وهو شهيد عليهم، فالله شهيد على المؤمن والكافر والتائب وهو أيضا حليم بهم ومحيط بهم جميعا عليم بما في صدورهم، قال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ

82 النساء 165: 166.

غَفُورٌ حَلِيمٌ}83 فالحليم هو الشهيد على ما في النفوس فيحلم بأصحابها كي يرجعوا للحقّ والصواب.

وبالرغم من أنّ المولى عزّ وجلّ شهيد على خلقه إلا أنّه لا يمسك فضله عن عباده عقابا لهم على ذنوبهم، فلا يغضب لعصيان عاصي ولا لذنب مذنب بل إنه يحلم بهم ويجعل من حلمه بهم حافزا لهم للتوبة والندم.

وحلمه على العباد شاهد على أنه سبحانه وتعالى قادر ورحيم في ذات الوقت، فهو يملك القدرة ولكنه يعاملنا بالرّحمة والود، فهو الشهيد وهو الحليم الذي يؤخر عقابه بعلمٍ وخبرة، قال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النّاس بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا}84.

لذلك فعلى الخليفة أن يحلم على غيره بكونه شاهدا عليهم فلا يغضب لأقل الأسباب ولا يجعل من شهادته رد للإساءة وعقاب لما آذاه، قال تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}85.

للشهادة مراتب منها:

أولا: الشهادة بالمطلق:

وهذه الشهادة لا تليق إلا بالشهيد المطلق ولا تتحقّق إلا فيه فهو الشهيد بالإطلاق الذي خلقنا وشهد علينا: قال سبحانه

83 البقرة 235.

84 فاطر 45.

85 الشورى 40.

وتعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ}86، وكذلك قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ هُنَالِكَ تَبْلُو كلّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الحقّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}87، فشهادته عزّ وجلّ هي الفاصل بين الحقّ والباطل، فلا تضيع حقّوق العباد لديه وهو الشاهد عليها، فيشهد للظالم بظلمه ويعاقبه على ذلك ويشهد للمتقي بإيمانه ويكافؤه على ذلك، قال تعالى: {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ

86 الحشر 11 . 14.

87 يونس 27 . 30.

جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ ربّكمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الجنّة بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}88، فشهادته تعالى تثبيت للحقّوق ورد للمظالم ومكافأة لأحبائه، فلا يداخلها تزوير أو تحيز أو تفريق بين العباد، وكيف ذلك وهو العادل الواحد الأحد الرقيب الحسيب؟

فنحن نلاحظ أنّ في بعض القوانين التي وضعها البشر نقصٌ وعيوب وثغرات يستطيع الظالم أن يدخل منها لطمس حقّوق الآخرين دون أن يكون عليه شاهد دنيوي من بني الإنسان فهنا القانون يكون غير عادل وخاصة إذا أخذ بأقوال شهداء الزور، ومن هنا كان شرع الله الشهيد على نفوس البشر أصلح منهاج للحفاظ على الحقّوق لأن هذا الشرع يشهد عليه الشهيد بالإطلاق الذي لا يشوب شهادته أدنى شكّ لتنزيهه عن كلّ النقائص والعيوب.

ومن شأن الإيمان بذلك أن يتوكلّ الخليفة على مولاه عزّ وجلّ وهم مدرك أنه شهيد له وعليه، فيطمئن ويهدأ ويتيقن أن حقّه في الدنيا وإن سُلِب فإنه سيرجع إليه يوم القيامة عندما يشهد الحقّ بذلك فلا يبقى حقّ مسلوب ولا مظلمة إلا ويرجعها الشهيد لأصحابها.

ثانيا: الشهادة التي لا يتطرق إليها شكّ:

---

88 النحل 26 . 32.

كشهادة الملائكة المكرمين والرّسُل الكرام الذين ينطقون بما أمرهم الله به، وإذا كان هذا حالهم فكيف لا تكون شهادتهم شهادة صدق؟

فالملائكة لا تعمل ولا تقول إلا ما يرضي الله تعالى، وبالطبع لا يرضى الشهيد الحقّ تزوير الشهادات ولا يمكن أن ينطق بها من يعملون بأوامر الله قولا وفعلا مصداقا لقوله تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}89، وكذلك قوله تعالى: {لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفي بِاللَّهِ شَهِيدًا}90.

وكذلك الرّسُل والأنبياء الذين اصطفاهم الله تعالى للتبشير والتحذير، فهم بهذا الاصطفاء لا يمكن أن يكونوا شهداء على الباطل فذلك يتنافى مع كونهم ينطقون بما يوحي إليهم المولى عزّ وجلّ قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}91، فالله شهيد على أنّهم شهداء على أقوامهم في فترة مكوثهم بينهم، وهذه شهادة لا يمكن أن يداخلها شكّ أو كذب أو افتراء ممّا يتنافى

89 النحل 49، 50.

90 النساء 166.

91 المائدة 116: 117.

مع أخلاقهم وصفاتهم التي ربّاهم الله عليها، قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}92، فمن وصفه ربّه بأنّه على خلقٍ عظيم لا يمكن أن يتطرق الشكّ في شهادته التي هي أمر من الله لنبيه محمّد عليه الصّلاة والسّلام مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا}93، وهذه الشهادة تشمل جميع الرّسُل، قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا}94.

ثالثا: الشهادة التي تداخلها الشكّ:

بما أنّ الإنسان خُلق ضعيفا فإنه متعرض للغفلة والوهن ممّا يجعل منه متذبذبا بين الحقّ والباطل، يخضع أحيانا هذا الإنسان لنداء ضميره وأحيانا يقع تحت وسوسة الشيطان الذي لا يقود إلا للهلاك والضياع، لذلك فإنه شهادة هذا الإنسان يتطرق إليها الشكّ، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ}95، فشهادة الإنسان يتداخلها شكّ فكان لابدّ

---

92 القلم 4.

93 الأحزاب 45: 46.

94 المزمل 15.

95 النور 6: 10.

من مستند تستند عليه وهو أن الله الشهيد الحقّ، وفي هذا تذكير للإنسان الذي سيؤدّي اليمين بأن الله شهيد على شهادته.

وبالرغم من ذلك نجد بعض النفوس البشرية الضعيفة التي تلجأ للحصول على مال اليتيم الذي نهانا الله عن القربّ منه بغرض اختلاسه وسلبه من أصحابه، قال تعالى: {وَلَا تَقْربُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} 96، وقد يجلب هذا الإنسان الطماع بعض من يشهد معه زورا على سلب هذا الحقّ مقابل قدر من المال، وكأن كلّ منهما على ثقة بأن لا أحد يدرك ما يصنعان أو يتآمران عليه، في حين أن الشهيد المطلق يكشف حتى ما في النفوس قبل الخروج منها، قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}97

ولهذا فعلى الخليفة أن يراعي الله الشهيد في كلّ ما ينطق به أو يقوم بفعله، وإذا كان في موضع لأن تُؤْخذ شهادته يجب أن يتذكر بأنّ الشهيد يراقبه ويكتب شهادته فيكون معتدلا غير متحيز لقرابة أو علاقة بل يجب أن تكون علاقته بالشهيد من أول الأمور التي تكون في حسابه عند الشهادة.

وقد جعل الله من الإنسان شاهدا على نفسه، بالرغم من شهادة الشهيد عليه ولكنه جعل من جسده وأعضائه التي هي أقربّ شيء فيه شاهدة عليه يوم الحساب مصداقا لقوله تعالى: {وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النّار فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كلّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ

96 الأنعام 152.

97 التغابن 4.

مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنّار مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ} 98 ففي الآية الكريمة السابقة نجد أنه:

* الله العليم الصبور على عباده حدد وقت شهادة الإنسان على نفسه في أصعب الأوقات التي لا يمكن أن ينكر فيها المرء ما نطقت به أعضاءه.

* الإنسان يميل إلى إنكار الحقّيقة والشهادة بها لذلك فقد أنطق الشهيد كلّ ما شهد على الإنسان من نفسه.

* ما أضعف الإنسان إذ أنه لا يملك حتى السيطرة والتحكم في أعضائه! فهي تعمل بما أمرها الله تعالى به فهو خالقها ومالك أمرها.

ما العلاقة بين الشهادتين (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمّدا رسول الله) وبين اسم الله الشهيد؟

هاتان الشهادتان فيهما أكثر من معنى، فالمعنى الأول فيها هو الشهادة لله بالوحدانية متضمنة شهادة بالعبودية لله من قِبَل هذا المتشهد، والمعنى الثاني اليقين بأن محمّد – صلّى الله عليه وسلّم- خاتم الأنبياء والمرسلين، والمعنى الثالث أن الإنسان مسؤول عن مراعاة هذه الشهادة التي أقرها في قلبه قبل النطق بها بلسانه.

---

98 فصلت 19: 24.

فالإيمان ينحصر في العمل ضمن هاتين الشهادتين، فلا عمل يُقبل دون الإقرار والتصديق بهما، وفي النطق بالشهادة رجاء من الإنسان إلى الشهيد بالإطلاق كي يشهد على ما شهد على نفسه، أي أن الإنسان المؤمن يحب أن يكون الله شهيدا عليه، فهو لن يُظلم أن يُفتَرى عليه من عند الله جلّ جلاله الذي نزّه نفسه عن كلّ العيوب والنقائص.

كما إن اسم الله الشهيد يعلّم الخليفة درسا في القوّة والانتصار، لأن الشهيد بالإطلاق هو القوي الذي يملك أن يكون شهيدا وحده وعلى كلّ شيء وفي كلّ وقت، والخليفة بما أنه يستمد صفاته من صفات المولى عزّ وجلّ فإن من شأن اسم الله الشهيد أن تصل بالشهيد بالإضافة إلى قوّة اليقين بالله الواحد الأحد فننطق بالشهادتين بقوّة إيماننا بهما وبالتالي فإن ذلك الإيمان يمنحنا القوّة التي نفتقدها في زمننا هذا، فلو رجعنا إلى زمن بعث الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – بالهدى والقرآن المنير نجد أن قلة من العربّ الذين أسلموا بذلك وصدّقوا به وبالرغم من ذلك فقد واجهوا الكفر بطغيانه وجبروته ودخلوا في حروب مع أهل الكفر والجهل بشكلّ غير متكافئ إذا قارنا بين المسلمين والكفار من جهة العدة والعتاد، وقد كانوا يواجهون ملوك الفرس والروم هاتان القوتان اللتان كان يخشاهما العربّ أجمع ومع ذلك كلّه استطاع المسلمين القلة أن ينتصروا على كلّ أولئك، يا ترى كيف نعجز الآن نحن المسلمين من رد أي أذى عن بلدٍ مسلم أو حتى في صون كرامتنا كمسلمين؟

السبب بسيط جدا يتلخص في مدى صدق النطق بالشهادتين، وبمدى يقيننا بأن الله هو الشهيد على ما نشهد به له

من وحدانية له وعبوديتنا له عزّ وجلّ فنستمد منه هذه القوّة التي نستطيع بها أن نحيا أعزاء وأحرار كما أرادنا الله تعالى.

فالشهادتان لا يمكن أن تكونا مجرد جملتين نرددها بين الحين والآخر بل لابدّ أن تكون مركز القوّة والطاقة التي تمدنا بالقدرة على كلّ شيء في الحياة، فقد كان رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – يجعل من الصحابة ومن معه من المسلمين يصلون بأنفسهم إلى جوهر هذا المعنى فكانوا جبالا في الطاقة والقوّة المعنوية والنفسية والقدرة على التحمل، لأنهم كانوا يضعون الشهيد بالإطلاق نصب أعينهم عند النطق بالشهادة فيستشعر بواجبه تجاه هذه الشهادة أمام الشهيد سبحانه وتعالى، فنجحوا في إرساء دعائم المجتمع المسلم القوي والصحيح.

وقد تجل أيضا صدقهم مع الشهيد عليهم حتى في معاملتهم مع الكافرين وأهل الكتاب فما الذي كان يجبرهم على احترام العهود معهم والتزام حسن الخلق في التعامل معهم؟

ما كان شيء يجبرهم إلا علمهم أنهم تحت الشهيد الذي يشهد ما يفعلونه، فالإحساس لدى كلّ مسلم بأن الله تعالى يراقبه يجعله قويا صابرا متوكلّا مكتفيا بشهادة الشهيد على كلّ قول أو فعل يصدر منه، وهذا بحد ذاته أكبر رادع للإنسان المسلم كي يحسن التصرف والكلّام فيشعر بالخجل بما تفوّه به من رذائل الكلّام كالنميمة والكذب والسخرية كما نهانا الله تعالى في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ

بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}99، فلا يصل الإنسان إلى هذا الخلق الكريم الذي يرقى بآدميته إلا إذا كان مدركا بأن الشهيد معه في كلّ همسة وكلّ فعل صغُر أو كبر، فيراعي الشهيد في كلّ أمر من أن يقوم بما لا يرضيه عزّ وجلّ.

الشهيد هو الحقّ وكلّ من كان شاهد حقّ هو شهيد، فالذي يشهد الزور هو مانع للخير والصلاح فلا يعتبر شهيدا على الباطل.

الشهادة لها حقّوق علينا ألزمنا الشهيد المطلق بها وهي:

1- عدم تزوير الشهادة:

عند اللجوء إلى شهادة شاهد في أمرٍ ما فإن هذه الشهادة تحتمل الحقّيقة أو تزييف هذه الحقّيقة وهذا يرجع إلى ضمير الشاهد ودرجة إيمانه، فمن كانت نفسه مطمئنة بحبها لله وذكره فإنها لن ترضى إلا بشهادة الحقّ، وإن كانت النفس تحت سيطرة الشيطان فإنه بالتأكيد سترضى بشهادة الزور، قال تعالى: {وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا}100، والسوء هنا يقع تحته كلّ ما هو قبيح وفاسد ومن ضمن ذلك شهادة الزور، على عكس من اتبع الله وخاف عقابه فهؤلاء لا يرضون بغير الحقّ وشهادة الحقّ، فشهادة الحقّ من صفات المؤمنين الذين قال تعالى عنهم: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا}101.

99 الحجرات 11: 12.

100 النساء 38.

101 الفرقان 72.

فمثلا نجد في بعض قضايا الطلاق يلجأ أحد الطرفين لتزييف الحقّيقة لهدف مادي يحلم أحد الطرفين بالحصول عليه ولا يهم الأسلوب الذي يتبعه للوصول لهدفه، وهذا الطمع المادي يُخْسِر الإنسان رضا ربّه الشهيد على ما يفعل بل إنه يتناسى ويغفل عن الشهيد المطلق الذي لا ينام ولا يغفل.

2- عدم كتم الشهادة:

إذا كتمتَ شهادة حقّ فاعلم أنك بالتأكيد قد أضعت حقّ إنسان وأن الله شهيد عليك فيها، لأنه حين نكتم شهادة حقّ معنى ذلك الظلم قد وقع على إنسان قدّر لك الله أن تكون شاهدا في أمره

كتم الشهادة من شأنه أن ينشر الفساد والظلم بين البشر، وفيه طمس للحقّ وإظهار للباطل، ومن يكتم شهادته يكون في غفلة عن الله الشهيد عليه وعلى ما في نفسه، فإنه كتمها عن البشر فكيف يكتمها عن الشهيد بالمطلق الذي أمره بقولها لما فيها من نفه وحفاظ على الحقّوق والمصالح، قال تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[102].

3- عدم إنقاصها:

---

102 البقرة 283: 284.

بل يجب أن تكون كاملة لا نقص ولا زيادة فيها لأن الحقّ لا يحتمل النقصان أو الزيادة، فمن الطبيعي أن يكون في نقص الشهادة إنقاص للحقّ، وهذا لا يمكن أن يُرضي الشهيد بالمطلق الذي أمرنا بأداء الشهادة كما هي كي نتجنب الظلم والفساد والضياع.

والشهيد المطلق شاهد على نفسه قبل أن يكون شهيدا علينا، قال تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآَيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}103.

والشهادة في الدنيا تكون اختيارية، فقد يشهد المرء بالحقّ وقد لا يشهد وذلك يرجع كما أسلفنا القول إلى إيمانه وخوفه من الشهيد بالإطلاق، أما في الآخرة فهي إجبارية لا يتحكم فيها الإنسان بل الذي شهد عليه في الحياة الدنيا مصداقا لقوله تعالى: {وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كلّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنّار مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ وَقَيَّضْنَا

103 آل عمران 18: 20.

لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحقّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ}104.

وشهادة الحقّ تؤدّي إلى:

إظهار الحقّ: بما أن الإنسان مخلوق ضعيف قابل للفساد والمعاصي فإنه متعرض للذنوب والأخطاء ولكن عند الأمر بشهادة الحقّ فإنه من شأن ذلك أن تُظهر الحقّ على الباطل، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ}105.

إعادة الحقّوق:

أحيانا بشهادة حقّ واحدة ينطق بها لسان بشري يخاف الله خالقه ومولاه يُرجع بها حقّا مسلوبا أو يُرفع بها ظلما واقعا على شخصٍ ما، فتُرَد الحقّوق النفسية والمادية الضائعة لأصحابها بهذه الشهادة التي تحي الحقّ وتميت الباطل، إنها شهادة إن نطق بها لسان الإنسان أصبح مسؤولا عنها وإن كتمها أن علمها فهو أيضا مسؤول عنها، فلابدّ أن يراعي حقّ ربّه وحقّ نفسه وحقّ غيره فيها.

ردع للفساد والظلم:

---

104 فصلت 19: 25.

105 النور 6: 9.

لا يأمر الشيطان إلا بالفساد والشرور والظلم، لذلك كان لابدّ من شهداء حقّ على الحقّيقة كي يحاربّوا اتباع الشيطان ويمنعوهم من نشر الظلم والرذائل على الأرض التي هي مسؤولية كلّ من عليها إذ أنها أمانة نحن مستخلفون فيها، فإذا زُيفت الحقّيقة وتزيفت ضاع الحقّ وتاه وسط هذا الفساد والباطل، ولأن الله جعل من شهادة الحقّ رادعا للظالمين والفاسدين الذين يريدون أن تعم الفاحشة بين البشر.

فإذا عمت شهادة الزور وشملت النفوس واستوطنت فيها فإن ذلك يكون باعث لتفشي الرذيلة دون خوف أو رادع.

الشهادة تتطلب:

الأمانة:

الأمانة في الشهادة هي أن تُؤدى بكاملها فلا نقص يعتريها ولا زيادة ولا كتمان، قال سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ ربّكمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكلّ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكلّ شَيْءٍ قَدْرًا وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ

يُسْرًا ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا}106.

والشهيد بالإطلاق عندما استخلف الإنسان في الأرض وضّح له طريق الحقّ والهداية، ومن ضمن ذلك أنه في اسم الشهيد يعلّم الإنسان الأمانة، فالإنسان كفرد لابدّ أن يكون شاهدا على نفسه أمينا فيها قبل كلّ شيء، فلو وصل كلّ مسلم لهذه الدرجة من الأمانة لعم الخير والصلاح، لأنه إذا كان أمينا مع نفسه وحدث خلل لديه مع نفسه لوجد غيره ممن يحيطون به يساعدونه على لمس هذا الخلل سواء كان أخا أو أبا أو صديقا أو قريبا، فالأمانة مع النفس سببا قويا لإحقّاق الحقّ ولتكوين مجتمع أمين سليم مطمئن.

فعلى الخليفة أن يكون أمينا داعيا للأمانة بين العباد الأمر الذي يبعث الراحة والطمأنينة في نفوس العباد، إذ أنّ الخيانة أساس كلّ الرذائل وأصل كلّ المفاسد ومن شأنها أن تنزع الثقة من النفوس.

الصدق:

فمن صفات شهداء الحقّ الصدق، ومن كان صادقا مع نفسه كان صادقا مع ربّه ومع غيره، ومن شأن الإنسان الصادق أن يكسب ثقة من حوله وهذا يؤدّي إلى أن تكون شهادته شهادة صادقة لا يداخلها التزييف والافتراء الذي يتنافى مع أخلاق الإنسان الصادق، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا

106 الطلاق 1: 5.

أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}107 في الآية الكريمة السابقة توضيح بأن الصادق في الدنيا هو الصادق في الآخرة حيث يشهد الله تعالى بأنه صدقه وصدق رسله، وهذا هو المكسب الكبير، وقد كان الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم- من صفاته الصدق والأمانة إذ كان يلقب بالصادق الأمين وهو خير أسوة لنا نقتدي به ونسير على منهجه، فإذا اجتمع الصدق والأمانة فقد اجتمعت مكارم الأخلاق الذي بعث الله تعالى سيدنا محمّد عليه السلام كي يتممها بين البشر.

وإذا عم الصدق وانتشرت الأمانة بين المسلمين لما لاحظنا هذا الارتفاع الكبير في نسبة الجريمة وهذا الفساد الذي عم السواد الأعظم من النفوس المسلمة، لذلك فهذه مهمة الخلفاء كي يسيروا داعين لها عاملين بها.

لذلك فإنه من المستحيل أن يكون من بين الخلفاء من هو كاذب أو خائن أو مفتري، لأنّ ذلك يتنافى مع رسالته التي عرضها له الله تعالى لصلاح الأرض وخيرها، فالصدق يجعل من الخليفة موضع ثقة واحترام مع نفسه ومع من حوله.

العدل:

---

107 المائدة 116، 120.

في حال انتشرت الأمانة في أداء الشهادة يتحقّق العقاب للذي يستحقّه فلا يُظلم أحد من وراء شهادة كاذبة، لأن الشهادة هي التي تحدد نوع العقاب وعلى من يستحقّه، ولابدّ كي يتحقّق العدل بين النّاس ألا يكون لدى القانون مستويات للبشر كالغنى والفقر والقوّة والضعف، فإذا كان هناك فرق وتمييز لبعض الأفراد عن البعض الآخر فلن تفيد شهادة الحقّ طالما هناك تمييز بين البشر.

لذلك على ولى الأمر أن يكون عادلا في حكمه وعادلا في سماعه للشهادة وعادلا في قوله لها مهما كانت الظروف، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصّلاة فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحقّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحقّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}[108].

القوّة:

لا تأتي شهادة الحقّ إلا من إنسان قوي بالله وبحبه له تعالى فيكون هذا الحبّ هو الدافع له لكلّ عمل خير يقوم به، فلا يضعف تحت تأثير مالٍ أو جاهٍ أو سلطة، فالمتوكلّ على الله والواثق

108 المائدة 106: 108.

بأنه شهيد عليه وعلى كلّ ما يقوم به سيشعر بالخجل من أن يزيف شهادته وسيخاف من عقاب الشهيد عليه.

الإيمان:

درجة الإيمان في صدر كلّ إنسان تتحكم في تصرفاته وأفعاله، وأشدها هو أن يصل الإنسان إلى حد الإحسان وهو أن تدرك وتتأكد من أن الله يراك في كلّ لحظة وكلّ طرفة عين، بذلك يراعي الله في كلّ حركاته وسكناته، أما إذا نقص الإيمان في قلب الإنسان فسوف يكون معرضا للفساد والهلاك وإتباع طريق الشيطان الذي لا يعد الإنسان الذي يتبعه إلا بالسوء والفاحشة.

فالإيمان الحقّ يجعل من الإنسان مستحضرا للشهيد في نفسه في كلّ لحظة وكلّ حين، وهو الذي يصل بالإنسان إلى قناعة أن الشهيد دائم الشهادة عليه.

العلم:

العلم يجعل من صاحبه مدركا لخطورة مجريات الأمور من حوله، أمّا الجاهل فسوف يخلط الأمور بعضها ببعض فلا يدرك عواقب الأمور، لذلك كلّما كان المرء على درجة من الوعي والفهم والإدراك لارتقى بنفسه من رذائل الأمور التي تهين آدميته وتُلقي به إلى الهاوية، وتقع على عاتق الإنسان المتعلم مسؤوليات عدة أكثر بكثير من الإنسان الأمي الذي لابدّ أن يكون للمتعلم دور في نشر مفاهيم صحيحة تعين هذا الأُمي على السير الصحيح تجاه الخالق عزّ وجلّ، فلا يكون معرضا ضعيفا تحت أي ضغط، أو ساذجا من السهل التحايل عليه.

الحرية:

والمقصود بالحرية هنا هو عدم تحكم شخص في الشاهد بأي شكلّ من الأشكّال، لأنه يجب أن يكون حر الرأي وأن تكون الشهادة خالية من أي استعباد لها من طرف آخر، وأن يكون الشاهد يملك من قوّة الشخصية وبعد النظر ما يكفي لأن يكون حر نفسه، لا يتبع سلطان المال أو الشهوة أو غيرهما.

وللشهادة أطراف وهي:

شاهد: من شهد الفعل أو القول بنفسه، فيكون ملزما بأداء هذه الشهادة على أتم وجه لأنه منذ أن شهدها أصبح مسؤولا عنها، فإظهارها أو طمسها يكون مرتبطا بمدى أخلاق الشاهد، قال تعالى: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ}109.

مشهود عليه: الشخص الذي شهد له أو عليه، فكلّ أمر يتطلب الشهادة لابدّ أن يكون هناك طرف على حقّ وطرف آخر على باطل.

مشهود به:

---

109 يوسف 23 . 24.

وفي اسم الشهيد تحذير للعباد من أنّ الله تعالى يراقبهم ويحصي أعمالهم خيرها وشرها، فهو الشهيد على ما يفعله البشر وبذلك لن يفلت إنسان إطلاقا من هذه الشهادة، ولكن بالرغم من هذا التحذير يغلب أحيانا طبع الإنسان المغرور على عقله، حتى أنّ أهل الكتاب أنفسهم بعد أن مَنَّ الله تعالى عليهم بالكتاب كفروا وازدادوا غرورا وفجورا رغم أنّ لديهم الدليل والبرهان الذي يقطع أي حجّة على الله تعالى، وبالرغم من علمهم أن الشهيد يراهم ويكتب ما يعملون كما جاء قوله سبحانه وتعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}110 فلو تدبر كلّ مسلم الآية الكريمة السابقة والسؤال الذي فيها لاستشعر فيه التحذير ورد الحجّة على أصحابها بعدم العلم، بالرغم من أن الشهيد بالإطلاق قدّم لهم الدليل المادي للإيمان به والخوف منه وهو الشهيد عليهم، لكن الذي حصل هو ازدياد كفرهم وعنادهم.

والله هو الشهيد على عباده لأنّه يحبهم وهو الكمال والعدل بذاته، وهو الشهيد عليهم كي يترك في نفس الإنسان الإحساس بأنه يرتبط بالله ولا يمكن أن تنقطع هذه الرابطة سواء كان مؤمنا فهو الشهيد عليه أو كان كافرا فهو الشهيد عليه أيضا، وهذا يترك انطباعا في نفس المؤمن بأنه على اتصال بربّه لأنه تعالى مطلع عليه ليلا ونهارا، وقد منحنا الله تعالى صورة وافيا لكي نصل إلى هذه القناعة حيث أنه قال تعالى: {وَإِذَا حُشِرَ النّاس كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ

---

110 آل عمران 98، 99.

كَفَرُوا لِلْحقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفي بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرّحيم}111، ففي هذه الآية دافعا لأن نكون ممن أحبهم الله ورضي عنهم فيغفر لهم ويرحمهم.

وبما أنّ الشهيد المطلق هو شهيد على كلّ شيء فإنه يُعفي الإنسان المؤمن بهذا الاسم من التفكير بأن يُسلّم لله تعالى الذي يعلم ما في قرارة نفسه وهذا من شأنه أن يزيح عن كاهل هذا المؤمن عبء التفكير وانتفاء حاجته لمن يطلعه على ما في نفسه، لأنّه بذلك يكون قد وصل إلى مرحلة من الارتباط بالشهيد القريب منه باستمرار والمحيط بكلّ ما فيه، فلا يحاول شرح ما فيه لأحد ولا يتعب من البحث عن مستمع أمين، وهذا يجعل من المؤمن يشعر بالراحة والاطمئنان لأنّ الشهيد عليه هو الودود والرّحيم والقريب والسميع والبصير، فالله بعظمته وكبريائه وبجلاله شهيدا على أفعالنا وأقوالنا فإننا نصل إلى أنّه أيضا الغفور الذي يعلم سيئاتنا ولو أننا سترناها عن كلّ الخلق، فشهادته عزّ وجلّ علينا لا تمنع رحمته ومغفرته فالحمد لله الذي كان شهيدا علينا غفورا رحيما بنا.

لذلك فلا يجب على الخليفة عندما يكون شهيدا على أحد أن يطغى ويتجبر وأن يسرع في الشهادة بل عليه أن يتأنى ويتحرى الحقّ ثم الحقّ وهنا نجد أن شعورا بالطمأنينة يسكن نفس المؤمنين بما في ذلك من إيجابيات ينعكس على سلوكهم من ثقة ومودة واحترام، فيتكون لدينا مجتمعا مؤمنا واثقا يملأ نفسه الطمأنينة لبعضهم البعض إذ يكون المؤمن شهيدا على أخيه المؤمن فلا يزور ولا يخون ولا يكتم ما يجب أن يظهر من الحقّائق.

---

111 الأحقّاف 6: 8.

ولو تمعنّا في هذا الاسم الكريم لوجدنا فيه حلا للكثير من مشاكلّنا الاجتماعية وأمراضنا النفسية، التي تحتاج إلى راحة وطمأنينة لا تتحقّق إلا إذا اتصفنا بالأمانة والصدق في الشهادة.

والله تعالى في هذا الاسم يبعث لنا تحذيرا لنتحرى الطريق الصحيح في تصرفاتنا وأفكارنا وسلوكياتنا، وأيضا إنذارا لنا قبل أن نغادر هذا الحياة الدنيا لننجو من عذاب الحريق بالتحلي بمكارم الأخلاق التي تتضمن شهادة الحقّ والابتعاد عن قول الزور، قال تعالى: {وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا}112.

ومن شأن الإيمان بهذا الاسم أن يعلّم المؤمن الصبر والتحمل في حالة ضياع حقّه في الدنيا، إذ أنه قد يتعرض أي فرد فينا للظلم فيأتي هنا اسم الشهيد ليبرّد نار الظلم التي تشتعل في النفس البشرية بأن هناك الشهيد العادل الذي يرد كلّ حقّ ويسجل كلّ شيء فيعلم أن هذا الحقّ وإن لم يستطع أخذه في الدنيا فإن هناك الوكيل الذي يجب على المؤمن أن يوكلّ أمره إليه، وأن يتيقن أن هذا الحقّ سيرد إليه إما في الحياة الدنيا أو في الآخرة عندما يقف بين يدي الشهيد على حقّه الضائع.

---

112 الفرقان 71: 76.

قال تعالى: {وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ ربّ شَقِيًّا}113، وهذا يعني أنّ زكريا مجاب الدعاء. ولاشكّ أن الأنبياء يجاب دعاؤهم رحمة من الله عزّ وجلّ وفضيلة من فضائل الاصطفاء، لكن امرأ مثيرا يبدو من نوع دعاء زكريا فقد أخبر المولى عزّ وجلّ أنّ زكريا نادى ربّه نداءً خفيا، والعربّ تقول إن النداء للبعيد وليس للقريب.

والله سبحانه وتعالى قريب لا يلزم معه النداء.

لذلك وجب أن نقف متأملين لنداء زكريا وباحثين في حقّيقته، وموجباته، وصفته لبيان إعجاز الجمع بين الوجوب وعدمه في النداء الخفي.

نداء زكريا

ما مضمون النداء؟

ما هو سياق النداء؟

يقوم نداء زكريا على عدة أمور منها:

1- انه لله عزّ وجلّ، هنا مسألة في غاية الأهمية وردت عند كثير من الأنبياء والصالحين هي أن الخطاب عندهم يتحول من حوار مع الملائكة إلى خطاب الذات الإلهية وفي ذلك دلالات عميقة تتمثل في:

أ- إخلاصهم في الدعاء، حيث أنّ الدّعاء الخالص هو الدعاء الذي يتوجه فيه العبد إلى الله مباشرة ومن غير واسطة حتى وإن كانت الملائكة.

---

113 مريم 4.

ب- سلوك الائتساء، إنّ اتفاق أكثر من نبي على هذا السياق من الدعاء (التوجه إلى الله) مع وجود الملائكة في المشهد بخطابها ما هو إلا سياق داع للائساء بهذا النمط من أنماط العبادة الخالصة لله وهي وإن كانت كذلك في هذه المسالة في أقربّ ما تكون إلى الصورة المطلقة التي يجب أن تمس كلّ القضايا الأخرى، فالدعاء لله والرجاء من الله والطلب من الله وحده لأنه مالك الملك وهو على كلّ شيء قدير، فالائتساء هنا كانت لسياق الدعاء، ولكلّ ما يتعلق بالأحوال الأخرى والغاية الكلّية من بعد ذلك توضيح الإخلاص بحقّيقته ثم جعله سلوكا للمؤمنين في كلّ زمان ومكان.

والمسألة هنا وان كانت واضحة في دعاء زكريا لكنها وبكلّ تأكيد هي سلوك الصالحين من العباد الذي يسلكون ثم من بعد ذلك يدعون النّاس إليه ثم من بعد ذلك يجاهدون بأموالهم وأنفسهم لتحقّيق هذا الهدف الأسمى وهو إخلاص التوحيد لله عزّ وجلّ في كلّ صغيرة وكبيرة.

أنّه كان خفيا، وقيل في كونه خفي الكثير من مفسرات الخفاء من الأسباب كالكبر وضعف القوّة على رفع الصوت، أوترك الرياء بعلو الصوت أو تجنبا لملامة اللائمين على طلب الولد على كبر.

واعتقد أنّه يمكن توضيح النداء الخفي على نحو آخر غير ذلك على الترجيح لا على القطعية، فلو فسرنا كلّمة خفي لتبين أن خفا يطلق للدلالة على عدم الظهور، يقول ابن منظور في اللسان: "وخَفِيَ الشيءُ خَفاءً فهو خافٍ وخَفِيٌّ لم يَظْهَرْ وخَفاه هو وأَخْفاهُ

سَتَرَه وكتَمَه وفي التنزيل إِنْ تبْدُوا ما في أَنفسكم أَو تُخْفُوه"114، هنا يبدو أمر مهم هو أن نداء زكريا لم يكن ظاهرا بالصوت لا على الارتفاع ولا على الانخفاض بل هو نداء داخلي لم يلفظه اللسان، ولو بحثنا في موجبات الخفاء عند زكريا لتأكد لنا أنه كان نداءً مرفوعا في نفس زكريا لم يظهر على لسانه.

فلماذا اختار زكريا أن يكون النداء خفيا؟

نقول أنّ هذا راجع إلى معرفة زكريا بأسماء الله وصفاته، فزكريا يعلم أنّ الله عزّ وجلّ هو السميع فلا حاجة لرفع الصوت في الدعاء لأنّه يعلم السر وأخفي ويعلم ما تخفي الصدور، هنا يأتي التساؤل:

لماذا وصف بالنداء إذا لم يلفظ؟

هذا يكشف عن حاجة زكريا الملحة للوريث ورغبته العميقة التي تهفو نحو الولد، لذلك فإن ما كان من زكريا صدر من أعماقه فكان كالنداء ولانّ زكريا يعلم أن الله سميع مجيب اختار أن يكون خفيا وهو مؤمن العقيدة أن الله عزّ وجلّ سميع عليم.

ثم نتساءل:

لماذا دعا زكريا والله يعلم خفي حاجته؟

المسألة مرتبطة بقوانين العلاقة بين الله عزّ وجلّ وخلقه التي جاء الأنبياء ليفقهوا النّاس بها ويعلموهم إياها بالكتب السماوية التي أرسلهم الله بها وبالصحف والألواح، وكذلك بالوصايا والسنن التي جاؤوا بها، هذه القوانين تنص على وجوب أن يطلب الأدنى (المخلوق) من الأعلى (الخالق) على درجة من الإخلاص لتحصل

114 لسان العربّ، ج 14، ص 234.

الإجابة وعلى ذلك نصت الآية الكريمة: {وَقَالَ ربّكمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}115، فالله عزّ وجلّ أعلم بما يريد العبد ولكن ترك الأمر على نحو من الانقطاع عن الله عزّ وجلّ والتوسل إليه طلبا للحاجات وبحثا عن المشبعات لا يمكن إلا أن يفهم على نحوين:

الأوّل: ما نصت عليه الآية وهو التكبر (يَسْتَكْبِرُونَ) وهو من العلل التي تصيب الذات البشرية جهلا بحقّيقتها الفانية، فيتراءى للمتكبر من المخلوقات أنه أسمى أو أعلى درجة من غيره، فينحرف به الكبر إلى الاستكبار عن عبادة الله عزّ وجلّ ومن ذلك ترك الدعاء.

الثاني: الاستغناء جهلا، يترك البعض الدعاء للاستغناء عن طلب المشبعات، فتراهم يملكون الأولاد والصحة والمال فيترك الدعاء لعدم حاجته إلى شيء من ذلك على ما يزعم ولكن ذلك جهل من هؤلاء لأنهم لو امتلكوا قناطير الأرض وما عليها وكان له من الأولاد والأحفاد ما يشاء فهم في أمس الحاجة إلى الدعاء إلى الله عزّ وجلّ مصداقا لقوله تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ

115 غافر 60.

مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قوّة إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا}116.

لذلك فإن زكريا وكلّ الأنبياء والرّسُل والصالحين والعارفين دعوا الله عزّ وجلّ وهم يعلمون علم اليقين أن الله عالم بحالهم لكنهم كانوا في سيرتهم عبرة لأولي الألباب فلا غنى عن الدعاء لله عزّ وجلّ، ففي أشد حالات العوز مع أكثر النّاس صلاحا وهم الأنبياء كان الدعاء مصداقا لقوله تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كلّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى ربّهُ ربّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}117.

الإجابة

---

116 الكهف 32-43.

117 الأنبياء 83-90.

أجيب دعاء زكريا (فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ)، ويلاحظ عدة أمور في الإجابة هي:

1- أجيب بنداء فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ.

2- أجيب في طاعة (وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي).

3- أجيب بأكثر ممّا طلب (وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ).

المسألة الأولى هي أن الإجابة كانت بنداء وهنا نعتقد أن نداء الملائكة كان مسموعا لزكريا وذلك لانّ الملائكة مكلّفة بالتبليغ وهو على كلّ ما ورد في القران الكريم تبليغ مسموع (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِين)، وهو خلاف قدرة الشيطان على الوصول إلى البشر حيث يكون بالإلقاء مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}118، وبالوسوسة، {قُلْ أَعُوذُ بِربّ النّاس مَلِكِ النّاس إِلَهِ النّاس مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النّاس}119.

عليه فإن زكريا سمع قول الملائكة وعرف أن مصدر قولها هو أمر الله بلغته الملائكة، لذلك توجه بالخطاب نحو الملك جل في علاه هو الذي أمر فنفذت الملائكة، ومن المؤكد سماع زكريا لنداء الملائكة

118 الحج 52-53.

119 الناس 1-5.

لان زكريا كان في الصّلاة حيث هي عنده خشوع تام مطلق لم يكن للوسوسة أو الهاجس أثر في تلقيه لهذه البشرى التي كان ينتظر.

ومن عبر هذه الإجابة إنها تقدم صورة لما يجب أن يكون العبد لله في الصّلاة حيث الإخلاص والخشوع والتواصل في الطاعة واليقين بالإجابة.

والله سبحانه وتعالى إذ أجاب زكريا فأنه أجاب زكريا بعلم منه فكانت الإجابة أكبر من الطلب لانّ الله أرحم بعباده واعلم بهم فقد وهبه الابن ومعه أصلح له زوجه (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ).

وأصلحها بمعنى: "أنّه سبحانه جعلها مصلحة في الدين، فإن صلاحها في الدين من أكبر أعوانه في كونه داعيا إلى الله تعالى فكأنه عليه السلام سأل ربّه المعونة على الدين والدنيا بالولد والأهل جميعا. وهذا كأنّه أقربّ إلى الظاهر لأنّه إذا قيل: أصلح الله فلانا فالأظهر فيه ما يتصل بالدين، واعلم أن قوله: (وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) يدل على أن الواو لا تفيد الترتيب لأن إصلاح الزوج مقدم على هبة الولد مع أنّه تعالى أخره في اللفظ وبين تعالى مصداق ما ذكرناه فقال: (إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ في الخيرات) وأراد بذلك زكريا وولده وأهله فبين أنه آتاهم ما طلبوه وعضد بعضهم ببعض من حيث كانت طريقتهم أنّهم يسارعون في الخيرات، والمسارعة في طاعة الله تعالى من أكبر ما يمدح المرء به لأنّه يدل على حرص عظيم على الطاعة.

أمّا قوله تعالى: (وَيَدْعُونَنَا رَغَبا وَرَهَبا) قرئ رغبا ورهبا وهو كقوله: (يَحْذَرُ الآخرة وَيَرْجُواْ رَّحْمَةِ ربّهِ) والمعنى أنّهم ضموا إلى فعل الطاعات والمسارعة فيها أمرين: أحدهما: الفزع إلى الله تعالى لمكان الرغبة في ثوابه والرهبة في عقابه. والثاني: الخشوع وهو المخافة الثابتة في القلب، فيكون الخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الأمور خوفا من الإثم"120.

نناقش الآن كون زكريا من الأخيار، لاشكّ أن النبوّة توجب أن يكون النبي من الأخيار، ذلك أن النص القرآني ربّط بين الاصطفاء وخيرية الأنبياء فقال عز من قائل: {وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ}121.

لكن التمايز التفضيلي (تِلْكَ الرّسُل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) يمكن أن يُلحظ في وصف زكريا حيث إنه كان يسارع في الخيرات أي أن تفضيلا في عمل الخير واضح جلي في الآية، والمسارعة في الخيرات تبعا في الآية وصف مهم مبين لطبيعة هذه المسارعة هو قوله تعالى (وَيَدْعُونَنَا رَغَبا وَرَهَبا) وهذا أمر له دلالات منها:

صدق النية.

رهافة الحس بالمحتاج.

علم بموجبات الإجابة.

تعدد غايات الدعاء.

---

120 - تفسير الرازي، ج 11، ص 68.

121 - ص 47.

أمّا صدق النية فتدل عليه المسارعة حيث أن النية الصادقة لا تترك للتردد بين الفعل وعدمه أية مساحة حتى لا تلبث النية أن تتحوّل عملا في صورة من التسارع لبلوغ الغاية لا يعيقها حبّ الخير من مال أو غير ذلك عن الاستغناء والتنازل للمحتاج حتى ولو على حساب زكريا وأهله مصداقا لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}122، وهذا لا يتأتّى للكلّ بل لخاصة من العباد ممن يفهمون أنهم بذلك يتنازلون عن قليل فان لصالح كثير باق وهم يعلمون أن ذلك هو الفلاح في الدنيا والآخرة.

وتدل المسارعة أيضا على رهافة الحس بالمحتاج وهذا من صور إنسانية هؤلاء الأخيار الذين يسارعون في تقديم الخير، لان دفع الصدقة لمحتاج هي أكثر نفعا له في وقت حاجته وأكثر تأثيرا فيه من دفعها وقت استغنائه أو لنقل عدم إلحاح حاجته.

ويُلاحظ دقة اختيار اللفظ (المسارعة) حيث يوحي اللفظ بالمواظبة والتواصل غير المنقطع في السعي لإيصال الخير لأهله، وهي لفظة موجبة دلت على حب مواصلة فعل الخير من هؤلاء المسارعين، يقول جلّ وعلا: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}123، {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}124.

---

122 - الحشر 9.

123 - آل عمران 133.

124 - المؤمنون 60 -61.

ولم يستخدم العجلة لانّ العجلة في دلالتها لفظة أكثر إيحاء بالسالب من الموجب، يقول الحقّ جلّ وعلا: {وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا}125.

وعاتب الله عزّ وجلّ كلّيمه موسى على استعجاله اللقاء فقال عزّ من قائل: {وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ ربّ لِتَرْضَى}126، "والاستفهام مستعمل في اللّوْم. والذي يؤخذ من كلّام المفسرين وتشير إليه الآية: أنّ موسى تعجّل مفارقة قَومه ليحضر إلى المناجاة قبل الإبّان الذي عيّنه الله له، اجتهادا منه ورغبة في تلقي الشريعة حسبما وعده الله قبل أن يحيط بنو إسرائيل بجبل الطور، ولم يراع في ذلك إلا السبق إلى ما فيه خير لنفسه ولقومه، فلامه الله على أن غفل عن مراعاة ما يحفّ بذلك من ابتعاده عن قومه قبل أن يوصيهم الله بالمحافظة على العهد ويحذّرهم مكر من يتوسّم فيه مكرا"127.

والمسارعة في فعل الخير موجبة لإجابة الدعاء كما يعلمنا العليم الخبير سبحانه وتعالى وهذا من رحمته بعباده إذ يبين لهم سبل الإجابة ليفقه أولى الألباب ثم يفقهوا الآخرين، فهذه الآية تحولت من مجرد سرد لحقّيقة زكريا وأهله إلى عبرة عظيمة وباقية لكلّ من جاء بعده ولكلّ من يقرأ الكتاب الحكيم أن المسارعة في الخير من موجبات إجابة الدعاء من الله السميع العليم.

فأي نوع من الدعاء يُجاب مع المسارعة في الخيرات؟

125 - الإسراء 11.

126 - طه 83-84.

127 التحرير والتنوير، ج 9، ص 78.

بينت الآية نوعين من الدعاء هما:

دعاء الرغبة.

دعاء الرهبة.

هنا وجب أن نتساءل:

فهل هناك فرق بين الدعاءين؟

وهل هناك نوع آخر أو أنواع؟

هل هذا كلّ الدعاء؟

هل هما نوعان مخصوصان بزكريا وأهله؟

نقول: أنّ الفرق بين دعاء الرغبة ودعاء الرهبة يكمن في نوع الحاجة، لان الدعاء هو في الحقّيقة طلب لإشباع حاجة، فإذا كانت الحاجة من رواغب النفس كان الدعاء رغبة وإذا كان الدعاء لراهب النفس كان دعاء الرهب، وفي هذه القراءة يكون دعاء الرغبة لأمور الدنيا ودعاء الرهبة لأمور الآخرة.

أمّا الدلالة الثانية لقوله تعالى (وَيَدْعُونَنَا رَغَبا وَرَهَبا)؛ فتأتي على نمط آخر من البناء الدلالي حيث يرجع فعل الدعاء إلى يقين الداعي فهو في الرغبة يدعو وفي الرهبة يدعو في المقر بحاجته إلى الله عزّ وجلّ في كلّ الأحوال لا يظهر عليه استغناء وهو في كلّ الأمور يرجع إلى الله عزّ وجلّ لا يثنيه غنى عن الدعاء لان استغناء الأغنياء عن الدعاء يصدر عن ضعف في الإيمان وخفة في العقل وهو فعل

يؤدّي إلى الطغيان مصداقا لقوله تعالى: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى}128.

هل هناك نوع آخر من الدعاء لم يذكر مع زكريا؟

إنّ اختيار مصطلحي (الرغب والرهب) دل على أسلوب فريد من الأساليب الدالة على المعنى وهو أسلوب الحصر المطلق حيث كانت الرغبة نقطة بداية تنطلق منها وبعدها كلّ الرغبات، وكانت الرهبة نقطة نهاية تنتهي عندها كلّ المخاوف وما بينهما يحتوي كلّ نوع للدعاء ومهما كان نوعه، لذلك نعتقد أن (رغبا ورهبا) حصرت كلّ أنواع الدعاء وان اختلفت المسميات إلا أنها تبقي داخل هذا الإطار الدلالي الذي اتسع ليكون فضاء ينضوي تحته كلّ أنواع الدعاء.

فهل كان هذا مخصوصا لزكريا؟

نقول إنّ زكريا وإن كان هو المرتكز الذي قامت عليه دلالات السياق القرآني في الآية إلا أنّه كان بمثابة البؤرة الإشعاعية التي تشع بالعبر، والتي تدعو إلى الائتساء بهذه المثالية الموجبة وإن لم يظهر تصريح بالدعوة إلى الائتساء، فالترك أبلغ من الذكر هنا لانّ تقديم مثل هذه الصورة الأنموذج هي دعوة إئتساء غير مباشرة أي هي دعوة مجازية إيحائية، والبلغاء يقولون أنّ المجاز أبلغ من الحقّيقة في إيصال المعنى كما يقول القزويني في الإيضاح: "أطبق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقّيقة"129، لذلك وجب أن تكون هذه الصورة أسوتنا في انتهاج سبل الدعاء إلى الله عزّ وجلّ أنّه نعم المجيب.

---

128 - العلق 6-7.

129 - الإيضاح في علوم البلاغة، ج 1، ص 310.

زكريا من الخاشعين:

الخشوع في اللغة الخضوع والتضرع وكذلك يأتي بمعنى التواضع130، أمّا في الاصطلاح فهو "فعل يرى فاعليه أن من يخضع له فوقه وأنه أعظم منه"131.

والخشوع وهو المخافة الثابتة في القلب، فيكون الخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الأمور خوفا من الإثم"132.

والخشوع مرتبط بالعبادات {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ}133، لذلك فهو فيما نعتقد يتعلق بالنفس أكثر ممّا يتعلق بالجسد، لان الجسد في حالة من الحركة الدائمة لأعضائه في أثناء الصّلاة والزكاة والحج.

وهكذا فإنّ وصف زكريا وأهله بالخاشعين أي في عباداتهم والتي خص الله ذكر أحدها وهي الصّلاة، من هذا نصل إلى أن الخشوع في الصّلاة من علامات الإخلاص الموجبة لإجابة الدعاء من الله عزّ وجلّ.

فلماذا الخشوع؟

وما يعني للعبودية؟

الخشوع حالة يتجرد فيها الإنسان من الارتباط بأي شيء سوى الله عزّ وجلّ فلا مال ولا بنون يحضرون هذه البرهة التي يقف فيها العبد بين يدي ربّه يعبده خالصا لا شريك له، فالإنسان الذي

---

130 – ينظر معجم العين، ج 1، ص 18.

131 – الفروق اللغوية، ج 1، ص 216.

132 – تفسير الرازي، ج 11، ص 68.

133 – المؤمنون 2.

يتجرد من استحضار أي كان في الصّلاة إلا الله فقد خشع في صلاته، فهو ضرورة للعبد يُظهر فيها إخلاصه ويؤكد إيمانه بوحدانية الله الواحد الأحد.

وإنّ عدم خشوع الإنسان يعني عن قصد أو غير قصد استحضارا لآخر في الصّلاة، وبالتالي يحدث إخلال بالعمل، ويتكدر صفو العلاقة بين العبد وربّه بانصراف العبد لغير الله من أشخاص أو أي من أمور الدنيا، والعملية طردية:

كلّما غاب استحضار الأشياء والأشخاص كلّما اقربّ العبد من الخشوع.

كلّما استحضر الأشياء والأشخاص كلّما بعد عن الخشوع.

أمّا ماذا يعني للعبودية فالخشوع هو جوهر الإخلاص لله عزّ وجلّ لذلك مدح سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بأنهم في صلاتهم خاشعون، وحدد نتيجة هذا السلوك بأنه الفلاح الذي يرجو المؤمن أن يناله فقال جلّ وعلا في محكم كتابه العزيز: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ).

"واختلفوا في الخشوع فمنهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات، ومنهم من جمع بين الأمرين وهو الأولى. فالخاشع في صلاته لابدّ وأن يحصل له ممّا يتعلق بالقلب من الأفعال نهاية الخضوع والتذلل للمعبود، ومن الترك أن لا يكون ملتفت الخاطر إلى شيء سوى التعظيم، وممّا يتعلق بالجوارح أن يكون ساكنا مطرقا ناظرا إلى موضع سجوده، ومن الترك أن لا يلتفت يمينا ولا شمالا، ولكن الخشوع الذي يُرى على الإنسان ليس إلا ما يتعلق بالجوارح

فإن ما يتعلق بالقلب لا يرى، قال: الحسن وابن سيرين كان المسلمون يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يفعل ذلك فلما نزلت هذه الآية طأطأ وكان لا يجاوز بصره مصلاه، فإن قيل فهل تقولون إن ذلك واجب في الصّلاة؟ قلنا إنه عندنا واجب ويدل عليه أمور: أحدها: قوله تعالى: (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرءان أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) والتدبر لا يتصور بدون الوقوف على المعنى، وكذا قوله تعالى: (وَرَتِّلِ القرءان تَرْتِيلا) معناه قف على عجائبه ومعانيه وثانيها: قوله تعالى: {وَأَقِمِ الصّلاة لذكريا) وظاهر الأمر للوجوب والغفلة تضاد الذكر فمن غفل في جميع صلاته كيف يكون مقيما للصلاة لذكره"134.

وإذا تركنا الوجوب من العدم إلى حقّيقة أهمية الخشوع للعبد وتصورنا المسألة في مساحة المنطق تبين أنّ الخشوع نوع من التدريب لقدرة العبد على تنزيه الله عزّ وجلّ، وهذا لا يعنى أن كلّ من لا يخشع في صلاته لا ينزه الله عزّ وجلّ، بل يعني أنّ قدرته على ذلك ضعيفة وبالخشوع تقوى والله المستعان.

من

134 - تفسير الرازي، ج 11، ص 161.

صفات النبي زكريا

1. منادي:

قال تعالى: {ذِكْرُ رَحْمَتِ ربّك عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى ربّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ ربّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ ربّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ ربّ رَضِيًّا}135،

النداء: أصله رفع الصوت بطلب الإقبال. والمنادي، الذي يرفع صوته بالكلّام. والنداء: رفع الصوت بالكلّام رفعا قويا لأجل الإسماع وهو مشتقّ من النداء بكسر النون وبضمّها وهو الصوت المرتفع. يقال: هو أندى صوتا أي أرفعُ، فأصل النداء الجهر بالصوت والصياح به، ومنه سمّي دعاء الشخص شخصا ليقبل إليه نداء، لأنّ من شأنه أن يرفع الصوت به؛ ولذلك جعلوا له حروفا ممدودة مثل (يا) و(آ) و(أيا) و(هيا). ومنه سمّي الأذان نداء، وأطلق هنا على المبالغة في الإسماع والدعوة وإن لم يكن في ذلك رفع صوت، ويطلق النداء على طلب الإقبال بالذات أو بالفَهم بحروف معلومة كقوله تعالى: {وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}136، ويطلق النداء كثيرا على الكلّام الذي فيه طلب إقبال الذات لعمل أو إقبال الذهن لوعي كلّام، فلذلك سميت الحروف التي يفتتح بها طلب الإقبال حروف النداء. ويطلق على الدعاء بطلب حاجة وإن لم يكن فيه نداء لأنّ شأن

---

135 - مريم 2- 6.

136 - الصافات 104- 105.

الدعاء في المتعارف أن يكون جهرا. أي تضرعا لأنّه أوقع في نفس المدعو. ومعنى الكلّام: أن زكريا قال: يا ربّ، بصوت خفي.

وإنّما كان خفيا لأنّ زكريا رأى أنّه أدخل في الإخلاص مع رجائه أنّ الله يجيب دعوته لئلا تكون استجابته ممّا يتحدث به النّاس، فلذلك لم يدعه تضرعا وإن كان التضرع أعون على صدق التوجه غالبا، فلعل يقين زكريا كاف في تقوية التوجه، فاختار لدعائه السلامة من مخالطة الرياء. ولا منافاة بين كونه نداء وكونه خفيا، لأنه نداء من يسمع الخفاء.

والمراد بالرّحمة: استجابة دعائه، كما سيصرح به بقوله: {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا}137. وإنما حكي في الآية وصف دعاء زكريا كما وقع فليس فيها إشعار بالثناء على إخفاء الدعاء 138.

المنادي: هو من هو في حاجة ومشبعاتها بيد المنادى أو المستغاث بالسؤال ورفع الطلب إليه، ولذا فالمنادي هو السائل والمستغيث.

النداء: سؤال يُرفع لدعوة من بيده الإجابة لتكون بين أيدي المنادي آية دالة على قدرة المجيب على الإجابة.

المنادىَ: هو من بيده الإجابة وهو السميع لدعاء المنادي عند الحاجة، وهو المقدِّر للكيفية التي ينبغي أن تكون عليها الاستجابة، ولذا فالمنادى لا يُجبر على أن يجيب ولكنه يُسأل الإجابة، وهو المغيث لمن يستغاث به وفقا لمشيئته.

---

137 – مريم 7.

138 – تفسير التحرير والتنوير، ج 8، ص 446.

والمنادي على المستوى البشري يمكن أن يكون منادى من غيره وفقا للحاجة المتبادلة عند كلّ ظرف وضرورة.

وليس دائما المنادي هو من هو في حاجة، بل المنادى هو الذي قد يكون على الحاجة وهو في حاجة لمن يُذكِّره بها أو يُذكِّره إليها، كما هو حال الآذان الذي يُرفع لدعوة المصلين الذين هم في حاجة لأنّ يقوموا لأداء الصّلاة فرادى أم جماعة.

قال الشاعر الذي أدرك الإسلام:

"تركتُ الشِّعر واستبدلتُ منه... إذا داعِي مُنادِي الصُّبح قاما

كتابَ الله ليس له شريكٌ.... وودَعت المدامةَ والنِدَاما"139.

2. نبي:

قال تعالى: {قَالَ ربّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ ربّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ ربّ رَضِيًّا}140، الميراث هنا لا يُراد به ميراث المال؛ لأن الأنبياء لا يورثون، وما تركوه من مال فهو صدقة من بعدهم، إنما المراد هنا ميراث العلم والنبوّة والمُلْك، وحَمْل منهج الله إلى النّاس، ونلحظ أنه لم يكتَفِ بقوله (يَرِثُنِي) بل قال: {يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ} فلستُ أنا القمة في الطاعة في آل يعقوب، فهناك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، وهذا تواضع منه ومراعاة لأقدار الرجال وإنزالهم منازلهم141.

139 – الاشتقاق، ج 1، ص 122.

140 – مريم 4 – 6.

141 – تفسير الشعراوي، ج 1، ص 5506.

النبي: هو إنسان أوحي إليه ولم يؤمر بالتبليغ، كما أن النبي هو من أوحى الله تعالى إليه بشرع، وسمي نبيا لأنه نبي وأخبر من قبل الله تعالى، فإن أمر بتبليغ الشرع إلى الخلق سمي رسولا أيضا، لأن الله أرسله وبعثه إلى خلقه ليبلغهم شرعه، فهو إذا مرسل ومبعوث وموفد من قبل الله تعالى إلى الخلق برسالة معينة. ومن أجل ذلك سمي رسولا، أما إذا لم يؤمر بالتبليغ فهو نبي فقط وليس رسولا لأن معنى النبوّة تحقّق فيه ولم يتحقّق فيه معنى الرسالة: فكلّ رسول نبي ولا عكس. فإذا انتفت النبوّة عن شخص انتفت الرسالة عنه ولابدّ، لأنه لا يرسل إذا أنبأه الله وأخبره بأنه اختاره واصطفاه لوحيه أولا، ثم يخبره بأنه أرسله إلى من أرسله إليهم بعد ذلك، فالنبوّة هي طريق الرسالة، ولا رسالة بدون نبوّة، لذلك كان إخبار الله تعالى في القرآن بأن محمّدا (صلّى الله عليه وسلّم) خاتم النبيين دليلا على أنه لا نبي ولا رسول بعد محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) وهو تعبير موجز بليغ رائع. قال تعالى: {مَّا كَانَ محمّد أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيما}142،ذلك لأن النبي الذي يكون بعده نبي إن ترك شيئا من النصيحة والبيان يستدركه من يأتي بعده، وأما من لا نبي بعده يكون أشفق على أمته وأهدى لهم وأجدى، إذ هو كوالد لولده الذي ليس له غيره من أحد143.

ولم يثبت أن نبيا من الأنبياء كان عبدا مملوكا لأحد من النّاس، كما لم يتأكد أن أحدا منهم كان أنثى، أو أن رسولا كان من الجن أو الملائكة وأرسل إلى الإنس ليعيش معهم، لذلك قال العلماء في تعريف النبي: إنّه "إنسان-ذكر حر- أوحى إليه بشرع، فإن أمر

142 -الأحزاب 40.

143 - تبسيط العقائد الإسلامية، حسن أيوب، ج 1، ص 81 – 82.

بتبليغه فهو رسول أيضا وإن لم يؤمر بتبليغه فهو نبي فقط. وهذا هو القول المشهور في الفرق بين الرّسول والنبي، وهناك رأي يقول: إن الرّسول من بعثه الله بشريعة مجددة يدعو النّاس إليها، والنبي يشمله ويشمل من بعثه الله لتقرير شرع من قبله مثل أنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيس عليهما السلام ولذلك شبه علماء أمة الإسلام بهم، وقيل: الرّسول من جمع إلى المعجزة كتابا منزلا عليه، والنبي غير الرّسول من لا كتاب له، وقيل: الرّسول من يأتيه الملك بالوحي والنبي يقال له ولمن يوحى إليه في المنام"144.

النبوّة لغة:

"النبوّة: سِفارةٌ بين الله عزّ وجلّ وبين ذَوي العُقول الزَّكيَّة"145.

والزكية هنا ليست من الذكاء بمعنى الفهم الثاقب فقط، ولكن هي من الزكية بمعنى الطاهرة الخالصة من الأفكار والوساوس والنقائص التي تنأى بصاحبها عن الحقّ بل هي التي تقوده إليه.

ويمكن أن نقول: إن الاتصال بين الله والنبي منذ البداية هو نتيجة لتهيئة الله للنبي لتحمل اتصال الله به وما سيكلّفه به لقول أمر أو نهيا أو فعل تطبيقا لهذا القول.

والنبي يسمع ويرى ويفعل ما يريده الله إما بالوحي تكليما أو إلهاما أو عن طريق ملك أو بالرؤية.

144 - شرح العقائد النسفية، ص 31.

145 - تاج العروس، ج 1، ص 229

وهذه الأمور يمكن أن تتقدّم في حياة النبي أو تتأخر، لذا كان من الأنبياء من أرسل إليه وبدأت نبوته تكلّيفا منذ:

- ولادته كسيدنا يحي وعيسى ابن مريم (صبيا)

مصداقا لقوله تعالى: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقوّة وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا}146.

وعن سيدنا عيسى عليه الصّلاة والسّلام قال الله تعالى: {فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكلّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا}147.

"(والصبي من لم يفطم بعد)، وفي المحكم من لدن يولد إلى الفطام"148

ففي حالتي يحي والمسيح تم التكلّيف منذ الميلاد بنص القرآن.

- أو يكلّف النبي بالنبوّة وهو (فتى) كسيدنا إبراهيم عليه الصّلاة السلام تصديقا لقوله تعالى: {قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ}149.

وقد يخلط البعض بين الصبي من الصبوة وهي القوّة وبين الصبي من الصبا المولود الرضيع كما الحال في سيدنا يحي وعيسى

---

146 - مريم 12- 15

147- مريم 27-29

148- تاج العروس، ج 1، ص 8461.

149 - الأنبياء 60

عليهما السلام (والصبوة جهلة الفتوة) أو نقول: القوّة في مرحلة الفتوة كما في حال سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام فقد كان حكيما في مجادلته لقومه وهو في قوّة صبوته.

- وقد يكلّف النبي بالنبوّة في مرحلة (الأشُد) كسيدنا موسى وهارون عليهما الصّلاة والسّلام (الأشد) كما جاء في قوله تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}150.

وهذا المرحلة من العمر هي الأربّعون من العمر مصداقا لقوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ ربّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشكّرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}151.

وهذه المرحلة هي مرحلة التكلّيف بالتبليغ عند معظم الأنبياء.

ومن النبي؟

النبي: "من أوحي إليه بملك، أو أُلهم في قلبه، أو نُبِّه بالرؤيا الصّالحة"152.

إنّ النبي بصفة عامة: مخبر عن ربّه نبأ عظيم، يهدف إلى تغيير في المجتمع على صعيد من الأصعدة، قال الله تعالى: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ

150 - القصص 14

151 - الأحقّاف-15

152 - التعريفات، ج 1، ص 79.

عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ}153، لذلك فقد وصف الله ما جاء النبي ليبلغه بالنبأ بالعظيم.

والرّسول يكون مرسلا برسالة ذات شريعة وأحكام مثل سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، والنبي قد يرسل برسالة رسول آخر على شريعته يدعوا إلى ما دعا إليه مثل سيدنا إسحاق ويعقوب، ويرشد النّاس إلى الحقّ الذي اختلفوا فيه، ليعالج نقصا ما طرأ على المجتمع.

إنّ قضية النبوّة لا يمكن أن يحل محلها العقل المنطقي أو الفلسفي، ولا يستطيع هذا العقل مهما أوتي من ذكاء وحجّة أن يكون بديلا أو يأتي ببديل عن الخطاب الديني، لأنه إذا حكمنا معايير العقل النظري في الخطاب الديني فلا مناص من هذا التناقض بين الاثنين، لأنّ عالم الغيب والإلهيات التي يتحدث عنها الدين، لا يمكن أن تختبر على صعيد العقل الفلسفي والمنطق الوضعي، ومن هنا وجب أخذ بضرورة الفصل والتمييز بين الخطابين، (الخطاب الديني والخطاب العقلي المحض). ومع الاعتراف بشرعية كلّ من الخطابين في مناقشة القضايا، وجب أيضا ضرورة ألا تحاكم أيّ قضية إلا في صورة معايير النسق الذي تنتمي إليه. ومن ثم فالإيمان بالغيب قضية صادقة على صعيد العقل النقلي الذي أتى عن طريق النبوّة، ولا يمكن أن تنطبق معايير العقل الفلسفي على هذه القضايا لقصوره تجاهها.

---

153 - النبأ 1

والنبوّة ليست محصورة بنبي محدد، وإنما هي ظاهرة موجودة عند جميع الأقوام والأمم قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحق بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ}154.

والنبوّة تثبت بالمعجزة، وهناك شهادات لا يمكن الطعن فيها على وجود هذه المعجزات، ومن ثم لا مهربّ لنا من قبولها. فإذا سلمنا بذلك، فتلك هي بداية شرعية الخطاب الديني الذي قبل على أساسه. فإذا سلمنا بشرعية هذا الخطاب فعلينا فيما بعد ألا نحاكمه إلا في ضوء المعايير التي يقدمها،

فالنبوّة صفة جليلة قائمة على العلم والحكمة والمعرفة، ولا يمنحها الله تعالى إلا لأصفيائه من خلقه ممن تميزوا بنقاء الفطرة، وصفاء السريرة، ونفاذ البصيرة مع العناية الإلهية به والفضل الربّاني عليه كون النبي من صفوة خلق الله تعالى.

وعلى هذا فالنبوّة اصطفاء واجتباء وهبة من الله تعالى لمن يشاء من خلقه، ولا يمكن لأحد أن يكون نبيا أو أن يصل إلى مرتبة النبوّة عن طريق العقل في البحث والتفكير والدراسة والتأمل والتدبر، ومهما أوتي الإنسان من صفات العقل الموجبة، فهو يستطيع أن يكون كذابا، ولكنه لا يستطيع أن يكون نبيا بأن يهيئ نفسه لتلقي النبوّة، فالنبوّة لا تنال بالاستعداد والتمرين والممّارسة، وإنّما هي فضل من الله يؤتيه من يشاء.

وأبسط ما يدل على أنّ النبوّة خارجة عن الذات هي أن ظاهرة الوحي معجزة خارقة لسنن الطبيعة، ولا صلة لها بالتأمل العقلي أو الاستعداد النفسي. إن الوحي أو الإلهام الذي تتمتع به

---

154 - فاطر 24

النبوّة خارج عن الذات الإنسانية، وموقف النبي منها هو موقف المتلقي الذي لم يكن له أي دخل لا في المعنى ولا في المضمون ولا في القبول ولا في الرفض. فالنبوّة هي قبول النفس الإنسانية الوحي من الله تعالى لحقّائق المعلومات والمعقولات عن جوهر بجوهرها دون تردد ولا تدخّل.

النبي هو المؤمن الواثق الذي لا حيّز للظن فيه، ولهذا فالوثوق فعل يقيني، {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا}155، جعل الله تعالى الكعبة قِبلة للمسلمين يحجُّون إليها. ويحجُّون إليها تعني يبلغون فيها الأمن والسّلام، وببلوغهم إياها يوثِقون عهدهم طاعة وطواعية على الأيمان وهم آمنين، ولذلك قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ}156، أي في مكانٍ أمين لا وجود للضرر ولا للخوف فيه.

قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}157 روي عن ابن عباس وسعيد ابن جبير أنهما قالا: "الأمانة هي الفرائض التي أفترضها الله على عباده"158.

قال الزجاج: صفة المؤمن بالله أن يكون راجيا ثوابه، خاشيا عقابه.

155- البقرة 125.

156 - الدخان 51.

157 - الأحزاب 72.

158 - لسان العربّ المحيط، ج 1، ص 108.

وعن ابن عمر قال أتى رجل إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقال من المهاجر؟ فقال من هجر السيئات. وقال من المؤمن؟ قال: من أتمنه النّاس على أموالهم وأنفسهم159.

والأمانة التي عرضها الله تعالى على السماوات والأرض والجبال وأبين أن يحملنها وأشفق منها هي المسؤولية التي حمْلها الإنسان، والمسؤولية التزام بالطاعة وعدم المعصية، طاعة الله واحد أحد لا شريك له، ولذا فإن الأمانة عبء كبير ومن ورائها منافع أكبر فمن كان أمينا وحريصا عليها كانت له الخلافة، ومن لم يستطع فلن يكون خليفة على الأمانة.

ولثقل عبء الأمانة التي التزم الإنسان أمام ربّه تعالى بحمْلها لم يُوفِّق في حمْلها بالتمام، فكان التقصير من بعضه، وكان الشرك من بعضه، وكان الظلم وقتل النفس التي حرَّم الله، وكان الفساد في الأرض، وكان أكلّ أموال النّاس بالباطل، وكان قول الزور متمشيا مع شهادة الزور، وكان الزنا، والكثير من المعاصي وعدم الالتزام. وهذا لا يعني أن الكلّ على هذه الشاكّلة، بل هناك الأنبياء والرّسُل، وهناك الصالحون رضي الله عنهم الذين يعملون على إصلاح ما يُفسده المخالفون الفاسدين، وهناك المجاهدون الطائعون، وهناك الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، وهناك المتصدِّقون والمتزكُّون والقائمون بأعمال الخير والإحسان. ولهذا كان الانقسام والخلاف بين الذين ثقلت موازينهم والذين موازينهم خفَّت مصداقا لقوله تعالى: {فأمَّا من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأمَّا من خفت موازينه فأمه هاوية}160.

---

159 – المصدر السابق، ج 1، ص 108.

160 – القارعة 6 . 8.

ولذا؛ فالنبي هو الأمين على النبأ الذي أنبئ به ليُبيّنه للناس المعنيين بأمره، ومن يؤمن من بعد النبأ العظيم الذي هو من عند الله عزّ وجلّ يصبح صادق الوعد والقول والفعل والعمل والسلوك؛ فالمؤمن لا يكذب ولا يسرق ولا يزني ولا يرتكب شيء من الفواحش بل يتقي الله ربّه في كلّ شيء يقوله أو يفعله، ويهدي للتي هي أحسن، {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}161.

وقال أبي حامد الغزالي: "أحقّ العباد باسم المؤمن من كان سببا لأمن الخلق من عذاب الله بالهداية إلى طريق الله والإرشاد إلى سبيل النجاة. وهذه حرفة الأنبياء والعلماء"162.

نقول:

نحن نتفق مع هذا التعريف لأبي الغزالي الذي ربّط النبأ بالأنبياء العلماء الذين أعلمهم الله بالنبأ العظيم الذي هو المرشد لسبيل النجاة، وهو الذي به تتحقّق الهداية للحقّ العظيم.

بناء على ما تقدَّم هناك علاقة قوية بين اسم المؤمن والفعل الإيماني، وذلك من حيث إنَّ اسم المؤمن هو المصدر للفعل الإيماني، أي لو لم يكن المؤمن ما كان للإيمان فعلُ، وبما أنَّ للإيمان فعل، إذن فمن يعمل على الأخذ به وتأكيده فهو المؤمن، وإلا هل يُعتقد أن يتم الأخذ بالفعل الإيماني من غير المؤمن؟ ولذلك من يتخذ من الصفة أفعالها يتصف بها.

وبما أنَّ الأمانة عبء، والعبء ثقل ليس هينا، ومن ورائه مسؤوليات جسام، فمن الذي يتطوع لحمْله؟

---

161 - الإسراء 53.

162 - المصدر السابق، ج 1، ص 49.

نقول:

الواثق هو الذي يتقدم متطوعا لحمْله، أمَّا غير الواثق فلا يتقدم، ولهذا عبء الأمانة لا يحمله إلا المؤمنون الواثقون، الذين هم متصفون بالخلائف كما هو حال الأنبياء جميعا صلّى الله عليهم وسلّم.

وهذا الأمر هو الذي يجعل من أمر المؤمن أمر وثوق. ولذلك قلنا أنَّ المؤمن هو: الواثق الصادق فيما يقول.

ولذلك: فإنّ اسم المؤمن جلّ جلاله اسم الوثوق، الذي لو لم يكن اسمه المؤمن ما كان لنا الدليل على صدق ما يُقال، فالمؤمن اسم عهد على الإيمان، ولذا؛ فالإيمان هو دليل وثوق المؤمن من ذاته ونفسه وقوله وفعله. ولذا فالإيمان عهد لا ينفصم، وقسم لا يحنث، إنّه الرسوخ والثبوت على الحقّ بقوّة الحجّة.

وعليه: النبي هو من بُعث سلاما للناس ليهتدوا على يديه والبيّنة التي بينهما وبالتي هي أحسن، فالأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام بعثهم الله تعالى ليُبيّنوا الحقّ من الباطل ويهدون النّاس لتوحيد الله وعدم الشرك به، ولذا فالنبي هو من كان سلاما على نفسه وعلى من بُعث فيهم نبيا مُرسلا، قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}163.

163- آل عمران 19، 20.

ولأنّ النبي هو سلام من عند الله على العباد، وسلام إليهم.

والنبي هو العليم بما مُكِّن منه من علم من العليم المطلق وخير وسيلة لذلك الإنباء الذي لا يكون إلا من الله تعالى لنبي يصطفيه بالنبأ العظيم ويظهره على آيات من آياته العظام ويكلّفه بهداية النّاس المراد لهم الهداية.

أمّا العليم بالإضافة فهو المؤقت الذي لا يبقى مهما ألمّ من علم من علمه الواسع، ولذا؛ فالعلم الدائم للحي الدائم والعلم المؤقت للعليم المؤقت (الخليفة).

والعالم بالإضافة: هو المتمكن من العلم الذي أظهره عليه العالم المطلق مباشره كما هو حال الأنبياء والرّسُل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أو كالمؤمنين الذين اهتدوا بالعلم الذي أظهره لهم الرّسُل والأنبياء وبما تركوه لهم من علوم ومعجزات وكتب محفوظة.

والعليم بالإضافة هو الملِم إلماما تاما بالعلوم التي أظهره عليها العليم المطلق، ممّا يجعله يعلم ما لم يعلمه غيره وفي هذه خصوصية لمن يصطفيهم الله لسرٍ من أسراره وحكمة من حِكمتهِ كما هو الحال الذي اجتبى به الله تعالى سيدنا اليسع صلّى الله عليه، وكما هو حال يوسف صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ ربّك وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آَلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ ربّك عَلِيمٌ حَكِيمٌ}164.

ولأنّ أمر الأسرار والحِكم التي من وراء العلم ليس هينا فيتولى الله اختيار وتفضيل من هم متهيئون لهذه المهمة الصعبة فيصطفيهم

164- يوسف، 6.

لها، ويعلِّمهم ما لم يعلموا إظهارا، فتصبح رؤاهم سابقة على حدوث الفعل، أي أن المعلومة التي تتعلق بأمرٍ سيحدث يتم اطلاع البعض عليها حتى يصبحوا أهل قدرة على الأنباء بها قبل حدوثها وإن حدثت فهم لها خير مُبيِّنٍ أو مفسِّرٍ.

3. مُبشَّر:

قال تعالى: {فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِّمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ربّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}165، وقوله تعالى: {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا قَالَ ربّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ ربّك هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا}166، وتوجيه الكلّام إلى زكريا صلّى الله عليه وسلّم هكذا مباشرة دليلٌ على سرعة الاستجابة لدعائه، فجاءت الإجابة مباشِرة دون مُقدِّمات.

وهنا كان الدّعاء من سائل يؤمن بأنّ الله سميع ومجيب، ولهذا سأل وهو واثق من سمع سؤاله، ذلك لأنّ السميع قريب مجيب؛ فكانت الإجابة

وفي قصيدة ابن القيم:

وهو السميع يرى ويسمع كلّ ما... في الكون من سر ومن إعلان

ولكلّ صوت منه سمع حاضر... فالسر والإعلان مستويان

---

165 - آل عمران 39 – 40.

166 - مريم 7 – 9.

والسمع منه واسع الأصوات لا... يخفي بعيدها والداني167

السميع اسم من أسماء الله الحسنى، وهو الذي لا يعزب عن إدراكه أيّ مسموع وإن خفي، فإنّه عزّ وجلّ سميع لا يحتاج في سمعه إلى آلة سمع، وإلاّ لانتفت عنه صفة الكمال لوجود نقص في السمع، ولكن الله سبحانه وتعالى كامل منزه عن النقص.

فالسميع اسم لله متضمن لمعنى كمال السمع وكمال الإدراك والقوّة، وقد سمّى الله عزّ وجلّ نفسه في الكثير من الآيات القرآنية بهذا الاسم كما في قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}168، أي أن الله جلّ جلاله منزه ومُطّهَر عن المثيل والشبيه والند والكفؤ.

السميع اسمه جلّ جلاله وفعله السمع، وهو أليق بجلال الله تعالى وكماله من اسم سمَّاع، لأن السمّاع في معناه هو كثير السمع لما يسمع بواسطة آلة السمع فهو إذن كثير السمع لما يقال، ولا يمكن للسمّاع أن يسمع دون آلة للسمع، وكذلك السمَّاع في كثير من الأحيان يخطئ وهذا ليس من صفات الله وأفعاله الطاهرة، وكذلك السماع الذي في حاجة للآلة هو من ضعف سمعه إذا تعطلت آلته حُدَّ من سمعه وهذه ليست من صفات السميع العليم جلّ جلاله، ولذا من حُدَّ من سمعه بحدود الزّمان أو المكان أو الآلة يكون عُرضة للنقص والعيب، فينقص سمعه، ويغيب عنه الكثير ممّا يدور من حوله ممّا يضعف علمه بالحوادث، وهذا يستحيل في حقّ الله عزّ وجلّ وهو السميع العليم.

167 شرح قصيدة ابن القيم، ج 2، ص 215.

168 الشورى، 11.

العليم الذي يعلم كلّ ما يدور في ملكه من أشياء، قال تعالى: {قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}169، فهو وحده الذي يعلم علم ما كان وما سيكون وما هو كائن ولا يغفل عن كبيرة ولا صغيرة في ملكه، قال تعالى: {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ ربِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الحقّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}170، كيف لا وهو الكبير المهيمن العليم السميع البصير. وعلم الله تعالى لا يتوقف على آلة إدراك كسمع وبصر ولمس وغيرها، فهو جلّ جلاله يعلم الأشياء بمطلق العلم، ويسمع بمطلق السمع، ويبصر بمطلق البصر، دون الحاجة إلى آلات إنه خالق الأشياء سبحانه وتعالى لا يحتاج لشيء.

فلا نقول بتعطيل صفات الله تعالى كما فعلت المعطلة من أنهم فسروا هذه الصفات بالقدرة والسطوة، ولكن نقول لله تعالى يدٌ ولكن ليست كأيدي مخلوقاته، ويسمع ويبصر ليس كسمعنا وبصرنا ليس كمثله شيء قال تعالى: {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ

169 آل عمران، 29.

170 الأنعام، 56 ـ 59.

الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ}171.

وهل يكون العلم إلا عن طريق السمع والبصر؟ بالتأكيد يكون ذلك العلم بدون الآلات متحتما ولكن في حقّ الله عزّ وجلّ، السميع المطلق والبصير المطلق والعليم المطلق.

أمّا في حقّ السميع بالإضافة، فلا يمكن أن يكون علمه إلا عن طريق ما أعطاه له الله تعالى من سمع وبصر، وما خصه به تعالى من عقل وبصيرة فقد زوده الله تعالى بهذه الصفات المستمدة من صفاته الكريمة، فلم يتركه أعمى ولا أصما بل جعله في أحسن تقويم سميعا بصيرا ليتمكن بهما من الطاعة وإدراك المعاصي والابتعاد عنها، قال تعالى في كتابه العزيز: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا}172.

ولو لم يكن ذلك الكرم من الله عزّ وجلّ على الإنسان الذي خلقه من بداية خلقه ليكون خليفته في الأرض، يعمرها بطاعة خالقه جلّ جلاله وذلك كما جاء في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّك لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ

---

171 الشورى 11 . 13.

172 الإنسان، 1 . 5.

مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آَدَمَ الأسماء كلّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأسماء هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأسمائهمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأسمائهمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}173، لقد حقّ للإنسان أن يتحمل الأمانة التي حمَّلها له الله سبحانه وتعالى، فكان الخليفة التي جعله الله في الأرض مصلحا لا مفسد ولا سافك دماء، ومع ذلك الأمانة ثقل من يعلم بأعبائه قد لا يحمله، ولكن اختيار الله للإنسان واصطفاه لحملها قد ميزه بالاستخلاف فيها مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}174.

واسم السميع في حقّ الله تعالى، يدل على اللا حدود في السمع، كيف لا وهو الذي وسع سمعه كلّ شيء، فسبحانه الذي لا يشغله سمع عن سمع آخر. نحن بني آدم نسمع الأصوات متفردة بالتمييز ولا نميزها في اللحن إلا كقول واحد، أما السميع فهو القادر على التمييز بين ما خلق وهذه صفة تفرد له دون غيره، ولذا فهو الواحد الأحد.

فبالرغم من اتساع هذا الكون الهائل واختلاف أجناس العالَمين، إلاّ أنّ الله سبحانه وتعالى قادر على السمع المطلق الكامل الذي لا يشوبه أي عيب أو نقص.

173 البقرة، 30-34.

174 الأحزاب، 72.

وهذا الاسم يجب أن يُفْهَم مدلوله فهما صحيحا لدى خليفة الله تعالى في الأرض، فمن أراد أن يكون خليفة لله في أرضه لابدّ أن يتصف بصفاته، فيكون سميعا للحقّ ولأوامر الله جلّ جلاله، ويكون مطيعا بصيرا بما أمر كما في قوله تعالى في كتابه العزيز: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا}175، وكذلك في قوله جلّ جلاله: {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}176، إذا فالأصم هو عكس السميع تماما، فالخليفة الذي يستحقّ أن يكون كذلك هو بعيد عن الصمم، بل هو سميع ومنصت ومجيب لما أمرنا الله تعالى به، قريب من خالقه.

والقريب من الخالق لا يكون بالمجاورة الجسدية بين الخالق والمخلوق، فهذا الأمر يستحيل أن يكون، ولكن يكون القربّ عن طريق الامتثال لأوامر الخالق عزّ وجلّ والالتزام بطاعته في كلّ ما أُمِرَ به وما نُهِي عنه. وكلّ هذه الأفعال من الخليفة تجاه من استخلفه تعتبر تقربّا إليه، وهذا التقربّ بهذه الأفعال ينتج عنه حصول القربّ بينه وبين الله جلّ جلاله. وتقربّ العبد من ربّه يكون بالطاعة لأوامر الله عزّ وجلّ، والأخذ بصفاته العظيمة وفي مقابل ذلك يكون تقربّ الله تعالى من عبده بالرّحمة والمغفرة والإجابة والهداية.

---

175 الإنسان، 1 . 5.

176 هود، 24.

ومعنى السميع في حقّ الله تعالى، هو أنه يسمع كلّ ما قد قيل، وما يقال وما سوف يقال، ولا يتوقف سمعه على حدود الزّمان أو المكان وهذا بالضرورة يعطينا معنى الإحاطة، فالله تعالى بسمعه المطلق هو محيط بكلّ هذا الكون الشاسع، وهو سبحانه وتعالى بعظيم قدرته وكمال صفاته وسع كرسيه السماوات والأرض فهو يحتوي كلّ شيء ولا يحتويه أي شيء، وهذا ما نجده واضحا في الآية الكريمة: {ذَلِكُمُ اللَّهُ ربّكمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كلّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كلّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ ربّكمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ وَكَذَلِكَ نُصرّفُ الْآَيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}177، إن الله عزّ وجلّ بسمعه المطلق هو محيط بالكون، لا يمكن أن يفلت منه أي شيء مهما صغر وازداد دقة في التصغير، فالإحاطة بالشيء تستوجب القدرة عليه والهيمنة فوقه.

فالسميع المطلق هو المحيط بكلّ ما في ملكه بسمعه من أشياء، فلو لم يكن سميعا لما كان محيطا ولا مهيمنا ولا كبيرا، فسبحانه وتعالى هو السميع بهيمنته على خلقه وهو المهيمن بسمعه، فلا هيمنة دون سمع، أو بسمعٍ غير تام، وهذا يؤكد أن صفات الله تعالى كلّها مترابطة مع بعضها البعض، كيف لا والموصوف بها واحدٌ كاملٌ لا نقص في صفاته جلّ جلاله.

والسميع بالإضافة هو المستمع لكلّ ما يقع تحت سمعه من أقوال في حدود المكان الذي يوجد فيه وكذلك في حدود الزّمان، فهو لا يستطيع سماع ما في الماضي أو المستقبل من أخبار، وكذلك

177 الأنعام، 102 . 105.

لا يمكنه سماع ما يدور في الوقت الحاضر من قول إذا لم يكن ذلك القول في حدود مكان وجوده، وبالتالي فالسميع بالإضافة محيط بما يسمع ويدرك في حدود الزّمان والمكان وهو بذلك يكون مهيمنا على ما يصل إليه سمعه. ولذا فالخليفة السميع هو الذي يستجيب مع كلّ أمر بالعمل الصالح أو بالانتهاء عما نهى الله عنه أو بالتجنب عنه أو بالأخذ به وفي ذلك يقدر الله الأمر تقديرا وكلّ شيء بحسبان.

فإحاطة الخليفة وهيمنته جزء من هيمنة الله سبحانه وتعالى، والإحاطة بالشيء متضمنة القدرة عليه، فعلى المحيط بالإضافة أن يتذكر قدرة المحيط المطلق عليه لأنه داخل ضمن إحاطته، وبالتالي فهو قادرٌ على عقابه وحسابه وهو أيضا عالم بما يفعل أو يقول أو يضمر من خير أو شر.

في حين أننا نجد بعضا من البشر يتناسون هذه الصفة في حقّ الله تعالى، فنراهم يتصرفون وكأن الله جلّ جلاله غائب عن مجالسهم، منحدرون في النميمة وقذف النّاس وسبهم، يعيشون في مستنقع الكذب والرذيلة، وكأن الله تعالى لا يسمعهم ولا يحيط بهم، لكنه عزّ وجلّ مهيمن على سائر المخلوقات بسمعه وعلمه وهو يمهل ولا يهمل، لذلك أمر الإسلام المؤمنين إذا سمعوا منكرا عليهم أن يقفوا له بالمرصاد ولا يصدقوا كلّ ما يسمعون فيقعون في الضلال، وهذا يتضح في قصة الإفك كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكلّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ

فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ يَعِظُكُمَ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيم}[178] وهناك فرق بين السمع والاستماع، فالسمع هو سمع الكلام وفهمه وإدراك مقاصده والرد عليه إن رأى أنّ الرد واجب، والأخذ بما سمع ورآه صوابا وترك ما سمع ورأى أنّه يتنافى مع الحقّ، وهذا المعنى من السمع متحقّقٌ بالضرورة في السميع المطلق، فهو يدرك كلّ ما يسمع ولا يمكن أن يغفل عن أقل ما يقال، فيسهو عن فهمه أو إدراكه، قال تعالى: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حقّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُربَانٍ تَأْكلّهُ النّار قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ كلّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النّار وَأُدْخِلَ الجنّة فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}[179]. نزلت هذه الآيات بأسباب يقال دخل أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، بيت المدراس،

---

178 النور، 11، 18.

179 آل عمران، 181 . 185.

فوجد من يهود أناسا كثيرا قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له (فِنْحَاص) وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حَبْرٌ يقال له: أشيع. فقال أبو بكر: "ويحك يا فِنْحَاص اتق الله وأسلم، فوالله إنّك لتعلم أن محمّدا رسول الله، قد جاءكم بالحقّ من عنده، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله -يا أبا بكر-ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير. ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنيًا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربّا ويُعْطناه ولو كان غنيا ما أعطانا الربّا فغضب أبو بكر، رضي الله عنه، فضربّ وجه فِنْحَاص ضربًا شديدًا، وقال: والذي نفسي بيده، لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربّت عنقك يا عدو الله، فذهب فنحاص إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: أبصر ما صنع بي صاحبك. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لأبي بكر: "ما حَمَلَكَ على ما صَنَعْت؟" فقال: يا رسول الله، إن عَدُوَّ الله قد قال قولا عظيما، زعَم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غَضبْتُ لله ممّا قال، فضربّت وجهه فجَحَد ذلك فنحاص وقال: ما قلتُ ذلك فأنزل الله فيما قال فنحاص ردا عليه وتصديقًا لأبي بكر: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)"180 ولأنّ الله قريب رقيب مجيب الدعاء فهو بطبيعة الحال يسمع ما يقال ويعلم بما سيقال قبل قوله، ولذا فمن يسلم بعلمه أمر الغيب وما تكنه الصدور وتخفيه لا يستغربّ بأنه قد سمع قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ،

180 تفسير ابن كثير، ج 2، ص 76.

ولهذا فقد وقع سمع الله لقولهم وجاء رده عليهم بتوعده لهم بالعذاب والعقاب في الآخرة 181.

وقال الله سبحانه وتعالى كذلك: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}182. سبب نزول هذه الآية الكريمة، قيل عن عائشة أنها قالت: "تبارك الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة فكلّمتْ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، وأنا في جانب البيت اسمع كلّامها، ويخفي عليَّ بعضه، وهي تشتكي زوجها وتقول: يا رسول الله: أبلى شبابي، ونثرتُ له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكّو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات.

وفي هذه الآية وقع سمع الله تعالى لقول المرأة التي تجادل الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – وتشتكي زوجها إلى الله عزّ وجلّ، فأدرك ما تقول وجاء رد الله تعالى عليها بأن أنزل في الآية التي تليها الإجابة وهي ما يتعلق بأحكام كفارة الظهار، قال تعالى: {الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}183.

وكذلك يتحقّق هذا المعنى من السمع في حقّ السميع بالإضافة، والسميع غير السمَّاع أو المستمع فالسميع صفة ربّانية

181 المصدر السابق، ص 29.

182 المجادلة، 1.

183 المجادلة، 2،3.

ترتبط بالذات العلية وتستمد منها عندما تُتبع بالطاعة التامة في الاستماع للقول الذي يحمل الأمر ويؤخذ به والقول الذي يحمل النهي أو الاجتناب ويؤخذ به والقول الذي به تزداد التقوى. وبذلك يستخلف الإنسان السميع بالطاعة التامة التي تترسخ وتتأكد بالعمل الصالح. أمّا السماع والمستمع، فحالهما يختلف عن حال السميع، فأولئك السمَّاعون والمستمعون قد لا يأخذون بما سمعوا وقد يحرِّفون ما سمعوا وقد لا يطيعون ما سمعوا وقد لا ينتهون بعد ما سمعوا، ولذا فكلّ من زوده الله تعالى بحاسة السمع والعقل يمكن أن يكون سامعا مدركا لما يقال، ويمكن أن يرد على ما يسمع بالقول أو الفعل وقد جاء هذا في قول الله جلّ جلاله في كتابه العزيز: {فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَا وَآتَتْ كلّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ}184، وكذلك جاء في قوله تعالى: {قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ}185.

ومن هذه الآيات يمكن أن نرى أنّ كلّ النّاس يمكن أن يسمعوا ويدركوا ما يسمعون، ولكنهم مع هذا لا يكونون متصفين بصفة الله عزّ وجلّ السميع، فلا يستحقّون أن يخلفوا الله تعالى في الأرض، لأن الإدراك هنا عند هذا النوع من البشر لا يؤدّي إلى معرفة الحقّ والوصول إليه، بل أنهم لا يصلون بهذا السمع إلا إلى الضلال.

وخلافة الله تعالى في الأرض نوعان: خلافة اصطفاء لمن يختارهم الخالق جلّ جلاله ويصطفيهم من الأنبياء والرّسُل ليحملوا

184 يوسف، 31.

185 الأنبياء، 60.

لواء الدعوة والتبليغ على لسان الله عزّ وجلّ، قال تعالى: {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصّلاة لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كلّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى}186، والنوع الآخر من الخلافة هي خلافة اختيارية، وهي التي تكون في عباد الله الذين يسعون إلى أن يكونوا خلفاء الله فيعملون على الاتصاف بصفاته، ويعملون على طاعته والتقربّ منه سبحانه وتعالى.

فخليفة الله في أرضه لا يكون كبقية البشر في سمعه وإدراكه، فيسمع ما يريد أن يسمع ويدرك، فيرد كيفما أراد دون حدود في السمع والرد ولكن هذا الخليفة وهو السميع بالإضافة لابدّ أن يحرص على أن يسمع من القول أفضله ويدرك معانيه ويفهمه ويأخذ به، ويحرص على أن لا يسمع لغو الحديث والكلّام الذي لا يفيد، قال تعالى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا}187، وهذا أمر من الخليفة المطلق إلى الخليفة بالإضافة، فالسمع هنا قد وقع لقولين الأول سماع آيات الله تعالى يُسْتَهْزَأ بها والثاني لقول الله باتخاذ الرد المناسب منهم ترك هذا المجلس حتى يخوضوا في حديث غيره، وكذلك كان هذا الأمر للنبي – صلّى الله عليه وسلّم – وهو الخليفة الذي اختاره الله عزّ وجلّ لتبليغ الرسالة في قوله تعالى: {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ

186 طه، 13. 16.

187 النساء، 140.

تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كلّ كربّ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أنظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحقّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ لِكلّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آَيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}188، فالخليفة بالإضافة مأمور بترك الاستماع لما يقال في المجلس من استهزاء ولغو وفي الوقت نفسه مأمور بسماع قول الله عزّ وجلّ واتباع أمره حتى يخوضوا في حديث غيره.

أما الاستماع فهو استماع الكلّام دون إدراك لمعانيه، إما لغفلة من السامع أو لنفاق منه وتهاون وعدم مبالاة به، قال تعالى: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآَيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ مَا آَمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}189. السميع بالإضافة هو الذي لا يغفل عما يستمع إليه من السميع المطلق، أما أولئك الغفلة فهم الذين جعل لهم الله

---

188 الأنعام، 63 ـ 68.

189 الأنبياء، 1 ـ 7.

تعالى حاسة للسمع وعقلا للتمييز وهم عن أمرهم غافلون أي غافلون عما قاله تعالى وهو خير لهم، ومع أنّه خير لهم إلا أنهم لم يدركوا بعد هذا الخير وبعد فوات الأوان سيكونون من الخاسرين بأسباب الغفلة. ولذلك قال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ}190 المنافقون والكفرة والمشركون دائما في المسلمين يظنون ظن الجاهلية، ومثل هؤلاء المستهزئون الساخرون من الحقّ هم الغافلون حقّا فهم لا يدرون الساعة تأتي بغتة. وقوله (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ) هؤلاء المنافقون، دخل رجلان: رجل ممن عقل عن الله وانتفع بما سمع ورجل لم يعقل عن الله، فلم ينتفع بما سمع، كان يقال: النّاس ثلاثة: فسامع عامل، وسامع غافل، وسامع تارك"، وهؤلاء المنافقون الذين يستمعون إلى النبي عليه الصّلاة والسّلام لا يعون قوله ولا يفهمونه191.

لذلك لابدّ أن يكون الخليفة دائما مستحضرا لسماع الله المطلق، فيكون سمعه للحقّ ومن أجل إحقّاق الحقّ، وللعدل لا للظلم، وأن يكون قبل كلّ شيء سمعه للخالق، هذا هو السمع الحقّ كما أراده الله فينا، وإلا لما كان هذا السمع نعمة من الله سبحانه وتعالى لنا مثل كثير من النعم الأخرى، قال تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى

190 محمّد، 16 ـ 19.

191 تفسير الطبري، ج 22، ص 160.

الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا}192، أي أن الله أتم خلْقِه للإنسان وبعد ذلك أهداه نعمتي السمع والبصر، ثم جاءه التخيير فبعد أن يستمع له الاختيار إما أن يكون شاكرا على نعمه التي أنعمها عليه وإما أن يكون جاحدا كفورا ولكلّ حسابه. وللتمييز سيكون السميع مسلما طائعا، وسيكون غيره كافرا رافضا.

ولذا فالفرقُ واضحٌ بين السمَّاع والسميع، فالسمَّاع ليس بالضرورة أن يكون سميعا

بل لقد جاءت كلّمة سمَّاعون بمعنى جواسيس193 كما في قوله تعالى: {إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}194. فالسمَّاعون في هذه الآية هم المتخاذلون والمنافقون الذين يظهرون مالا يخفون.

فالذين يسمعون الحقّ وما أمر الله به، وما نهى عنه، ولا يعملون بهذا كلّه هم في الحقّيقة أيضا سمَّاعون، أي كثيرو السمع دون الاستفادة من أي شيء يسمعونه، ولا يعقلون أي شيء ممّا حولهم، قال سبحانه وتعال: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ

---

192 الإنسان، 1 . 5.

193 تفسير الطبري، ج 14، ص 281.

194 2 النور، 45 . 47.

بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} 195، فالذين يسمعون قول الحقّ ولا يتبعونه مثلهم فيما هم فيه من الغي والضلال كمثل الدواب السارحة التي لا تفقه ما يُقال لها بل إذا نعق بها راعيها أي دعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يُقَال لها ولا تفهمه بل تسمعه صوتا فقط196 وهكذا يكون الحال من الحال كمثل الذي ينعق بما لا يسمع.

فلا قيمة من سمعٍ لا يعود بالفائدة على صاحبه، بل بعض السمع يعود على صاحبه بالويل والهلاك، فالسميع بالإضافة هو الخليفة الذي سمع قول مستخلفه عزّ وجلّ وعمل بما أُمِر إصلاحا، وترك ما نُهِي عنه طاعة.

وبالطبع سَمْع الإنسان ليس كسمع خالقه، فبالرغم من أن البشر متشابهون وهم خلق الله سبحانه وتعالى، وكلّ فرد فيهم له علامات مميزة قد ندركها وقد لا ندركها نحن بل المتخصصون مثل البصمة، فلكلّ إنسان بصمته التي تميزه عن أي إنسان سواه، إذا كان هذا جزء ممّا يختلف فيه البشر عن بعض فما بالنا باختلاف البشر جميعا عن الخالق جلّ جلاله، إنه الواحد القهار الذي ليس له مقارن، فمهما وصل ابن آدم إلى درجة من الرّحمة والعلم فلا يمكن أن يتعدى اليسير ممّا عند الله الخالق القادر والمهيمن والعزيز، لذا تبقى حاجة البشر إلى الخالق في تزايد مستمر على مدى الحياة، وبما أن الحياة الدنيا دار ابتلاء وامتحان فقد كان فيها النّاس متفاوتين ألوانا وأرزاقا وأخلاقا وآجالا، فنرى الغني والفقير، والأعمى والبصير، والقوي والضعيف، والظالم والمظلوم، والمخلص والمنافق، ولما كانت

195 البقرة، 171.

196 تفسير ابن كثير، ج 1، ص 480.

الدنيا هكذا فإن حكمة الله عزّ وجلّ تظهر في تعريف الخلق ما يناسبهم من أسمائه وصفاته، فالمذنب إذا أراد التوبة سيجد الله توابا رحيما غفورا، والمظلوم سيجد الله وليا ونصيرا، والضعيف سيجد الله قويا عزيزا، والطالب لقضاء حاجة سيجده سميعا مجيبا كما قال عزّ وجلّ في كتابه العزيز: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}197، ونستدل من الآية الكريمة أن استجابة دعاء الداعي يستوجب قربّ الإنسان من ربّه، وبالتالي يكون قربّ الخالق من العبد، وهذا القربّ لا يتحقّق إلا بسماعنا لقول الله تعالى الحقّ، وبعدم الصمم والابتعاد عنه، وإلا فإن الله سبحانه وتعالى لن يكون قريبا مجيبا للدعاء، فالخليفة الذي يرتضيه الله عزّ وجلّ هو من يُسْمَع دعاؤه، وقد استحقّ هذا بسماعه أوامر الله وخوفه من عقابه، كما حدث مع سيدنا يوسف عليه السلام عندما دعا ربّه أن يبعد عنه كيد النسوة في المدينة، وذلك في قوله تعالى: {فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ ربّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ}198.

197 البقرة، 186.

198 يوسف، 31. 35.

وقد اقترن اسم السميع في القرآن الكريم بأسماء أخرى لله عزّ وجلّ ومنها اسم العليم كما في قوله جلّ جلاله: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}199، فسمع الله عزّ وجلّ مقترن بعلمه بالشيء، وكذلك قوله سبحانه وتعالى: {لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا}200، {وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}201، علاقة قوية تربّط المعنى السمعي مع المعنى البصري، فالسميع لم يكن فاقد الذاكرة فهو يعلم بكلّ ما يسمع حتى يوصف بأنه عليم، والعليم هو الذي يدرك الأمر ويلم بحاله ويحيط به ويهيمن عليه بالكمال. إذن علم الله تعالى كامل ومطلق لا يحده أي حد فقد أحاط هذا الكون بسمعه وبصره وعلمه وقدرته جل شأنه، فعلم الله تعالى كامل لا نقصان فيه، فهو لا تخفي عليه خافية لا في الأرض ولا في السماء؛ فبسمعه وعلمه هذا يكون الله عادلا في حكمه وقضائه، يعاقب هذا، ويعفو عن هذا، ويستجيب لهذا، فالعدل بدون العلم لا يقع والعلم بدون السمع والبصر لا يحصل، فالإنسان الذي يريد أن يكون خليفة الخالق في أرضه لابدّ أن يجعل بصره وسمعه في خدمة علمه الذي يجعله بالتالي عادلا في حكمه، فالذي يتولى منصبا كبيرا مثل القاضي لابدّ له من أن يكون سميعا

199 الأعراف، 200 . 204.

200 النساء، 149.

201 الأنعام، 13.

للحقّ ولا يكون للباطل سمعه، فسمعه إذا لم يخدم علمه الذي استحقّ به هذا المكان في الحياة الدنيا لا فائدة منه، فيكون مثله مثل الذي لا يسمع فهو أصم برضاه، كأن يستمع لطرفٍ واحدٍ ويبني حكمه على هذا الأساس الظالم، فهو إذن سمّاع متحيز، ونُفِي عنه العدل، فلا يستحقّ أن يكون خليفة لله الحقّ، فالقاضي السميع خليفة لله ولا يحكم إلا بما يرضي الله تعالى، ولذا ينبغي أن يكون سميعا أي يستمع بنية العدل وإحقّاق الحقّ ومرضاة الله تعالى فلا يظلم أحدا، وبهذا يكون خليفة مصلحا في الأرض لا مفسدا فيها.

ونحن نعلم أن الله عزّ وجلّ سيحاسب العباد على أقوالهم وأفعالهم في الحياة الدنيا، فهو إذا حسيب يدرك كيفية مراقبة عباده، وتوزيع أرزاقهم، وكيف سيكون حسيبا إذا لم يكن عادلا؟ وكيف يكون عادلا إذا لم يكن سميعا للعباد بصيرا بهم؟ وكيف يكون دامغا للباطل وزاهقا له إذا لم يُحقّ الحقّ.

والسميع أيضا في حقّ الله ترتبط بالبصير، لأن من كان سميعا لأقوال الخلق لابدّ أن يكون بصيرا بأعمالهم، وقد ذكر الله هذين الاسمين مرتبطين في كثير من الآيات الكريمة في كتابه العزيز كما في قوله سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}202، فالأمر هنا في هذه الآية الكريمة أولا برد الأمانات إلى أهلها، والأمر الثاني الحكم بالعدل، وختمها بتذكير العباد أن الله له كامل السمع والبصر، فيما يفعلونه من ظلم وخيانة الأمانة. ولذا فإنّ ممّارسة الديمقراطية في الفكر الإسلامي كانت تمارس وفقا لفلسفة الشورى في الدين الإسلامي، التي تعني

202 النساء، 58.

فيما تعني: أخذ الرأي بعد تبيان الأمر واستيضاحه مصداقا لقوله تعالى: {وشاوِرْهم في الأمر}203 ويقول أبن منظور: "شاورهم تعني استخرج آراءهم"204، وهناك من يقول: "هي تلقيح الرأي بآراء متعددة"205. وهذا يدل على أن الشورى في الفكر الإسلامي تماثل الديمقراطية عندما تكون ممّارستها حقّا للجميع الذكور والإناث، ولذلك يستوجب ممّارسة الشورى في الأمر. والأمر هو: كلّ ما يتعلق بالإنسان من حقّوق وواجبات ومسؤوليات، سواء كان هذا الأمر سياسة داخلية أم خارجية، أو كان هذا الأمر في حالة السلم أم في حالة الحربّ، وسواء كان اقتصادا أو علاقات اجتماعية، ولذلك في الآية السابقة يخاطب الله عزّ وجلّ رسوله الكريم ويلزمه بالمشاورة في الأمر، أي وكأنه يقول، في وجودك يا رسول الله لا ينبغي أن تقرر أي شيء يتعلق بالنّاس نيابة عنهم، بل ما يتعلق بهم من أمرٍ يجب أن تكون فيه في حالة شورى معهم، ولذلك كانت الآية {وشاورهم في الأمر) موجهة إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لتبين له أهمية المشاورة في الأمر مع الذين يتعلق الأمر بهم.

وفي حالة ما لم يكن الرّسول عليه الصّلاة والسّلام معهم يصبح الأمر بينهم شورى مصداقا لقوله تعالى: {وأَمْرُهُم شُورى بينهم}206. إذن بكلّ وضوح إن الأمر الذي يتعلق بالنّاس في فترة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم كان في حالة شورى بين الرّسول

---

203 آل عمران، 159.

204 تفسير الجلالين. بيروت، دار الفكر، ص 94.

205 محمّد متولي شعراوي، تفسير الشعراوي. القاهرة، أخبار اليوم، ج 3، ص 1840.

206 الشورى، 38.

والآخرين الذين يتعلق الأمر بهم. أمّا من بعده فيترك الأمر بين الذين يتعلق بهم شورى يقررون ما يشاءون فيه، وينفذونه كما يشاءون وفق ضوابط الشرع، ولهذا لا ينبغي أن يتقدم أحد لينوب عن النّاس فيما يتعلق بهم من أمر. وكلّمة أمرُهُم، تتكون من جزأين هما: أمْرُ، وهُم، فالأمر هو ما سبق تبيانه، أما هم فجاءت مطلقة أي كلّ من هم على علاقة ارتباط مع الأمر، وهذا يعني لا وجود في الممّارسة الديمقراطية بالمفهوم الفكري الإسلامي لأقلية وأغلبية، بل الوجود للكلّ دون استثناء، وكلّمة بينهم الظرفية تعني، أن تقتصر الشورى في الأمر على الذين يعنيهم الأمر فقط، ولا مكان لغير ذلك في المشاركة الديمقراطية، ولتأكيد هذا الاقتصار قال عزّ وجلّ بينهم، ولم يقل بين الحاكم والمحكومين، أو بين السادة والعبيد، أو بين المسؤول وغير المسؤول.

وعبر التاريخ كانت هناك محاولات فكرية لممّارسة الديمقراطية من الناحية النظرية، وهناك من الناحية العملية والتطبيقية ما يخالف ذلك بالتمام، حتى أصبح المعنى السائد للديمقراطية هو حكم الأغلبية، مع العلم أنّ هذا التفسير ليس له علاقة بمعني الديمقراطية ودلائلها اللفظية، ولذا أصبح التهربّ عن دلائلها بتعويضات منقوصة، فالديمقراطية هي واحدة لا تتجزأ.

وعليه فالسميع لا تخفي عليه خافية، لقد أحاط سمعه بجميع المسموعات، فكلّ ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمعها سرها وعلنها، فلا تختلط عليه الأصوات ولا تخفي عليه جميع اللغات، كما ورد في الآية الكريمة {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كلّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكلّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ

وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَاربٌ بِالنَّهَارِ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَال}207 وكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ 208، فسمعه جلّ جلاله نوعان:

أحدهما: سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة، والخفية والجلية، وإحاطته التامة بها.

وثانيهما: سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين فيجيبهم ويثيبهم كما في قوله تعالىً: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ}209. والاستجابة هنا لا تكون إلا بعد السمع، فهل يجيب أو يستجيب من لا يسمع؟ بالتأكيد لا! وقد أمرنا الله تعالى بالتوجه إليه بالدعاء من أجل أن يستجيب عزّ وجلّ لدعائنا وجاء هذا الأمر صريحا في قول الله تعالى:

{إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يُؤْمِنُونَ وَقَالَ ربّكمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاس وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا

207 الرعد، 8 . 11.

208 المجادلة، 1.

209 آل عمران، 159.

يَشكّرُونَ ذَلِكُمُ اللَّهُ ربّكمْ خَالِقُ كلّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنّى تُؤْفَكُونَ}210.

والاستجابة للدعاء من الله تعالى يمكن أن تكون فورية أو بعد الدعاء مباشرة كاستجابته عزّ وجلّ لدعاء سيدنا نوح- صلّى الله عليه وسلّم-الذي أخبرنا به تعالى في قوله: {فَدَعَا ربّهُ أَنّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ}211.

ويمكن أن تكون الاستجابة مؤجلة إلى بعد فترة قصيرة أو طويلة في الحياة الدنيا وذلك لحكمة يعلمها الله عزّ وجلّ كاستجابته لدعاء سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل- صلّى الله عليهما وسلّم —قال تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإسماعيل ربّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ربّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرّحيم ربّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}212، والله جلّ جلاله يعلمنا بدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يدعو الإنسان بقبول عمله إذا قام به ونيته خالصة لوجه الله تعالى، فلا يكون دعاؤه لمصلحة خاصة أو أن يكون منافقا في حبه لله الخالق، وهو السميع العليم بالنفوس وبالضمائر، كيف لا وهو خالقها عزّ وجلّ، ولا يخفي على الخالق شيء في مخلوقه.

210 غافر 59 . 62.

211 القمر 10 . 12.

212 البقرة 127 . 129.

ويمكن أن تكون الاستجابة مؤجلة ليوم الآخرة كما في قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ}213.

وقد لا يستجيب الله تعالى لدعاء الداعي إذا لم يكن مخلصا في دعائه، ولا موقنا بأن الله هو الوحيد الذي يُسْأل وهو الذي يُنْتَصر به، أو كان إيمانه ضعيفا بالله عزّ وجلّ متزعزع العقيدة أو كافرا، وعدم الإجابة لا يعني عدم السمع في حقّ الله تعالى، ولكن هو سميع لكلّ قول من العباد المؤمن منهم والكافر، المخلص في عبادته والمقصر فيها.

وعلى الخليفة أن يكون سميعا مجيبا لله عزّ وجلّ أولا، فهو الذي مَنَّ عليه بنعمة السمع ونعمة استخلافه في الأرض، فلابدّ أن يكون مجيبا لأوامر الله تعالى بالالتزام بأوامره والانتهاء عن نواهيه، وكذلك عليه أن يكون مجيبا لكلّ من يدعوه أو يطلب منه العون فلا يبخل عليه بتلبية دعوته وتقديم العون له ما لم يكن ذلك فيه معصيةٍ للخليفة المطلق.

وباللزوم اسم السميع في حقّ الله سبحانه وتعالى يستوجب أن يكون هذا الخالق السميع مالكا لكلّ شيء، وهذه الملكية مطلقة كما في قوله عزّ وجلّ: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ}214 ففي

213 المؤمنون، 109 . 111.

214 يونس، 31.

هذه الآية الكريمة وجّه الله جلّ جلاله أنظار الخلق إلى أنه هو الخالق وهذه هي البداية، ثم أنه القادر والمالك لكلّ ما لدينا ومنها السمع والبصر، فهو خالق هذه الحواس ومالكها ولا يملكها ملك جارحة وعين، وإنما ملك قدرة فيهبها لخلقه لأنه سميع بصير يمنحهم ما يسمعون به وما يبصرون، فإذا لم يكن مالكا للبصر والسمع فبأي وسيلة سوف يعطينا ذلك وهذا ما تؤكده الآيتان الكريمتان في قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ ربّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}215، إن الله أنعم على سيدنا سليمان بنعمة السمع الذي يفوق سمع البشر العادي، إذ أنه بواسطة هذه الميزة من الخالق له استطاع أن يسمع ويدرك خوف النملة من جنوده، وهذا يوصلنا إلى الكيفية التي يجب أن يكون عليها الخليفة على الأرض، فالخليفة الحقّ يجب أن يكون سمعه من سمع الله سبحانه وتعالى، وبصره من بصر الله عزّ وجلّ، فهو الذي يجعل حياته للخالق، ويعقد قلبه على ترك مخالفة الله تعالى، وترك معاصيه وأن يلزم الحقّ وأوامر الله عزّ وجلّ.

ونستوحي من بعض الآيات القرآنية الكريمة قربّ الله سبحانه وتعالى بسمعه منا، {قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ ربّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ}216، ولأنّه يعلم ما تكنه الصدور فهو يسمع النجوى منا إنه معنا أينما كنا ولا تخفي

215 النمل، 18، 19.

216 سبأ، 50.

عليه خافية قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}217.

فبتأكيد هذا القربّ من الخالق جلّ جلاله يتأكد لجميع الخلق السمع المطلق له، لأن الخالق موجود في كلّ مكان، وفي كلّ الأوقات والأزمان، فهو أزلي فأين سيهربّ الإنسان من رقابته وسمعه، وهو الرقيب على تصرفاته وأفعاله في الحياة الدنيا، فلا مكان يلجأ إليه دون علم ورقابة المولى عزّ وجلّ. من الممكن أن يختبئ الإنسان من غيره من المخلوقات إذا أراد السوء بجهالة، وأن يدبِّر ما يريد من قول أو فعل بعيدا عن إسماع الخلق، فيظن أن لم يره أحد، ولكنه نسي أن الله سبحانه وتعالى يسمعه ويراقبه وسيحاسبه عاجلا أم آجلا، فالذي لا يتحدث إلا بما يغضب الله عزّ وجلّ، ولا يتفوه إلا بالسوء، والذي يتسبب بجرح النّاس وهو متعمد، والذي يطعن في أعراض النّاس، والذين يسبون من هم أولى بالشكّر والرّحمة، كلّ أولئك يهرولون نحو جهنم، لأنّ الله تعالى هو العادل بحكمه، والرقيب على خلقه، والحسيب يوم تقوم الساعة، والعليم بحقّوق عباده.

السميع المطلق هو الذي يستمع إلى الشيء قبل أن ينطق بما يود أن ينطق به، فعلام الغيوب يعلم بالشيء قبل وقوعه، ولذا فهو المستمع لما سيقال قبل قوله ولهذا فهو الله الواحد القهار جلّ جلاله.

---

217 المجادلة، 7.

وعليه: هل يظن البعض بأنه يعلم الغيب ولا يستمع لما علم به؟، وما الفرق بين علم الغيب والاستماع للشيء قبل أن ينطق؟، وما معنى اللوح المحفوظ؟، وكيف نؤمن بعلمه للسر والنجوى ولا نؤمن بسمعه المطلق لما يُسرَّ ويناجى به؟ وكيف استجاب لسيدنا أيوب بما يريد دون أن يفصح لو لم يكن سميعا عليما؟ وكيف يكون عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وعليم وخبير مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}218 كيف يكون كذلك إن لم يكن سميعا عليما قريبا مجيب الدعاء؟

السمع إحساس، والإحساس بالشيء يأخذ وجهين:

الوجه الأوّل: إحساس مباشر: بالنظر يشاهد وبالأذن يسمع، وبالأنف يُشم، وباللسان يذاق، وباللمس يُميز. قال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كلّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كلّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ ربّك مَكْرُوهًا}219.

الوجه الثاني: إحساس غير مباشر بالعقل يدرك ويتم استقراءه واستنباطه ومن سمات الوجوه يعرف مصداقا لقوله تعالى: {محمّد رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ

218 لقمان 34.

219 الإسراء 36 . 38.

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}220.

فعلى من أراد أن يكون خليفة الله عزّ وجلّ على أرضه يجب أن يعلم أن الله تعالى حاضر أمام عينيه في كلّ وقت، وحاضر في سمعه لأي شيء، وأن يطمع في استجابة المولى له إذا طلب ويثق في الإجابة، لأن الله تعالى هو السميع لعباده والعليم بهم، فتكون نفس الخليفة مطمئنة لحساب ومراقبة الخالق عزّ وجلّ له، ويكون هدفه هو مرضاة خالقه قبل مرضاة الخلق، فيكون سمعه وبصره وعلمه لله الحقّ، وعندها سيكون هذا الخليفة في ظل الرّحمن يوم القيامة، يعفو عنه ويجازيه بالنعيم الدائم.

وكلّ إنسان موجود على الأرض يحتاج لأن يكون سميعا، فالأب يكون سميعا لأبنائه فلا يتجهون إلى أشخاص منحرفين عن الفضائل الإنسانية والقيم الاجتماعية ولذا فرعاية الأبناء من مسؤولية الوالدين وعليهما أن يجعلا البيت هو مكان للنقاش والحوار وطرح المشاكلّ وطرق حلها وفقا لمكارم الخلاق.

وعليه ينبغي أن يراعي الخليفة الدقة في السمع، وألا يخطئ السمع في سماعه لبعض الأمور، وألا يجعل الظن غالبا على سمعه، فليتقِ الله ربّه، وعلى العباد أن يعرفوا إنّ استراق السمع في قضايا خطيرة من شأنها إفساد العلاقات الإنسانية، وتفكيك بناء المجتمع ناهيك على أنها معصية لله سبحانه وتعالى.

وبناء على ذلك فإن تقوى الله خير منقذ من الوقوع في الظن وأن بعض الظن إثم؛ فليتقوا العباد ربّهم فيما أمر به ونهى عنه. وأن

220 الفتح، 29.

يعتمد مكارم الأخلاق في الإصلاح بين العباد وإذا قالوا صدقوا، وإذا عملوا أخلصوا النية وأحسنوا عملا، وإذا حكموا يحكمون بالعدل، وأن يكونوا سميعون طاعة لله وحده، وأن يتقوه في كلّ كبيرة وصغيرة، وأن يحمدوه ويشكّروه على واسع فضله.

ولهذا مطلوبٌ لكلّ ولي أمر أن يكون له السمع والطاعة من رعيته، طبعا على أن لا تكون هذه الطاعة في معصية الله سبحانه وتعالى، وذلك كما جاء في حديث نافع عن عبد الله – رضي الله عنه – عن النبي – صلّى الله عليه وسلّم – قال: "السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ"221 فالرّسول عليه الصّلاة والسّلام له حقّ الولاء والطاعة من المسلمين لما له من مكانة رفيعة وكيف لا وهو الذي يتكلّم بوحي من الله جلّ جلاله وهذا من شأنه أن يوحد الصفوف، فالسمع والطاعة لولي الأمر يقوي بنيان الأفراد وهذا ما وجدناه في صفوف المسلمين في عهد الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – فقد كانوا مستمعين لأوامره في طاعة الله، ولا يخالفونه في شيء لأنه لن يرتضي لهم معصية الخالق عزّ وجلّ.

وبالرغم من ذلك فقد أوضح الرّسول عليه الصّلاة والسّلام أن لا ولاء لأي ولي في معصية الله تعالى، لان السمع والطاعة يكون أولا لله تعالى، فإذا خالف الولي ذلك لم يكن له حقّ الاستماع له والطاعة.

221 صحيح البخاري، ج 22، ص 52.

وفي هذه الحال يفرق هذا الولي غير الكفؤ بين الأفراد لأن هناك من سيتبعه في معصية الله تعالى، وهناك من سيخالفه، وهذا بدوره سيؤدّي إلى ضعف الجماعة وتنازعها الدائم.

وعلى الولي ألا يستغل هذا الولاء في غير مكانه، بل يجب أن يوجه هذا الولاء لخدمة الدين، وعليه أن يتذكر أن السمع والطاعة حتى منه هو إنما لله خالق هذا الكون، ومدبر أمره.

حتى أننا نجد أن الله بالرغم من أمره لنا بطاعة الوالدين، وجعل طاعتهما من طاعته إلا أنه أمرنا بعدم طاعتهما في معصية الله تعالى في قوله الكريم: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}222، وكذلك قوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصّلاة وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كلّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}223.

222 العنكبوت، 8.

223 لقمان، 14 . 19.

كذلك نهى الله سبحانه وتعالى عن استراق السمع، وهي صفة ذميمة لا تؤدّي بصاحبها إلّا للتحقّير، ولا يجوز لأي مخلوق أن يتعدى حدوده التي أعطاها له خالقه، فإن الله تعالى قد جعل لسمعنا حدودا ولحكمة هو مدركها، فكيف نتخطى هذه الحدود الإلهية؟ وحتى استراق السمع ممنوع على كلّ أنواع الخلق من الجن والإنس، لأن السمع المطلق هو ملك لله وحده جلّ جلاله، ولن يكون عقاب من أراد دخول هذه الحدود إلا عذابٌ وويل من الله عزّ وجلّ فقد قال الله تعالى: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كلّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ}224 أي أنه قد يسترق من الشياطين السمع ممّا يحدث في السماء بعضها، فيتبعه شهاب من النّار مبين، يبين أثره فيه، إما بإخباله أي إفساد أعضائه، أو بإحراقه225.

هذا هو عقاب من يسترق السمع ويتجسس على ما لا يعنيه من الأمور، فعلى الخليفة أن يحرص على أن لا يستعمل سمعه فيما لا يعنيه أو فيما يغضب الله الذي استخلفه في الأرض فلا يتتبع عيوب النّاس وعيوبهم وأحوالهم فيكون بذلك قد خرج من نطاقه إلى نطاق السميع المطلق وهذا يؤدّي للمشاركة معه والله لا شريك له. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكلّ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ يَا أَيُّهَا النّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا

224 الحجر، 16 . 18.

225 تفسير الطبري، ج 17، ص 77.

إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}226. علاقة قوية بين ثلاثة:

الأول: الظن الذي هو الإثم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ).

الثاني: التجسس الذي هو استماعك وتنصتك على الغير في غير مرضاة الله وفي غير مرضاة المتجسس عليه.

الثالث: الاغتياب (وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) الاغتياب مثله الله كمن يأكلّ لحم أخيه ميتا وهذا يعني التحريم القاطع (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكلّ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ).

وبما أن الله سبحانه وتعالى رقيب على الخلق بسمعه وبصره وشهيد عليهم، إذن هو عادلٌ في حكمه وقضائه، فدعاؤه مجاب لكلّ خليفة ولكن زمن الإجابة يعلمه وحده لا شريك له فادعوه إنه قريب مجيب، {وَقَالَ ربّكمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاس وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَشكّرُونَ ذَلِكُمُ اللَّهُ ربّكمْ خَالِقُ كلّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ ربّكمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ ربّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ ربّ الْعَالَمِينَ

226 الحجرات 12، 13.

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}227

إنّ الله سبحانه وتعالى يتصرف في كلّ شيء كما يشاء وهو بعباده لطيف خبير، فيخلق العبد وأفعاله الاضطرارية والاختيارية، فقد قال جلّ جلاله في كتابه العزيز: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾228، فهو الذي يوجد ويُعدِم وفقا للحاجة، ويرزق ويمنع وفقا لما يشبع الحاجة، ويُشْقي ويُسْعِد وفقا لما يُقدم من أعمال، وهو الذي يرسل الرّسُل وينزل الكتب وفقا لكلّ أمة، ويدبر الكون كما يشاء لأنه المالك لكلّ شيء بسمعه وبصره وعلمه، يكفي أن يستمع الإنسان إلى صوت الرعد، أو أن يستمع إلى صفير الرياح، لكي يدرك مدى قوّة هذا الخالق ومدى ضعف المخلوق، فالرعد الذي يخترق الآذان الإنسانية، ويثير الرعب في النفس البشرية هذا الصوت يسبح باسم الله عزّ وجلّ، وهذا ما ورد في الآية الكريمة: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾229.

وبما أنّ الله تعالى هو السميع إذن فلا يجب في حقّ الله الصمم وما في معناه، كأن يسمع الجهر دون السر أو أنّ يسمع الأصوات دون الذوات، ولهذا استحالت صفة الصمم في حقّ الله تعالى لأنها من صفات النقص والله عزّ وجلّ منزه عن كلّ نقص أو عيب، لأنه لو اتصف بشيء منها لاحتاج إلى من يدفع عنه هذا النقص أو

227 غافر، 60 . 66.

228 الصافات، 96.

229 الرعد، 13.

يكمله، والإله المطلق جلّ جلاله هو الحقّ الذي لا يحتاج لمن يحقّه، فلو كان سمعه سبحانه وتعالى ناقصا، لما كان عادلا، ولما سمع نجوى القلوب عزّ وجلّ وما يُكن في الصدور.

لذلك الإنسان الأصم حقّا ليس هو الذي فقد نعمة السمع، بل هو الذي أنعم الخالق عليه بنعمة السمع، فكفر بخالقه وسد آذانه وعقله عن سماع صوت الحقّ، فلا يسمع سوى وسوسة شياطين الجن والإنس والعياذ بالله، يركض خلفهم مطيعا لها، لا يوقفه عن كفره وعصيانه اسم الله حين ترتفع به المآذن، ولا يستمع لقول الله عزّ وجلّ يتوعد لمن جحد بنعمة الله له واستغلها في الكفر والمعصية: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كلّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}230 فلا يشترط وجود آذان بشرية لكي يكون الإنسان سميعا للحقّ، يفر بواسطة هذه النعمة من النّار وعذاب الحريق، فالمنافقون والجاحدون لا يصح وصفهم إلا بالصمم.

وكذلك تشبيه الكافرون بالبهيمة التي تسمع الصوت ولكنها لا تفهم معناه، وذلك في قوله عزّ وجلّ: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا

230 البقرة، 17 . 20.

أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النّار وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النّار}231، فللكفار هنا حالتان:

الأولى: حالة الإعراض عن الإسلام.

والثانية: حالة الإقبال على الكفر، وذلك لأنهم فقدوا بكفرهم التمييز، فمن ضمن الفروقات الجلية بين سائر المخلوقات وبين الإنسان هي القدرة على التمييز، سواء كان تمييزا بالصورة أو الصوت، أو حتى بالقلب.

فالتمييز ومركزه العقل، ميزة وهبها الله للإنسان، فقد خلق الله تعالى للبهائم والطيور آذانا لكنّه لم يهبها نعمة التمييز، فإن لم يصل الإنسان إلى التمييز بين الحقّ والباطل فهو فقد ميزة آدميته بالتأكيد، لأنه بالسمع والبصر والكلّام يُرَشِدهم العقل، فإذا حُجِب على كلّ هذه الحواس بحجاب الكفر، فقد الإنسان رشده، فالعقل لا يعمل بلا السمع الحقّ والبصر الحقّ والكلّام الحقّ "فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعق بها راعيها، أي: دعاها إلى ما يرشدها، لا تفقه ما يقول ولا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط"232.

---

231 البقرة، 171 . 175.

232 تفسير ابن كثير، ج 1، ص 480.

وفي صورة ثانية للكافرين قال الله تعالى في كتابه العزيز: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ}[233] أي أن الذين يكذبون بحجج الخالق عزّ وجلّ وأدلته صمٌ عن سماع الحقّ بكم عن القول به، وبهذا يكونون قد عُدِموا الانتفاع بأسماعهم وأبصارهم، فلهم أبصار وأسماع لا يوجهونها إلى التأمل فيما خلق الله تعالى، وفيما يسمعون من آيات الله عزّ وجلّ المنزلة على رسله، ومن أخبار التاريخ الدالة على سننه في خلقه.

فإن كان الإنسان يسعى لأن يكون خليفة الله في أرضه، لا يجب أن يكون أصما عن الحقّ بالرغم من وجود نعمة السمع لديه، بل يكون سميعا بقدر الإمكان البشري الذي منحه الله لنا لأوامر خالقه، مستخدما سمعه في البحث عن كلّ ما هو خفي في كلّ ما حوله، مظهرا لأسرار جديدة كامنة فيما حولنا، فعندها يكون سمعه في خدمة علمه وعلمه في خدمة خالقه، وبهذا يكون قد استحقّ أن يكون خليفة الله تعالى في أرضه، حتى ولو كان الله قد خلقه أصما

233 الأنعام، 39 . 44.

يستطيع أن يسمع بقلبه وعقله، ويستطيع أن ينجز أكثر ممن لديهم نعمة السمع دون فائدة، إذا توكلّ على الله وجعله في قلبه فسيكون الله بالتالي سمعه الذي سيغنيه عن كلّ من حوله، والدليل على هذا نجد بعضا من أصحاب العاهات روادا في مجالات عديدة، لم تمنعهم فقدانهم لنعمة من النعم من أن ينجزوا ما لم ينجزه الأصحاء، فلا يمنع الإنسان أن يبدع إذا كان أصما أو أعمى أو غيرها، فلا يشترط إذن أن يكون الخليفة كامل الحواس فالكمال لله وحده، فمن الممكن أن يكون فاقدا لحاسة من الحواس، لكن الله سبحانه وتعالى سيعوضه بما هو خير، إذا أخلص في نيته لله تعالى وتوجه له فقط دون غيره، أو حتى إذا كان لديه نقص معين في حاسة مثل ضعف في النظر أو السمع، فبإمكانه أن يكون كامل السمع إذا أراد الإنسان، فلا فرق عند الله سبحانه وتعالى بين صحيح وعليل، حتى أن الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – عوتب في ابن أم مكتوم وقد كان أعمى، وذلك كما جاء في قوله تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى}234.

ونرى أن الله عزّ وجلّ وجه العديد من الكلّام وخصه للذين يسمعون، وهذا دليل على ما للسمع من أهمية في تمييز الحقّ والباطل، وفي ذلك قوله عزّ وجلّ: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}235، وكذلك قوله تعالى: {وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}236، أي أن الله تعالى ربّط بين آياته ودلائلها والإيمان بها بالسمع

234 عبس، 1 . 4.

235 يونس، 67.

236 النحل، 65.

البشري، والسمع هو الذي يؤدّي إلى الإيمان بالخالق عزّ وجلّ، والسمع الذي يكون لكلّام الله تعالى فقط دون سواه، الأقوام التي تسمع هذه الآيات فتعقلها وتتدبرها أولئك هم الذين يعمرون الأرض.

والمؤمن الصادق هو الذي يصون أذنه عن سماع اللغو والباطل، كما جاء في قوله تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}237.

إذن قد فرق القرآن بين الذين يتمتعون بالسمع كحاسة فقط، وبين الذين يتمتعون بالسمع كتدبر وفهم واستيعاب للأمور بعقل سليم، فالنوع الأول قد جعل الله تعالى سمعهم وكأنه صمم، أما النوع الثاني فقد جعل الله تعالى سمعهم إدراكا وتدبرا.

والنوع الثاني هو الذي يجب أن ينتمي إليه خليفة الله عزّ وجلّ في أرضه، الذي يجعل من سمعه وسيلة للطاعة، كما أراد الخالق عزّ وجلّ عندما قرن الطاعة بالسمع في قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسمعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}238، فقد قرن الخالق جلّ جلاله بين السمع والطاعة وهذا هو السمع الحقّ.

وعلى خليفة الله تعالى في أرضه أن يصبر فالصبر مفتاح الفرج، وأن يكون على يقين أن الله سبحانه وتعالى معه، مادام هو مع الله.

وعلى الخليفة أن يقرن سمعه بالطاعة لله عزّ وجلّ لكي يحظى بالاستجابة، فبهذا يكون قد وجَّه نعمة الله تعالى عليه إلى الله عزّ

237 القصص، 55.

238 التغابن، 16.

وجلّ، وذلك كما جاء في قوله جلّ جلاله: {آمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ ربّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كلّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ ربّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}239.

والسميع جل شأنه إنما هو محيط بمخلوقاته إحاطة مطلقة بجميع حركاتها وسكناتها، فهو جلّ جلاله قريب لا من حيث الزّمان والمكان، سميع لا بآلة ولا بأداة، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلّى الله عليه وسلّم في سفرٍ، فكنا إذا أشرفنا على وادٍ هللنا وكبرنا وارتفعت أصواتنا، فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: "يا أيّها النّاس أربّعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا. إنّه معكم، إنّه سميعٌ قريبٌ"240 فالله تعالى سميع بصير بعباده وجميع مخلوقاته، إنّه يسمع ويرى، فلا يغيب عن سمعه مسموع وإن خفي. ولا يغيب عن رؤيته مرئي وإن دق. ولا يحجب سمعه بُعد المكان ولا يدفع رؤيته شدة ظلام. فكما يرى من غير حدقة وأجفان، فإنّه يسمع من غير أصمخة وآذان كما يعلم بغير قلب ويبطش بغير جارحة ويخلق بغير آلة إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق. ولهذا كان السميع العليم متفردا بصفة السميع المغايرة لما يسمعه المخلوقون، إذ أنّ الكلّام المسموع يحتاج إلى أدواته السمعية التي توصله إلى من يسمعه، وهذه الأدوات السمعية مشتركة بين الداخل والخارج، فالداخل ما يمتلكه السامع من أداة ـ أي سامع أنّسان أو غيره ـ من الأذن الخارجية والوسطى والداخلية وما تضم بينها من أدوات أخرى كالصماخ والتجويف

239 البقرة 285.

240 رياض الصالحين، ج 1، ص 120

وطبلة الأذن والمطرقة التي تتعاون فيما بينها لتحويل الذبذبات الخارجية إلى أصوات مفهومة من الكلّام الذي يحلله الدماغ إلى ما اختزن من معانٍ معرفية، وأما الخارج فهو الفضاء والهواء وما تحدثه الأصوات من ترددات تنتقل سرعة وبطئا حسب شدة الصوت، وبتعاون الأدوات الداخلية والخارجية تحدث لنا سماع الأصوات نحن المخلوقين. أما الخالق عزّ وجلّ فإن سمعه لابدّ أن يكون مغايرا لسمعنا بالضرورة، إذ لا يستوي الخالق والمخلوق في أي شيء، فكيف يكون الله تعالى سميعا؟

والجواب على ذلك يكون من منطلق الكلّام الذي يفترض أنه مسموع من قبل السامع، فالله سبحانه وتعالى كلّم موسى تكلّيما، فكما أن كلّام الله لا يشبه كلّام الخلق، فكذلك سمعه لا يشبه سماع الخلق، لأن موسى صلّى الله عليه وسلّم: "سمع كلّام الله بغير صوت ولا حرف، كما يرى الأبرار ذات الله تعالى في الآخرة من غير جوهر ولا عرض. وإذا كانت له هذه الصفات كان "حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا متكلّما بالحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلّام لا بمجرد الذات"241. فإذا كان موسى عليه الصّلاة والسّلام سمع كلّام الله تعالى بغير صوت ولا حرف فهذا يعني خروج عن سنة الله في خلقه بمشيئة الله، إذ ما ينبغي للأعلى أن يتصف بصفات الأدنى، لذلك فإن الله تعالى ترفع بموسى عليه الصّلاة والسّلام عن السنة الكونية في طبيعة البشر إلى مرتبة أعلى حتى يتسنى له أن يسمع كلّام الله تعالى، وهذا دليل على أن صفات الله تعالى وأفعاله بغير عين ولا جارحة، فقد قال تعالى: {وَكَلَّمَ اللَّهُ

241 إحياء علوم الدين 1،97

مُوسَى تَكلِّيمًا}242، ومع ذلك فقد كان كلّام الله تعالى لنبيه موسى عليه الصّلاة والسّلام على قدر استطاعة تحمله لكلّامه تعالى، ولم يكن كلّاما مباشرا كما يكلّم أحدنا الآخر في عملية الحديث والمواجهة، لأن موسى عليه الصّلاة والسّلام: "لما أتى طور سيناء انزل الله الظلمة على سبع فراسخ وطرد عنه الشيطان وطرد عنه الهوام ونحى عنه الملكين وكشف له السماء فرأى الملائكة قياما في الهواء ورأى العرش بارزا وكلّمه الله وناجاه حتى أسمعه كلّامه من غير واسطة وكيفية وصوت وحرف"243 فالله سبحانه على ما نعتقد أسمع موسى عليه الصّلاة والسّلام كلّامه بالطريقة التي شاء بها الخالق عزّ وجلّ أن يسمعه، لأن جميع العلماء على رأي واحد في هذا الأمر، أنّ كلّام الله تعالى لموسى عليه الصّلاة والسّلام من غير كيف ولا واسطة ولا حرف ولا صوت، وهو مصداق لقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}244 فهذه الآية دليل على أن الله تعالى ما ينبغي له أن يكلّم بشرا كفاحا إلا من وراء حجاب، فمن ذلك الكلّام إلهام إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في نومه أنه يذبح ابنه، وكذلك ألهم أم موسى عليه الصّلاة والسّلام أن تقذفه في التابوت ثم تقذفه في اليمّ، أو من وراء حجاب مثلما كلّم موسى عليه الصّلاة والسّلام دون أن يراه حيث قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكلَّمَهُ ربّهُ قَالَ ربّ أَرِنِي أنظر إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ أنظر إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى ربّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ

---

242 النساء 164

243 تفسير حقّي، ج 3، ص 154

244 الشورى 51

قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}245 فكلّام الله تعالى سمعه موسى عليه الصّلاة والسّلام بطريقة مغايرة عن سماعه في الطبيعة الإنسانية، "وما صح لأحد من البشر أن يُكلّمه الله إلا وحيا بالإلقاء في القلب إلهاما، أو مناما، أو بإسماع الكلّام الإلهي دون أن يرى السامع من يكلّمه، أو بإرسال ملك يرى صورته، ويسمع صوته ليوحي بإذن الله ما يشاء، إن الله قاهر فلا يمانع، بالغ الحكمة في تصرفاته وتدبيره"246 وعلى هذا فإن الله تعالى سميع لا نقول بهذه الكيفية التي كلّم بها نبيه عليه الصّلاة والسّلام، وإنما هو سميع بفعل الكينونة ولا نبحث في طريقة السمع أو كيفيتها، ولكن طالما أن الله تعالى أحاط بكلّ شيء علما فقد دخل السمع ضمن الإحاطة الإلهية لأعمال خلقه.

إنّ الله سبحانه وتعالى وصف نفسه بأنّه سميع بصير لا يغيب عنه شيء في السموات ولا في الأرض ممّا تكنه هواجس مخلوقاته أو خفايا ضمائرهم وما يراودهم من الوهم أو التفكير، ولا يعزب عن سمعه صوت دبيب النملة على الأرض، ولا طنين النحلة في الهواء، ولا انسياب الحيتان في أعماق الماء، فهو جلّ جلاله سميع بصير لأنه متصف بصفات الكمال، والسمع والبصر من كمال صفات الله تعالى، فهو السميع مطلقا بدليل آيات خلقه التي تتصف بالسمع المتفاوت فيما بينها سواء على صعيد النوع أو على صعيد الجنس، لأن المخلوقات التي تمتاز بالسمع هي ثلاثة أنواع: فنوع سامع ناطق، ونوع سامع صائت ونوع سامع ساكت، وهذه الأنواع سمعها متفاوت ومتباين فيما بين الأنواع حدة وبعدا وقربًا، فالإنسان سامع

245 الأعراف 143

246 النخب، ج 2، ص 350

ناطق وهو صاحب عقل مميز، لذلك كان سمعه موازيا لعقله على قدر حاجته للسمع الواعي، لذلك كان سمعه أدنى درجات المخلوقات السامعة، لأنّ العقل بتمييزه عوضه عن شدة الحاجة إلى درجة عالية من السمع، فأخذ نصيبه منه على قدر حاجته وفق ما قدره السميع العليم، وأمّا النوع الثاني فهو السامع الصائت من الحيوان والطير، حيث كانت حاجتها إلى درجة أعلى من السمع أكثر من حاجة العاقل لعدم التمييز، فكان لديها استشعار الخطر عن طريق السمع، فإن اعتمادها عليه أكثر، لذلك كانت الحاجة إليه أشد، ومن هنا نرى الفرس مثلا أشد سماعا من الإنسان على مستوى النوع لأنه غير مميز، وكذلك أشد سماعا من الأسد على مستوى الجنس لأنه يفتقد وسائل الدفاع عن النفس إلا ما أعطي من شدة الجري، فكانت حدة سمعه إحدى وسائل الدفاع. أما المخلوقات السامعة الساكتة فإنها تتصف بحدة السمع أكثر من جميع الأنواع لأنها تكاد تكون بالنسبة لها وسيلة الاتصال الوحيدة من جهة وكذلك وسيلة دفاع من جهة أخرى لأنها تعرف من خلالها مكامن الخطر، فالحيتان مثلا تتلقى أصوات بعضها البعض عن بعد آلاف الأميال، إضافة إلى ذلك فإن التفاوت في السمع بين كلّ جنس من الأجناس لا يخفي على ذوي الاختصاص في هذا المجال، من الإنسان إلى الطير والوحوش والحيوانات البرية والمائية، ونريد أن نخلص من هذا التقديم إلى أن الخالق السميع البصير الذي أعطى كلّ شيء خلقه، وما يحتاج إليه في شؤون حياته، أعطاه ذلك على أحسن وجه من حيث كمال المخلوق، ونقصد بذلك ما نحن بصدده، ألا وهو السمع. فإذا كانت مخلوقات السميع لها هذه الخواص من حيث السميع، فلابدّ أن الخالق عزّ وجلّ له من صفة الكمال كونه سميعا، ما يترفع به عن مخلوقاته من الكيف والأداة،

ولذلك كان النقص في السمع لبعض الخلق عن البعض الآخر مدعاة لصفة الكمال في الخالق بصرف النظر عن الكيف والصوت والأداة، وإنّما برهان ذلك يكون من خلال آيات الخالق السامعة، إذ محال أن يكون الخالق يتصف بصفة المخلوق وإن كانت الصفة مشتركة، فقد امتاز السميع عزّ وجلّ بنفي الكيف والأداة والزّمان والمكان، لذلك قال إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كما جاء في محكم التنزيل قوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا}247 فخرج من ذلك كلّ سامع وكلّ مبصر غير السميع البصير، فدعوة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لأبيه بترك عبادة الأوثان كانت بالابتعاد عن عبادة ما لا يسمع ولا يبصر، فلم يفهم أبوه أنه يريد أن يحوله إلى معبود آخر يسمع ويبصر من ذوات الأرواح، وإنما هي دعوة لعبادة السميع المطلق الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

والسميع جلّ جلاله هو الذي يسمع خلقه ما يريد منهم وما يأمرهم به وما ينهاهم عنه فقد جاء في قوله تعالى: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كلّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كلّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسم اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكلّوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ}248 فالأذان من إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام والله السميع هو الذي اسمع عباده نداء التوحيد من أجل تلبية الله تعالى: "رُوي أن إبراهيم عليه السلام لما

---

247 مريم 41، 42

248 الحج 27. 29

فرغ من بناء البيت قال الله تعالى له: أذن في النّاس بالحج قال يا ربّ: وما يبلغ صوتي، قال تعالى: عليك الأذان وعليَّ البلاغ فصعد إبراهيم الصفا فادخل إصبعيه في أذنيه واقبل بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربّا وقال أيها النّاس ألا إن ربّكم قد بنى بيتا وكتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربّكم وحجوا بيته الحرام ليثيبكم به الجنّة ويجيركم من النّار، فسمعه أهل ما بين السماء والأرض، فأجابوه من ظهور الآباء وبطون الأمهات في عالم الأرواح، فما بقي شيء سمع صوته إلا أقبل يقول لبيك اللهم لبيك"249.

فالله سبحانه وتعالى هو السميع المطلق، فقد أمر الخليفة أن يؤذن بالنّاس ليسمعهم ما أوجب الله عليهم، حيث أن التبليغ يكون عن طريق السماع بالنسبة للبشر، ويكون ذلك مدعاة للفهم والوعي، لأن السميع العليم جعل السمع شاهدا على العقل والقلب والفؤاد حيث قال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كلّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}250 فلا يتبع الإنسان ما لا علم له به من قول أو فعل، فلا يقول: سمع، وهو لم يسمع، أو علم، وهو لم يعلم، فإن نِعَمَ السمع والبصر والقلب يسأل صاحبها عما يفعل بكلّ منها يوم القيامة.

فالسامع يجب عليه أن لا يتبع كلّ ما يسمعه ويقف أثره ممّا ليس له به علم من المسموعات التي ربّما تؤدّي به إلى التهلكة من قول ينتج عنه فعل، كمن يتبع مسلكا لا يدري أنه يوصل إلى مقصده حسب اعتقاده ممّا يظن أنه فيه خير له فيرجح ظنه باعتقاده، لأن الاعتقاد الراجح في حكم الاعتقاد الجازم، والجزم من

249 تفسير حقّي، ج 8، ص 395

250 الإسراء 36

غير دليل عن طريق السمع لا يوصل إلى اليقين، لذلك وجب التبصر فيما يسمع، ولما كان السمع هو الأداة التي تهيئ للجوارح ما تقوم به من أفعال، كانت هذه الجوارح مسؤولة عن أحوالها وشاهدة على أصحابها، ومن هنا جاء المنع من إتباع كلّ ما يسمعه المرء، أو النهي عن إتباع كلّ ما فيه جهل ممّا يتعلق بالسمع والبصر والقلب، خاصة وأن القلب هو الذي يقلّب حديث السمع على وجوهه حتى يميز بين الخبيث والطيب، لذلك قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}251، وحيث أنّ السمع هو أداة التوصيل إلى الوعي، إذ أن الإصغاء مدعاة للفهم، والفهم هو إدراك معنى ما يسمعه السامع، وما يترتب على هذا الإدراك من نتائج إمّا أن توصل السامع إلى الحكمة، وهي درجة الأنبياء والخلفاء والأولياء الذين يقومون بما كلّفوا به من إسماع ما أمر به السميع المطلق إلى بقية الخلق، فقد قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}252 ومدار الحكمة أصلا قائم على السمع، لذلك فإن السميع المطلق هو حكيم جلّ جلاله، وهذا الترابط والتلازم بين السمع والحكمة يكون هبة للخلفية من الله تعالى بحيث يجب أن يتجلى ذلك في تطبيق ما أُمر به الخليفة من أجل الوصول إلى النتائج المترتبة على السمع والحكمة ممّا يؤدّي إلى إعمار الأرض وإصلاح النّاس، فقد أُمر الخليفة بهذا من السميع المطلق بقوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ ربّك بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ ربّك هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ

---

251 الحج 46.

252 البقرة 269

بِالْمُهْتَدِينَ}253 وهنا يقوم الخليفة بدوره في الدعوة إلى طريق الحقّ الذي شرعه السميع المطلق من أجل إسماع الخلق وصولا إلى الهداية، ويسلك الخليفة وهو السميع بالإضافة في إسماع النّاس ودعوتهم، الطريق الذي يناسب كلّ واحد منهم من خلال ما أوتي من الحكمة، فيسمع أصحاب العقول النيّرة والمدارك العالية، القول الحكيم المناسب لقولهم، ويدعو من هم أقل من ذلك وعيا بما يناسبهم من إيراد المواعظ، ويضربّ الأمثال التي توجههم إلى الحقّ، وترشدهم من أقربّ طريق مناسب لهم، وكذلك يسمعهم عن طريق الجدل والحوار بالمنطق السليم والقول اللين، والمجادلة الحسنة التي لا يشوبها عنف ولا سِبَاب حتى يتمكن من إقناعهم واستمالتهم وصولا إلى قلوبهم وأفئدتهم، وهذا هو الطريق الذي يسلكه السميع بالإضافة لدعوة النّاس إلى السميع المطلق على اختلاف ميولهم، والإسماع عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة هو السبيل الذي يقيم الحجّة، وترك أمرهم بعد ذلك إلى اختيار عقولهم التي تميز الخبيث من الطيب، والشر من الخير.

فالأمر هو دعوة الخلق إلى سبيل السميع الحكيم بالحكمة وهي أعلى درجات الفعل المتزن الذي يتصف صاحبه بالهدوء وسعة الصدر وصفاء القلب ونقاء السريرة وهذا هو الخليفة الذي يدعو بما سمع من السميع المطلق لهؤلاء الذين يريدهم الله أن يكونوا خلفاء في الأرض، فيترفع بهم السميع بالإضافة عن الطباع التي لا تليق بمن يشاء الله له أن يكون خليفة في أرضه، والوصول إلى هذه الدرجة له سبيل واحدة هي السمع، ولكن نوعية السمع للوصول إلى الترفع والتسامي الذي يميز العاقل عن غيره هو إسماع العقل والقلب واليقين

253 النحل 125.

عن طريق أداة السمع، فهنا يمتاز العاقل من غير العاقل، ونقصد به الثقلين من الجن والإنس، لذلك نراهم كما قال تعالى: {فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ}254 فالذين سمعوا الخليفة عند ما دعاهم بالحكمة والموعظة الحسنة هم الذين آمنوا لأن السمع أثر في قلوبهم وأفئدتهم وصدورهم، وأمّا الذين كفروا فهم الذين سمعوا أيضا ما سمعه الذين آمنوا، ولكن الحكمة والموعظة الحسنة التي سمعوها لم تتجاوز أذنهم، أي أداة السمع التي يتوصل بها إلى يقين القلب وتسامي الروح وانسجام النفس مع الفضائل بمعنى أن تلك الحكمة لم تصل إلى قلوبهم وهو مصداق لقوله تعالى: {فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) وهنا يجب أن نشير إلى مسألة دقيقة يختلط بها السمع بالبصر ويجب أن نميز بينهما ففي الآية الكريمة جاء ذكر البصر بمعنى السمع، وهو بصر السمع أنّ صح التعبير، أي إن كان للبصر سمع فهذا هو المشار إليه، ذلك أن الصور المشاهدة عن طريق أداة البصر التي هي العين، إنما هي رؤية سواء في اليقظة أم في المنام حيث قال تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}255 وكذلك قوله تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأنظر}256 فهذا النوع من الرؤية انعدمت فيه الأداة، وأما الصور التي تأتي عن طريق الأداة ونقصد هنا المشاهدة العينية، فلم يقترن معها في القرآن الكريم قلوب أو صدور أو أفئدة، وهذا يدل على تخصيص المشاهدة العينية للصور المادية وهو كثير في القرآن الكريم كقوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ

254 البقرة 253

255 يوسف 4

256 الصافات 102

الزَّارِعُونَ}257 وكذلك قوله تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحقّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِربّك أَنَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}258، وكذلك قوله تعالى: {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ ربّهِ الْكُبْرَى}259 من وهنا يتضح لنا الأمر في استخدام اللفظ على الدلالة لذلك نعود فنقول أن بصر السمع مقترن بالوعي المتأتي عن طريق التفكر فيما يسمعه السامع، فقوله تعالى: {وما تعمى الأبصار) فهو عمى عن السماع لأن القلوب لا ترى الرؤية المادية للصورة المشخصة، وإنما ترسم صورة متخيلة من خلال السماع عن طريق الوعي الذي يدفعها إلى القلب الذي يشكلّ الصورة، وتشكّيل الصورة عن طريق السمع تتعلق بأحد جانبين لا ثالث لهما، وهما جانب الخير وجانب الشر، وكلّاهما مرتبط بالقيم الأخلاقية التي يتمتع بها السامع، لأن الأخلاق جزء من تكوين الإنسان وهو الجزء المهم على ما نعتقد، لأن هذه القيم الأخلاقية إنما تكونت لدى الإنسان عن طريق السمع أكثر من بقية الحواس الأخرى، ذلك أن الإنسان منذ نعومة أظفاره إلى أجله وهو يسمع الأحاديث والقصص وتجاربّ الآخرين، وأما الأفعال فهي نتيجة تقليد لما سمعه أو محاولة تجريب شخصية وهذا نادر جدا، فمعنى ذلك أن الأخلاق بشقيها إنما هي جاءته عن طريق السمع، فالشق الأول هو القيم الفاضلة، والشق الثاني هو قيم الرذيلة المتدنية، وكلّاهما يندرج تحت الأخلاق، إذ أن الكذب والسرقة والزنا هي من القيم الأخلاقية، وكذلك الصدق والأمانة والعفة هي قيم أخلاقية أيضا، ولكن الصدق والأمانة والعفة تندرج تحت الأجزاء العليا المتسامية من

257 الواقعة 6364

258 فصلت 53.

259 النجم 18

الفضائل في الأخلاق، بينما يكون الكذب والسرقة والزنا ينتمي إلى الأجزاء المتدنية في الرذائل من الأخلاق، وبما أن القيم الأخلاقية بصرف النظر عن نوعها سواء أكان مبدؤها عن طريق السمع ثم تأتي بعد ذلك محاولة التقليد أو التجريب للأفعال ومن ثم تكون سمة للشخص الممّارس لهذه القيم التي يتصف بها بعد ذلك، فيؤدّي السمع بذلك إلى أحد أمرين يتصف من يحمل هذه الصفات بتلك الأخلاق التي تتشعب إلى جانبين، فالقيم الأخلاقية السفلى وهي المتدنية تندرج تحت باب الشر، والقيم الأخلاقية السامية العليا ترتفع إلى مستويات الخير، وكلّاهما قيم أخلاقية يكتسبها الإنسان عن طريق السمع، ولكن اختياره هو الذي يجعله من أصحاب القيم الفاضلة السامية وبذلك يكون خيرا، أو من أصحاب القيم الرذيلة المتدنية بحيث يكون شريرا، فالذي سلك مسلك الخير من خلال ما سمع، فقد استوعب الحكمة والموعظة الحسنة التي تجعله مهيئا لأن يكون خليفة، والذي سلك مسلك الشر فقد ضل ضلالا بعيدا، فهو كالأنعام أو أضل سبيلا.

إن درجات السمع وأحوالها وطرقها مختلفة ومتفاوتة ومتباينة بين السميع المطلق والسميع بالإضافة وسماع بقية الخلق من البشر، فالسميع المطلق جلّ جلاله لا يمكن أن نقول إلا أنه ينعدم في طريقة سماعه الكيف والصوت والحرف والزّمان والمكان فهو خالق الخلق وهو بكلّ شيء عليم حيث قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[260] فالذي خلق السموات

[260] الحديد 4

والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استولى على العرش بتدبير ملكه وإحكام شؤون هذا الملك والخلق، فهو بالضرورة يعلم كلّ ما تضمه الأرض وما يخرج منها، وكلّ ما ينزل من السماء وما يعرج فيها، لذلك فهو عليم محيط بشؤون خلقه، وبما أنه عليم فهو سميع بصير، فقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه ما من شيء إلا يسبح بحمده حيث قال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}261 ومن هذه الآية نقف على دليلين مهمين فيما نحن بصدده من السميع المطلق، الدليل الأول: أن التسبيح لا يكون إلا للأحياء، ومعنى ذلك أن كلّ شيء يسبح بحمده، وطالما أنه يسبح فهو حي بصرف النظر عن كلّ نوع من حياة المخلوقات المختلفة من الأحياء العاقلة كالملائكة والجن والإنس، والأحياء الأخرى من الحيوان والنبات، ومن المخلوقات التي نطلق عليها نحن اسم الجماد، ولكنها تسبح بحمد ربّها بحياة لا نعلمها، والدليل الثاني: أن الذي أخبر أنها تسبح فهو يسمع تسبيحها، ولو لم يسمع تسبيحها لما أخبر بذلك لأنه غني عن هذا التسبيح، وإعلامنا بذلك هو إخبار على أنه سميع.

وسماع السميع المطلق جلّ جلاله أخبر الخلق بأنّه سميع لكلّ شيء، ولكن لا يطلعهم على ذلك إلا بقدر معلوم في وقت مخصوص وبطرق مختلفة، فالسميع المطلق يسمع كلّ ما يصدر عن خلقه من أقوال، ويرى جميع ما يقومون به من أعمال، ويكون الإخبار به بأوقات متفاوتة وطرق مختلفة، فأقوال العباد التي يحاسبون عليها في الثواب والعقاب يسمعها السميع العليم ولكن مشيئته

261 الإسراء 44

اقتضت إخبارهم بها في اليوم الآخر حيث قال تعالى: {يَوْمَ تَجِدُ كلّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}262 وأمّا ما يخص أحوال النّاس في دينهم ودنياهم من الأسئلة التي كانت تطرح على الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، فيكون الرد على سماعها بطريق الوحي، حيث نجد جميع الأسئلة التي وجّهت للرسول عليه الصّلاة والسّلام، كان يأتي بها الوحي بفعل الأمر (قل) إلا سؤالا واحدا سنتكلّم عليه لاحقًا. فالسميع المطلق يسمع كلّ ما في الوجود، ونلاحظ أن الأسئلة الكثيرة التي كانت توجّه للرسول عليه الصّلاة والسّلام، ممّا جاء في قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ}263 وقوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ}264 وكذلك قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}265 ومثله قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا}266 وكذلك: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ}267 وكذلك قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ ربِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ}268 وكذلك قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ

---

262 آل عمران 30

263 البقرة 189

264 البقرة 215

265 البقرة 217

266 البقرة 219

267 المائدة 4

268 الأعراف 187

الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرّسول فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ}269 فجميع هذه الأسئلة وأمثالها التي سمعها السميع العليم، كانت الإجابة عنها بطريق الوحي للرسول عليه الصّلاة والسّلام بتكلّيفه بالإجابة لما سمعه الله منهم، بأمره أن يقول ويجيب عما يسألون عنه، وأمّا السؤال الوحيد الذي تولى السميع المجيب بنفسه الإجابة عنه فهو في قوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}270 فهنا لأنّ الأمر مختلف فقد تولى السميع الإجابة بنفسه ليدلل على أنه سميع وسريع الإجابة لمن يدعوه، ولأنّ الدعاء لا يكون إلا لله والرجاء لا يكون منه، فكان ذلك منطقيا بسرعة السمع التي يترتب عليها سرعة الإجابة فهو مطلع على العباد، عليم بما يأتون وما يذرون وما يبتغون من الله السميع من فضل ورحمة، فهو قريب من عباده بحيث يعلم ما يخفون وما يعلنون، وما يسرون وما يجهرون، ولم تكن الإجابة هنا بالفعل (قل) وإنما تولى السميع المطلق الإجابة المباشرة: إني أقربّ إليهم ممّا يظنون، ودليل ذلك أن دعوة الداعي تصل في حينها، وهو الذي يجيبها في حينها كذلك، وإذا كان السميع استجاب لهم، فليستجيبوا هم أيضا بالإيمان والطاعة فإن ذلك سبيل إرشادهم وسدادهم.

إنّ الدّعاء ومناجاة الله السميع أنّه لا يجيبك كما تناديه أو تدعوه، وإنما يعرف المخلوق أن الخالق قد سمع نداءه من خلال النتائج المترتبة على الدعاء أو النداء حيث قال تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى ربّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا

---

269 الأنفال 1

270 البقرة 186

مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ} 271 فنبي الله أيوب عليه الصّلاة والسّلام دعا ربّه حين أضْنَاه المرض فقال: يا ربّ إني قد أصابني الضرر في المال والولد، وآلمني المرض، وأنت أرحم الراحمين، فلم تكن إجابة السميع جلّ جلاله كلّاما، وإنّما أجابه إلى ما كان يرجوه بطرق الفعل المغيّر لواقع الحال، فرفع عنه الضُّر بأن ردّ عليه عافيته، وأعطاه أموالا وأولادا بقدر مَنْ مات من أولاده وما هلك من أمواله، ثم زاده على ذلك رحمة من السميع، وهذا النوع من السماع هو سماع رحمة من الله تعالى بكشف الضر والمصيبة النازلة، وأما سماع التأييد فيتضح ممّا أوحى به الله تعالى لموسى وهارون عليهما الصّلاة والسّلام في قوله تعالى: {قَالَ ربِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ قَالَ كلّا فَاذْهَبَا بِآَيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ} 272 فالله سبحانه منزه عن أن يكون مستمعا، ولكن المعنى سامعون لما يجري بينكما وبين فرعون فأظهركما عليه، وهو من باب تأييد الخليفة وإظهاره على الأعداء مبالغة وهذا السماع من جهة الحفظ والتأييد، فالله سبحانه وتعالى سميع يسمع المضطر إذا دعاه وهو المجيب جلّ جلاله.

ومثال ذلك: ما حكاه القرآن من قصة سليمان صلّى الله عليه وسلّم وبلقيس، قال سليمان: {أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّن الْجِنِّ أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَاذَا مِن فَضْلِ

271 الأنبياء 83، 84

272 الشعراء 12 . 15

ربِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشكُرُ أَمْ أَكْفُرُ}273 فبيْنَ قوله: {قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ وقوله: {رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ} كلّام يقتضيه سياق القصة، كأن نقول: فأذِن له فذهب وأتى بالعرش، لكن جاء الأسلوب سريعا ليتناسب مع سرعة الحدث في إحضار عرش بلقيس من مكانه.

وقوله: (إِنَّا نُبَشِّرُكَ) البشارة: هي الإخبار بما يسرُّك قبل أن يجيء ليستطيل أمدَ الفرح بالشيء السَّار، وقد يُبشرك مُساويك ويكذب في البُشْرى، وقد تأتي الظروف والأحداث مُخالفة لما يظنه، فكيف بك إذا بشّرك الله تعالى؟ ساعة أن تكون البشارة من الله فاعلم أنها حقّ وواقعٌ لا شكّ فيه274.

إنّ من بين الأرزاق التي وزعها الله تبارك وتعالى بين الخليقة هي الذرية، إذ يقول تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عليم قَدِيرٌ}275، فكان نصيب زكريا صلّى الله عليه وسلّم هو عدم الإنجاب، فاستمر به العمر إلى أن أصبح شيخا كبيرا، وتقدم العمر لا يعني شيئا له إلا من باب استمرار دعوة الخلق إلى عبادة الله تعالى، فبدأ يعرض أمره إلى الله ذي الجلال والإكرام، قال تعالى: {ذِكْرُ رَحْمَةِ ربّك عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى ربّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ ربّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ ربّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ

---

273 - النمل 38 – 40.

274 - تفسير الشعراوي، ج 1، ص 5507.

275 - الشورى 49 - 50

يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ ربّ رَضِيًّا}276 بدأ زكريا صلّى الله عليه وسلّم بعرض حاله لله تعالى، فبدأ بضعف العظم الذي هو عماد البدن، ثم بعد ذلك الشيب لأنه دليل على الكبر والضعف وعلامة من علامات نهاية الإنسان، فزكريا صلّى الله عليه وسلّم هنا يطرق باب التوسل إلى الله تعالى من خلال عرض ضعفه وعجزه، وهذا من أحب الوسائل إلى الله تبارك وتعالى، لأنّه يدل على التبرؤ من الحول والقوّة، وتعلق القلب بحول الله وقوته.

إنّ طلب الذكر هنا دون الأنثى ليس لأمر دنيوي، إنّما القصد هو مصلحة للدين، أما امرأته فهي عاقر أي لا تلد أصلا، وهو في عمر يندر معه وجود الشهوة أو طلب الولد، أما الولاية التي أرادها في دعائه فهي ولاية الدين وميراث النبوّة والعلم والعمل، ولهذا قال: (يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ ربّ رَضِيًّا) فكانت الإجابة من الله العظيم الجليل بقوله: {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسمهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا}277 بشره الله تعالى على يد الملائكة بـ(يحيى) وسماه الله له (يحيى) وكان اسمه موافقا لمسماه: يحيا حياة حسية، ويحيا حياة معنوية، وهي حياة القلب والروح، بالوحي والعلم والدين. هذه كرامة من كرامات البارئ عزّ وجلّ التي تنم عن قدرته العظيمة في تغيير الأمور من حال إلى حال آخر أفضل، وذلك فضل منه ومنّة على عباده، ولم تكن هذه الكرامة هي الوحيدة في هذا الجانب بل كانت كذلك مع إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، إذ يقول تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ

276 - مريم 2- 6

277 - مريم 7

وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوب قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بعلي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عليكم أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ}278 والكرامة برزق الأنبياء بالأولاد من دواعي استمرار الدعوة الإسلامية وفق تسلسل ينطوي على حكمة البارئ عزّ وجلّ.

4 – عبد:

قال تعالى: {ذِكْرُ رَحْمَتِ ربّك عَبْدَهُ زَكَرِيَّا}279.

إن العبودية للخَلْق مهانة ومذلَّة، وهي كلّمة بشعة لا تُقبل، أما العبودية لله تعالى فهي عِزٌّ وشرف، بل مُنتهَى العِزّ والشرف والكرامة، وعللنا ذلك بأن العبودية التي تسوء وتُحزِن هي عبودية العبد لسيد يأخذ خيره، أما العبودية لله تعالى فيأخذ العبد خير سيده.

لكن، ما نوع الرّحمة التي تجلى الله تعالى بها حين أخبر رسوله صلّى الله عليه وسلّم بخبر عبده زكريا؟

قالوا: لأنّها رحمة تتعلق بطلاقة القدرة في الكون، وطلاقة القدرة في أن الله تبارك وتعالى خلق للمسبِّبات أسبابا، ثم قال للأسباب: أنت لست فاعلة بذاتك، ولكن بإرادتي وقدرتي، فإذا أردتُك ألاَّ تفعلي أبطلْتُ عملك، وإذا كنت لا تنهضين بالخير وحدك فأنا أجعلك تنهضين به.

---

278 – هود 69 – 73

279 – مريم 2.

ومن ذلك ما حدث في قصة خليل الله إبراهيم حين ألقاه الكفار في النّار، ولم يكن حظ الله بإطفاء النّار عن إبراهيم، أو بجَعْل النّار بَرْدا وسلاما على إبراهيم أن يُنجي إبراهيم؛ لأنه كان من الممكن ألاَّ يُمكِّنَ خصوم إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم من القبض عليه، أو يُنزِل مطرا يُطفئ ما أوقدوه من نار، لكن ليست نكاية القوم في هذا، فلو أفلتَ إبراهيم من قبضتهم، أو نزل المطر فأطفأ النّار لقالوا: لو كُنَّا تمكنّا منه لفعلنا كذا وكذا، ولو لم ينزل المطر لفعلنا به كذا وكذا.

إذن: شاءت إرادة الله أنْ تكيد هؤلاء، وأن تُظهِر لهم طلاقة القدرة الإلهية فتُمكّنهم من إبراهيم حتى يلقوه في النّار فعلا، ثم يأتي الأمر الأعلى من الخالق سبحانه للنار أن تتعطل فيها خاصية الإحراق: {قُلْنَا يا نار كُونِي بَرْدا وسلاما على إِبْرَاهِيمَ}280.

وكذلك في قصة رحمة الله لعبده زكريا تعطينا دليلا على طلاقة القدرة في مسألة الخَلْق، وليلفتنا إلى أن الخالق سبحانه جعل للكون أسبابا، فمَنْ أخذ بالأسباب يصل إلى المسبِّب، ولكن إياكم أنْ تُفتَنوا في الأسباب؛ لأن الخالق سبحانه قد يعطيكم بالأسباب، وقد يُلغيها نهائيا ويأتي بالمسبِّبات دون أسباب.

وقد تجلَّتْ طلاقة القدرة في قصة بَدْء الخَلْق، فنحن نعلم أن جمهرة النّاس وتكاثرهم يتم عن طريق التزاوج بين رجل وامرأة، إلا أن طلاقة القدرة لا تتوقف عند هذه الأسباب والخالق سبحانه يُدير خلقه على كلّ أوجه الخَلْق، فيأتي آدم دون ذكر أو أنثى، ويخلق حواء من ذكر دون أنثى، ويخلق عيسى من أنثى بدون ذكر.

---

280 - الأنبياء 69.

فالقدرة الإلهية إذن غير مُقيَّدة بالأسباب، وتظلّ طلاقة القدرة هذه في الخَلْق إلى أنْ تقومَ الساعة، فنرى الرجل والمرأة زوجين، لكن لا يتم بينهما الإنجاب وتتعطل فيهما الأسباب حتى لا نعتمد على الأسباب وننسى المسبِّب سبحانه، فهو القائل: {لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانا وَإِنَاثا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيما إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}281.

وطلاقة القدرة في قصة زكريا صلّى الله عليه وسلّم تتجلى في أنّ الله تعالى استجاب لدعاء زكريا في أنْ يرزقَه الولد282.

العبد هو الطائع المهتدي للتي هي أحسن، ولأنّه عبد فله معبود يعبده واحد أحد دون أن يشرك به أحدا.

وعلى المستوى الإيماني فالإنسان لا يعبد إلا الله عزّ وجلّ، وعلى المستوى غير الإيماني البعض يشرك بالله المعبود الواحد الأحد، والبعض الآخر يكفر به، وفي كلّا الحالتين لا ربّ بالمطلق إلا الخالق المطلق الذي يستوجب العبادة وإن أشرك وكفر من أشرك وكفر، فهو الله جلّ جلاله.

ولأنّ المتيقِّنين يدركونه واحد أحدا؛ فهم لا يلتجئون في دعائهم وسؤالهم وطلبهم مباشرة إلا إليه، ولذا فمن آمن بأنه عبد الله.

---

281 - الشورى 49 – 50.

282 - تفسير الشعراوي، ج 1، ص 5500.

5- موهوب:

قال تعالى: {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ربّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}283

(وهب) في أَسماءِ الله تعالى الوَهَّابُ الهِبةُ العَطِيَّة الخاليةُ عن الأَعْواضِ والأَغْراضِ فإِذا كَثُرَتْ سُمِّي صاحِبُها وَهَّابا وهو من أَبنية المبالغة غيره الوَهَّابُ من صفاتِ الله المنعِمُ على العباد واللهُ تعالى الوهَّابُ الواهِبُ وكلّ ما وُهِبَ لك من ولَد وغيره فهو مَوهُوبٌ والوَهُوبُ الرجلُ الكثيرُ الهِباتِ ابن سيده وَهَبَ لك الشيءَ يَهَبُه وَهْبا ووَهَبا بالتحريك وهِبَةً والاسم الموهِبُ والموهِبةُ بكسر الهاءِ فيهما.284

قال تعالى: {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ربّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}285

هذه الآية تمثل صورة من صور الدعاء، والدعاء هو العبادة، وهنا ندخل في قضية مهمة وهي آداب الدعاء وأسباب الاستجابة، فلنتعرف على آداب الدعاء وأسباب الإجابة:

1- النية الخالصة في طاعة الله تعالى.

2. الإخلاص في طاعة الله قولا وعملا.

3- الجزم في الدعاء واليقين بالإجابة.

---

283 - الأنبياء 89 – 90.

284 - لسان العربّ، ج 1، ص 803.

285 - الأنبياء 89 - 90

4- الإلحاح في الدعاء وعدم الاستعجال.

5 – الدعاء في الرخاء والشدة.

6- لا يسأل إلا الله وحده.

7 – الاعتراف بالذنب والاستغفار منه والاعتراف بالنعمة وشكّر الله عليها.

8 – التضرع والخشوع والرغبة والرهبة.

9 . التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وعليك بمعرفة أن لكلّ صفة من صفات الله وأسمائه التي لا تحصى استجابة فادعوه بالصفة التي هي ذات علاقة بالموضوع الذي تدعو إليه.

10 – أن يكون الداعي طعامه ومشربّه وملبسه حلال.

11 – أن يكون مصلحا في الأرض.

12 – أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

13 – الابتعاد عن جميع المعاصي286.

فبعد التعرف على آداب الدعاء وأسباب الاستجابة نعود إلى دعاء زكريا عليه الصّلاة والسّلام ونحلله وفق ما ذكر من آداب الدعاء وأسباب الإجابة، نجد أن النص القرآني علل سبب الاستجابة بقوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} هنا أثنى الله تعالى عليهم، فقد كانوا يبادرون إلى الخيرات ويفعلونها في أوقاتها ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها، إلا انتهزوا الفرصة

286 – الدعاء ويليه العلاج بالرقى الكتاب والسنة، ج 1، ص 4

فيها، وكان سؤالهم في الأمور المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة، ويرهبون غضب الله تعالى، وكانوا خاضعين متذللين لله تعالى.

بداية يخطر تساؤل على الذهن وهو لماذا قال: وهبنا له؟

ولم يقل:

. أعطيناه.

. منحناه.

إن كلّ كلّمة من هذه الكلّمات تعطي معنى معين غير مترادف وإن اشتركت جميعها في الأخذ والامتلاك، ولكن هذا الأخذ والامتلاك والعطية إمّا أن يكون:

جزئيا

أو كلّيا

أو مؤقتا

أو دائما

أمّا المنح فهو أخذ الشيء إلى أجل للانتفاع به ثم رده بعد ذلك فقد جاء في لسان العربّ: "المنحة مردودة والعارية مؤداة والمنحة أيضا تكون في الأرض يمنح الرجل آخر أرضا ليزرعها"287.

287 - لسان العربّ، ج 2، ص 607

وأمّا العطاء فلا يصح إلا لشيء مادي يتم فيه التناول والتداول "وقد أعطاه الشيء وعطوت الشيء تناولته باليد والمعاطاة المناولة"288.

وأمّا الوهب فإنه لا يتقيد بأجل أو زمان أو مكان ولا يكون جزاء عمل أو فضيلة سبقت من الموهوب له، لذلك فالوهب هو: "الهبة العطية الخالية عن الأعواض والأغراض فإذا كثرت سمي صاحبها وهّابا"289.

لم يكن طلب زكريا الهبة من الله تعالى من أجل الدنيا فهذا لا ينبغي لنبي أو رسول، وإنما من أجل تبليغ الرسالة ونشر الدعوة التي كلّفه الله بها، إذ أنه من المعلوم أن الله تعالى اصطفي رسله وأنبياءه، وما ينبغي لنبي أو رسول مصطفي أن يخرج عن ناموس الاصطفاء في أنّ هؤلاء المصطفين قد اختصهم الله تعالى لتبليغ البشر الرسالة السماوية. والرسالة السماوية لا تقوم على طلب الدنيا، وهذا يعني أن وهب يحي لزكريا صلّى الله عليهما وسلّم، هو من أجل الآخرة لما فيه خير النّاس وصلاحهم وهدايتهم إلى طريق الرشاد وسبل الهدى، فكان هبة من أجل الآخرة وليس من أجل الدنيا، لأنه معلوم أن الدنيا عند الله مذمومة وذلك أنّها:

. ليست غاية المؤمنين.

. مدعاة للفتنة واللهو.

. أبعد ما يكون عنها الصالحون.

---

288 – لسان العربّ، ج 15، ص 68

289 – لسان العربّ، ج 1، ص 803

. ما ينبغي لنبي أن يكون دعاؤه من أجل الدنيا.

إنّ الهبة من مخلوق لمخلوق إنما يكون عمادها والقصد منها ومبتغاها غالبا ما ينصب على الدنيا ومباهجها وذلك أنه يدخلها أشياء كثيرة من الطمع الإنساني مثل:

. حب المفاخرة.

. غريزة حب التملك.

. الميل إلى الغنى والثراء.

. التمتع بمباهج الدنيا وملذاتها.

. التكاثر في الأموال والأولاد.

هذه الأمور تغري الموهوب بالتوسع والزيادة في أسباب الكسب حلاله وحرامه، فلا يبالي بأكلّ أموال النّاس بالباطل من ربّا وسرقة وغصب واختلاس وغش ونحو ذلك إلا ما رحم ربّي، وهذا يترتب عليه حب التسلط والتعالي والتعاظم فيستكبر ويتجبر على الخلق ويحقّرهم ويسخر منهم، وقد يكون الوهب من مخلوق إلى مخلوق من أهم الأسباب التي تدفع بالنفس الإنسانية إلى الاستزادة من أنواع ما وهب بصرف النظر عن الطرق التي يستحوذ عليها ممّا تشتهيه نفسه فيلجأ إلى:

. الغصب.

. هضم الحقّوق.

. السطوة.

. إضاعة حقّوق الله تعالى.

أمّا الهبة من الله تعالى لنبي من أنبيائه فهي تختلف عن هبة مخلوق لمخلوق لأنه قائمة على:

. أداء حقّوق الله تعالى.

. أداء حقّوق الخلق.

. ترتيب منازل الخلق.

. إقامة حدود الله والمحافظة عليها.

. تعظيم شعائر الله.

. إظهار عبادته.

. لزوم طاعته.

. تبليغ رسالته.

يترتب على ذلك تحقّيق الوعود في أنه يعلم ما لا يعلم أحد من خلقه حسب ما صرّح بذلك لملائكته فقال تعالى: {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}290.

ولذلك، يخرج طلب زكريا صلّى الله عليه وسلّم من أن يكون سؤاله طلب الدنيا لذاتها، لأنّ الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم أزهد خلق الله فيها.

ولذا، نجد الغاية التي يحرض عليها القرآن الكريم دائما هي شكّر النعم التي أنعم الله تعالى بها على عباده، إن الغاية الإلهية ومراد الله تعالى لخلقه أنّ الإنسان لا يحتاج إلا إلى الله تعالى لما وهب لخلقه

290 - البقرة 30

من نعم على تفاوت هذه النعم بين إنسان وآخر، ولكنهم جميعهم يملكون على قدر حاجتهم بما علِمه الله تعالى فقدّره لهم، وأراد للإنسان أن يكون غنيا:

. بالبدن.

. بالنفس.

. بالروح.

أمّا علاقة الأسماء الحسنى بالدعاء فنلتمس ذلك في دعاء زكريا عليه الصّلاة والسّلام، فقد أختار اسما من أسماء الله الحسنى يتعلق بمضمون دعائه، وهو اسم (الوارث) (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ربّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) ومن الآية فإنّ جملة (وأنت خير الوارثين) ثناء لتمهيد الإجابة، أي: أنت الوارث الحقّ فاقض عليّ من صفتك العلية شيئا291؛ فزكريا عليه الصّلاة والسّلام فكَّر في أمر الدعوة ومن يقم مقامه في نصح العباد وتوجيههم نحو الله تعالى، فالدعوة تحتاج إلى استمرار، وهذا الاستمرار يتضمن البقاء، فقوله: {وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} أي: خير الباقين، فذكر صفة من صفات الله عند سؤاله إعطاء ما هو من جنسها، وهذا الأمر تحقّق أيضا للنبي أيوب عليه الصّلاة والسّلام بعد أن مسه الضر، يقول تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}292. وهذا الأمر لا يقتصر على الأنبياء بل يشمل كلّ الخلق، يعنى: أنّ أسماء الله الحسنى تتردد بين ثنيات دعاء

291 – التحرير والتنوير، ج 9، ص 201

292 – الأنبياء 83، 84

الخلق فيقع الاختيار عليها وفق النقص الحاصل لديهم، فالمحتاج للرأفة والرّحمة يكون في دعائه (الرّحمن – الرّحيم – الفتاح – اللطيف – الرّءوف – الودود) والمحتاج للهبة والعطاء يكون في دعائه (الوهاب – البر – الكريم – الواسع) وكذلك بقية أسماء الله الحسنى.

والخليفة يتسم بطبائع عديدة ومن بين هذه الطبائع السعي المتواصل بتحصيل كثير ممّا يرى فيه تحقّيق حاجة في النفس، أو مطلب من مطالب الحياة، من الأمور المادية أو المعنوية، العاجلة أو الآجلة، بوصفه نفسا إنسانية، إذ يقول تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ ربّك ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا}293 ولما كان تحقّيق ما ترجوه هذه النفس مرتبطا بالواقع بقضاء الله تعالى وقدرته ومرهونا بإرادة الله تعالى وقدرته، ولا يتم إلا بعطائه وهبته، فهنا لابدّ من التوجه إلى الله تعالى، فهو الربّ المتفضل على عباده بالعطاء، وهو الذي يحقّق ما يريدون، قال تعالى: {وَقَالَ ربّكمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاس وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَشكّرُونَ}294.

وحظ الخليفة من اسم الله تعالى (الوهاب) أن يتخلق بشيء ممّا يدل عليه قدر استطاعته، في الحدود والمقاييس البشرية، فيكون وهابا كريما، واسع العطاء ممّا تفضل الله تعالى عليه من مال أو جاه، وذلك بالبذل السخي في أبواب البر التي حضّته على البذل فيها شريعة الله تعالى.

---

293 - الكهف 46

294 - غافر 60، 61

واسم (الوهاب جلّ جلاله) في حقّ الله تعالى يدل على البذل الشامل، والعطاء الدائم بغير مكلّف ولا عرض ولا عوض، وكلّ من يعطي سواه فإنما يعطي بعوض أو عرض في الدنيا، أو في الدين عاجلا أم أجلا، فإذا لا يصور الهبة ولا يصح الوهاب إلا في الله وحده، لأن الهبات قدر منه سبحانه على عباده في دنياهم وآخرتهم دون انقطاع ولا نفاد بل في نماء وازدياد، من ذلك قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كلّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}295 هذه صورة من صور النماء التي بينها الله تبارك وتعالى لعباده، هذا بيان للمضاعفة التي ذكرها الله في قوله (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) وهنا قال: (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله) أي: في طاعته ومرضاته، وأولاها إنفاقها في الجهاد في سبيله (كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبلة مائة حبة) وهذا إحضار لصورة المضاعفة بهذا المثل، الذي كان العبد يشاهده ببصره فيشاهد هذه المضاعفة ببصيرته، فيقوى شاهد الإيمان مع شاهد العيان، فتنقاد النفس مذعنة للأنفاق سامحة بها مؤملة لهذه المضاعفة الجزيلة والمنة الجليلة، (والله يضاعف) هذه المضاعفة (لمن يشاء) أي: بحسب حال المنفق وإخلاصه وصدقه وبحسب حال النفقة وحلها ونفعها ووقوعها موقعها، ويحتمل أن يكون (والله يضاعف) أكثر من هذه المضاعفة (لمن يشاء) فيعطيهم أجرهم بغير حساب (والله واسع) الفضل، واسع العطاء، لا ينقصه نائل ولا يخفيه سائل، فلا يتوهم المنفق أن تلك المضاعفة فيها نوع مبالغة، لأنّ الله تعالى لا يتعاظمه شيء، ولا ينقصه العطاء على

295 - البقرة 261

كثرته، ومع هذا فهو (عليم) بمن يستحقّ هذه المضاعفة ومن لا يستحقّها، فيضع المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته296.

وموهوب اسم مفعول تدل على من وقع عليه الوهب، كما تدل على أن هناك واهبا جعل من الموهوب موهوبا بعد هباته له التي لم تكن لولا وهبه هو بداية.

والموهوب معلوم ذاتا وهبة، والواهب ليس مجهولا لأنّه لا واهب سواه بالمطلق جلّ جلاله وتقدست أسماؤه سبحانه المسئول هبة في كلّ لمحة ونفس.

سأل زكريا عليه الصّلاة والسّلام الذرية الطيّبة لأنّها التي يرجى منها خير الدنيا والآخرة بحصول الآثار الصالحة النافعة. ومشاهدةُ خوارق العادات خوّلت لزكريا الدعاء بما هو من الخوارق، أو من المستبعدات، لأنّه رأى نفسه غير بعيد عن عناية الله تعالى، لا سيما في زمن الفيض أو مكانه، فلا يعد دعاؤه بذلك تجاوزا لحدود الأدب مع الله على نحو ما قرّره القرافي في الفرق بين ما يجوز من الدعاء وما لا يجوز. وسميع هنا معنى مجيب297.

وطلب الوهب سنة الأنبياء من قبل زكريا ومن بعده وكذلك دأب الصالحين والمؤمنين، إذ يقول تعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا ربّهُ قَالَ ربّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ

296 - تفسير السعدي، ج 1، ص 112

297 - التحرير والتنوير، ج 3، ص 95.

وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}298

فبانعدام الذرية بأسبابها المعلومة لا تنعدم حينئذ أسباب الهبة من الذرية الطيبة الموهوبة إذا دعا الموهوب طالبا الهبة من الوهاب (الله).

ونقول: إنّ كلّ ذرية هي وهب بأسبابها المعلومة أو الموهوبة لأنّ الأسباب المعلومة للذرية ما هي في حد ذاتها إلا هبة من الله الواهب مصداقا لقوله تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}299؛ فالوهب عطاء بلا أسباب، والجعل بقاء على الأسباب وإن لم تتحقّق أسباب الجعل بقي المجعول على أصله لأنّه لا يملك من الأسباب شيئا.

إنّ المتأمل في قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ}300.

فالمني من الأسباب ولكن السبب لا يخلق لأنه مخلوق، والذي يعلم هذا يعود إلى خالق السبب لا إلى السبب مصداقا لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا

298- آل عمران 38 – 40

299 – الشورى 49 – 51

300 – الواقعة 58، 59

خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ ربِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا} 301.

وقول سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام: و{ربّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} 302.

ونتساءل:

ما الهبة؟

وهل هناك من فرق بين هبة الخالق وبين هبة المخلوق؟

وهل المخلوق يملك هبة في الأساس؟

وهل من علاقة بين التبرع والهبة؟

الهبة لغة وشرعا وتعريفا:

الهبة في اللغة "التبرّع، وفي الشرع تمليك العين بلا عوض" 303

ونقول:

هذا التعريف اللغوي يتسق والدلالة البشرية، أمّا في العرف الربّاني فإن الله لا يتبرّع بل يهب، لأن التبرع فعل من يخشى على باقي ما تبرع به.

أمّا الواهب فهو يعطي بلا حساب لأنّه خالق الموهوب والموهوب له وكلّاهما هبة منه فهو العزيز الوهاب.

301- الفرقان 74 - 77

302 - الصافات 100، 101

303 - التعريفات – الجرجاني، ج 1، ص 319

وينتفي في حقّه العوض لأنه الغني بذاته المغني لغيره.

فهل الغني المغني يحتاج إلى عوض أو يأتي في فكر من يعبده العوض ولو على سبيل الفكر دون إظهاره.

الوهب بالمطلق لا يكون إلا من الوهّاب جلّ جلاله ومع أنّ الواهب بالمطلق هو واحد أحد إلا أن الموهوبات منه تتعدد وتتنوع في غير محدودية لأنّه على كلّ شيء قدير.

والهبة هي عطاء الواهب بطريق الإنعام والتفضل على سبيل التكريم وليس بمعنى العِوض والجزاء الموافق لأعمال الموهوب له لأن ذلك ما يتناسب مع الوهب الإلهي، أما ما هو على سبيل العوض فهو يتناسب مع الجانب الإنساني ويتنافى مع قدرة الوهاب جلّ جلاله.

وأمّا الوهب فإنه لا يتقيد بأجل أو زمان أو مكان ولا يكون جزاء عمل أو فضيلة سبقت من الموهوب له لذلك فالوهب هو "العطية الخالية عن الأعواض والأغراض فإذا كثرت سمي صاحبها وهابا"304.

وهذه الصفة وهابا لا تنطبق بأية حال من الأحوال إلا على الله الذي قال في كتابه عن نعمه على جميع خلقه بلا استثناء: {وَآتَاكُمْ مِنْ كلّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}305.

---

304 - لسان العربّ، ج 1، ص 803.

305 - إبراهيم 34

6. صالح:

قال تعالى: {وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كلّ مِنَ الصَّالِحِينَ}306، هذه الآية الكريمة ذكرت ضمن سياق قرآني تعرض لعدد من الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، إذ يقول تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ ربّك حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كلّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كلّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكلّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}307، الحقّ سبحانه وتعالى لم يجعل من الأنبياء ملوكا إلا اثنين: داود وسليمان حتى يعطينا فكرة أن الله إذا أراد أن يقهر خلقا على شيء لا يقدر عليه أحد يبعث مَلِكا رسولا؛ لأنّ الملِك لا يقدر عليه عبد لأنَّ القدرة معه، والمجتمع أنّداك كان في حاجة إلى ملك يدير أمره ويضبط شأنه، وسبحانه لا يريد الإيمان بالقوّة والخوف والرهبة إنما يريده بالاختيار، ولذلك جعل أغلب الأنبياء ليسوا ملوكا.

وفي الحديث (نبيا يجعلك أم عبدا رسولا)؛ فاختار أن يكون عبدا رسولا؛ لأنّ الملك يأتي بسلطانه وبماله، وقد يطغى.

وأراد الحقّ أن يكون سليمان وداود من الأنبياء وهما ملكان، وتتمثل فيهما القدرة وسعة الملك والسلطان. أمّا أيوب فقد أخذ زاوية أخرى من الزوايا وهي الابتلاء والصبر مع النبوّة، وكلّ نبي فيه

306 - الأنعام 85.

307 - الأنعام 83 – 86.

قدر مشترك من النبوّة، وفيه تميّز شخصي. وكذلك يوسف أخذ الابتلاء أولا، ثم أخذ الملك والسلطان في النهاية. وموسى وهارون أخذ شهرة الاتْبَاع، ونكاد لا نعرف من الأديان إلا اليهودية والنصرانية، أما زكريا ويحي وعيسى وإلياس فقد أخذوا ملكة الزهد.

وأمّا إسماعيل واليسع ويونس ولوطا فقد أخذوا ما زخرت به حياتهم من عظيم الفعال وكريم الخصال والسلوك القويم والقدوة الطيبة وبقي لهم الذكر الحسن 308.

وقوله تعالى: (مّنَ الصالحين) أي: الكاملين في الصلاح الذي هو عبارة عن الإتيان بما ينبغي والتحرز عما لا ينبغي وهو مقول بالتشكّيك فيوصف بما هو من أعلى مراتب الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام والجملة اعتراض جيء بها للثناء عليهم بمضمونها309.

الصالح هو الذي لا يَقدم على عملٍ إلا وفيه صلاح للعباد، ولذلك فالمصلح قوله حقّ وفعله حقّ، وهو الذي لا يظلم أحدا، وهو الذي يعمل في الأرض من أجل صلاحها ولا يفسد فيها ولا يسفك الدماء بغير حقّ.

سأل زكريا عليه الصّلاة والسّلام الذرية الطيّبة لأنّها التي يرجى منها خير الدنيا والآخرة بحصول الآثار الصالحة النافعة. ومشاهدةُ خوارق العادات خوّلت لزكريا الدعاء بما هو من الخوارق، أو من المستبعدات، لأنّه رأى نفسه غير بعيد عن عناية الله تعالى، لا سيما في زمن الفيض أو مكانه، فلا يعد دعاؤه بذلك تجاوزا لحدود الأدب

308 - تفسير الشعراوي، ج 1، ص 2624.

309 - تفسير الألوسي، ج 4، ص 417.

مع الله على نحو ما قرّره القرافي في الفرق بين ما يجوز من الدعاء وما لا يجوز. وسميع هنا معنى مجيب 310.

وإصلاح الشيء (لغة) هو إزالة التلف أو الضرر عنه وجلب المنفعة والسّلامة إليه. وإذا كان الفساد هو التلف والعطب في الأمور والخلل والضرر والانحلال في المجتمع؛ فإن الصلاح هو الاستقامة والسّلامة من العيوب وزوال العداوة والخصومة والشقاق، والتخفيف من حدة الصراع فيه. لقد ورد المصطلحان (الفساد والإصلاح) في القرآن الكريم في عشرات المواضع من الآيات القرآنية.

إنّ الصالح هو من يكون موّفقا في حياته ومماته ويوم بعثه فيكون لمن بعده أسوة حسنة لمن يريد اتعاظا.

العمل الصالح هو الذي يكون في مرضاة الله تعالى، والعمل غير الصالح هو العمل الفاسد الذي لا يُرضي الله عزّ وجلّ.

والصلاح ما ليس بفساد وهو لا يكون إلا على الهداية والطاعة التامة لله ربّ العالمين.

والصالح هو المصلح في ذاته من ذات الله تعالى، فهو الذي خُلق في أحسن تقويم وكان من المستخلفين في الأرض ليعمل صالحا يرضاه الخالق جلّ جلاله، فالمصلح هو من يَصلُح للحياتين ويرث فيهما خيرا كثير، قال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كلّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا

310 - تفسير التحرير والتنوير، ج 3، ص 94.

قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}311.

ولأنّ زكريا من الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم فهو بدون شكّ من الصالحين الذين هُم رفيعي الدرجات في مرضاة الله وطاعته وحُسن خَلقه وخُلقه، قال تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آَتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ ربّك حَكِيمٌ عَلِيمٌ ووَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كلّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كلّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكلّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ}312.

الصالح هو من يُسهم في إصلاح لمفاسد الآخرين، والصالح هو من لا يؤمن إلا بما هو خير وفي مرضاة الله وهو الذي لا يؤمن أن يكون على غير ذلك قولا وعملا، ولهذا يتوجّه بالعمل الصالح للآخرين ليُسهِمَ في إصلاح أحوالهم لأنه في ذاته مصلحا والله تعالى جعله على الصلاح، ولهذا لم يكن هدفه من إصلاح الآخرين أو الإصلاح من اجلهم ليكون صالحا، فالصلاح بالنسبة له لا يعد مطلبا يرجوه بل الصلاح هو صفة له ويتصف به قولا وعملا وفعلا وسلوكا، ولذا فهو لا يعمل إلا صالحا، قال تعالى: {وَمَا كَانَ ربّك لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ}313، وعندما يكون أهل الأرض (سكانها) يصلحون أحوالهم ولا يفسدون فيها ولا يسفكون

311- البقرة 25.
312- الأنعام 83 . 86.
313 - هود 117.

الدماء بغير حقّ يتصفون بصفة الإصلاح الذي هو من الإعمار والبناء وسيادة الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة بين أهلها وسكانها.

الإصلاح أنواع ويتشكلّ الإصلاح بمقصد أصحابه فإما أن يكون إصلاحا حقّيقيا فتتلاشى التناقضات وتصحح الأوضاع وتستقيم الأمور، أو أن يكون إصلاحا مزعوما هدفه تجميل الصورة أمام النّاس فتوضع الرتوش واللمسات الزخرفية ببعض الإجراءات والتغييرات السطحية، وهذا لا يمنح أي تغيير ممّا يكسب الصورة الماضية بقاء أكثر، فيمنحها استمرارية جديدة لم يكن لها أن تستمر، والصلاح ينشد التغيير الذي يغير الأمور من جذورها ويرميها إلى الوراء ولا يعود إليها مهما كان وتحت أي ظرف من الظروف.

7. كافل:

قال تعالى: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}314.

الكافِل العائِل كَفَله يَكْفُله وكَفَّله إِيّاه وفي التنزيل العزيز وكَفَلَها زكريا وقد قرئت بالتثقيل ونصب زكريّا وذكر الأَخفش أنه قرئ وكَفِلَها زكريا بكسر الفاء وفي الحديث أَنه وكافل اليتيم كهاتَيْن في الجنّة له ولغيره والكافِل القائم بأَمر اليتيم المربّي له وهو من الكفيل الضمين والضمير في له ولغيره راجع إِلى الكافِل أَي أَن اليتيم سواء كان الكافِل من ذَوِي رحمه وأَنسابه أَو كان أَجنبيّا لغيره تكفَّل به وقوله كهاتين إِشارة إِلى إِصبعيه السبَّابة والوسطى ومنه الحديث

314 - آل عمران 37.

الرَّابُّ كافِلٌ الرَّابُّ زوج أُمِّ اليتيم لأَنه يكفُل تربّيته ويقوم بأَمره مع أُمه وفي حديث وَفْد هَوازِن وأَنت خير المِكْفُولين يعني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أَي خير من كُفِل في صغره وأُرْضِعَ وربِّيَ حتى نشأَ وكان مُسْتَرْضَعا في بني سعد بن بكر والكافِل والكَفِيل الضامن والأُنثى كَفِيل أَيضا وجمع الكافِل كُفَّل وجمع الكَفيل كُفَلاء وقد يقال للجمع كَفِيل كما قيل في الجمع صَدِيق وكَفَّلها زكريا أَي ضمَّنها إِياه حتى تكفَّل بحضانتها ومن قرأَ وكَفَلَها زكريا فالمعنى ضمِن القيام بأَمرها وكَفَل المال وبالمال ضَمِنه وكَفَل بالرجل.315

قال تعالى: {إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ ربّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ ربّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَتَقَبَّلَهَا ربّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كلّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}316.

ثم قال الله تعالى: (وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا) وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: يقال: كفل يكفل كفالة وكفلا فهو كافل، وهو الذي ينفق على إنسان ويهتم بإصلاح مصالحه، وفي الحديث (أنا وكافل اليتيم كهاتين) وقال الله تعالى: (أَكْفِلْنِيهَا).

---

315 – لسان العربّ، ج 11، ص 588.

316 – آل عمران 35 – 37.

المسألة الثانية: قرأ عاصم وحمزة والكسائي (وكفلها) بالتشديد، ثم اختلفوا في زكريا فقرأ عاصم بالمد، وقرأ حمزة والكسائي بالقصر على معنى ضمها الله تعالى إلى زكريا، فمن قرأ (زكريا) بالمد أظهر النصب ومن قرأ بالقصر كان في محل النصب والباقون قرأوا بالمد والرفع على معنى ضمها زكريا إلى نفسه، وهو الاختيار، لأنّ هذا مناسب لقوله تعالى: (أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ) وعليه الأكثر، وعن ابن كثير في رواية (كفلها) بكسر الفاء، وأما القصر والمد في زكريا فهما لغتان، كالهيجاء والهيجا، وقرأ مجاهد (فَتَقَبَّلَهَا ربّهَا وَأَنبَتَهَا وَكَفَّلَهَا) على لفظ الأمر في الأفعال الثلاثة، ونصب {ربّهَا} كأنها كانت تدعو الله فقالت: اقبلها يا ربّها، وأنبتها يا ربّها، واجعل زكريا كافلا لها317.

إنّ قوله الحقّ: (وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا) فهذا يعني: أنّ المسألة جاءت من أعلى، إنه الربّ الذي تقبل بقبول حسن، وهو الذي أنبتها نباتا حسنا. إذن، فرعاية زكريا لها إنما جاءت بأمر من الله. والدليل على ما حدث عند كفالة مريم. لقد اجتمع كبار القوم رغبة في كفالتها وأجروا بينهم قرعة من أجل ذلك. وساعة تجد قرعة، أو إسهاما. فالنّاس تكون قد خرجت من مراداتها المختلفة إلى مراد الله. فعندما نختلف على شيء فإننا نجري قرعة، ويخصص سهم لكلّ مشترك فيها، ونرى بعد ذلك من الذي يخرج سهمه، ويلجأ النّاس لهذا الأمر؛ ليمنعوا هوى البشر عن التدخل في الاختيار، ويصبح الأمر خارجا عن مراد البشر إلى مراد الله سبحانه وتعالى، وهذا ما حدث عند كفالة زكريا لمريم. ولذلك فالحقّ يقول لسيدنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: {ذلِكَ مِنْ أَنبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ

317 – تفسير الرازي، ج 4، ص 187.

لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ}318، إذن فالكفالة لمريم أخذت لها ضجة، وهذا دليل على أنهم اتفقوا على إجراء قرعة بالنسبة لكفالتها، ولا يمكن أن يكونوا قد ذهبوا إلى هذه القرعة إلا إذا كان قد حدث تنازع بينهم، عن أيهم يكفل مريم.

وكلّمة (أقلامهم) قال فيها المفسرون: إنها القداح التي كانوا يصنعونها قديما، أو الأقلام التي كتبوا بها التوراة، فرموها في البحر، فمن طفا قلمه لم يأخذ رعاية مريم، ومن غرق قلمه في البحر فهو الذي فاز بكفالة مريم. إذن فهم قد خرجوا عن مراداتهم إلى مراد الله.

والخروج عن المرادات، والخروج عن الأهواء بجسم ليس له اختيار كقداح القرعة لا يوجد في النفس غضاضة. لكن لو كان هناك من سيأخذ رعاية مريم بالقوّة والغضب فلابدّ أن يجد نفوس الآخرين وقد امتلأت بالمرارة أو الغصب. ولذلك فقد كان سائدا في ذلك العصر عملية إجراء السهام إذا ما خافوا أن يقع الظلم على أحد أو أن يساء الظن بأحد، وهناك قصة سيدنا يونس عندما قاربّت السفينة على الغرق، وكان لابدّ لإنقاذها أن ينزل واحد إلى البحر، وجاء القول الحكيم: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}319.

---

318 - آل عمران 44.

319 - الصافات 139- 144.

كان لابدّ أن ينزل واحد من تلك السفينة، لذلك تم إجراء قرعة بالسهام حتى لا تقوم معركة بين الموجودين على ظهر السفينة، وحتى لا تكون الغلبة للأقوياء، ولكن القرعة حمت النّاس من ظلم بعضهم بعضا. قالوا: لنجر قرعة السهام، فمن يخرج سهمه فهو الذي يلقى به، وكان على يونس صلّى الله عليه وسلّم أن ينزل إلى اليم فيلتقمه الحوت. ولأنّه من المسبحين فإن الله ينقذه. لقد قبل يونس صلّى الله عليه وسلّم اختيار الله ولم ينس تسبيح الله فكان في ذلك الإنقاذ له. وهكذا نقرأ قول الله لنفهم أن كفالة زكريا كانت باختيار الله (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتا حَسَنا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا).

وكلّمة (كفلها) أي تولى كلّ مهمة تربّيتها، هذه هي الكفالة، ونحن نعرف أنّ الكفيل في عرفنا هو الضامن، والضامن هو من يسد القرض عندما يعجز الإنسان عن السداد، وقوله الحقّ: (وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا) يعطينا المعنى الواضح بأن زكريا صلّى الله عليه وسلّم هو الذي قام برعاية شئون مريم320.

وينفتح معنى الكافل إلى معنى أوسع يتعلق بالله تعالى قال الخطابي: "الرزّاق هو المتكفل بالرزق، والقائم على كلّ نفس بما يقيمها من قوتها"321.

الرزّاق: هو الذي له صفتي خلق الرزق، وإيصاله لمن هم في حاجة، وهو الذي برزقه يضمن الحياة لمن يُراد له أن يُرزق، وهو المصدر الذي به تتعدد المصادر.

---

320 - تفسير الشعراوي، ج 1، ص 944.

321 - حامد أحمد الطاهر، الجامع لأسماء الله الحسنى ابن القيم الجوزية، القاهرة، دار الفجر للتراث، 2002، ص 128.

وقد يتساءل البعض عن كونه المصدر الذي به تتعدد المصادر، فيقال الرزَّاق هو مصدر الرزق، والرزق يتعدد بمصادره في السماوات والأرض، فالرزَّاق سابق على السماوات والأرض وهما من المصادر الرئيسة للأرزَّاق حيث لولاها ما خُلقنا والكائنات وما رُزقنا على ظهرها. ولذا فالرزَّاق هو المصدر الذي خلق للرزق مصادر، فخلق السماوات وخلق الأرض وخلق فيها رزقا ثم خلق منها الإنسان تاليا على الرزق ليكون كغيره من المخلوقات على الرزق يعيش ويحيا ممّا آتاه الرزَّاق من نصيب ليشبع حاجاته المتنوعة والمتعددة والمتطورة، ثم يجازى في الحياة الآخرة بالثواب أو العقاب ليكون بما فعل من حسنات أو سيئات من أصحاب الجنّة أو أصحاب النّار.

والرزَّاق: مصدر يرزق رزقا، ومع أنّ رَزِقَ مصدر لمن يرزق رزقا، إلا أنها لا تأتي إلا من مصدر، ومصدرها الرزَّاق جلّ جلاله، فلو لم يكن رزَّاقا ما كان للرزق محل من الوجود والإعراب. ولذا فالرزق لا يستمد إلا من رزَّاق أعظم ولكي يكون رزَّاقا أعظم لابدّ أن يكون خلاَّقا أعظم، وهذه الصفات الحسان لا تكون إلا لله تعالى. وعليه تتعدد مصادر الأرزَّاق والرزَّاق واحد.

وقد يتساءل البعض عن الكيفية التي بها تتعدد مصادر الرزق والرزَّاق واحد، فيقال: لو لم يكن هناك رزَّاقا ما كان للرزق من مصدر. وفي هذا الأمر بالتمام لو لم يكن هناك خلاَّق ما خلقنا، ولو لم يكن هناك مصور ما صُورنا وهكذا لو لم يكن هناك رحمن ما رُحِمنا بالأرزَّاق منه جلّ جلاله، ولذا فإن الرزَّاق هو مصدر الأرزَّاق. وعليه بإمكاننا أن نُرَتِب مصادر الأرزاق أولويّا وفقا للآتي:

أوّلا . المصدر الخالق: وهو الرزَّاق الأوّل والآخر: فالأوّل من حيث لم يكن سابقا عليه أوّل، مصداقا لقوله تعالى: {الله الذي

خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم}322. وقوله تعالى: {إنَّ الله هو الرزَّاق ذو القوّة المتين}323. ولأنّه هو الرزَّاق الأول والآخِر؛ فلا خوف من عدم على حياتنا وحياة أولادنا فالأرزَّاق منه تأتي إن توجهنا إليه وعملنا عملا صالحا مصداقا لقوله تعالى: {ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم324.

ولذا؛ فالرزَّاق الأوّل هو خالق كلّ مخلوق وسابق عليه وضامن معاشه إلى النهاية التي ينبغي أن يكون عليها، ولهذا؛ فهو الآخِر الذي كما سبق أن كان رزَّاقا أولا فهو الأول الذي ينهي الرزق عمن لم يكن له رزق في الحياة. وعليه فإن القاعدة تقول: (من يرحل رزقه يرحل). ولا يبقى إلا هو جلّ جلاله عليما بما نحن عليه وبما سنكون عليه مصداقا لقوله تعالى: {هو الأول وهو الآخِر والظاهر والباطن وهو بكلّ شيء عليم}325. والأول والآخِر تعني: (هو واحد أحد) هو الذي بدأ الخلق وهو الذي يُعيده، أي أنّه هو الذي يملك أمر البداية والنهاية سبحانه جلّ جلاله.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَكلّوا ممّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ}326. في هذه الآية نهى الله تعالى عن تحريم الرزق الحلال؛ فبما أنّ الرزَّاق أوجد الأرزَّاق فلماذا تُحرَّم بما أنّها تؤخذ وتؤكلّ حلالا طيبا؟ ولهذا، قوله كلّوا ممّا رزقكم

322- الروم، 40.

323 - الذاريات، 58.

324 - الأنعام، 151.

325 - الحديد، 3.

326 - المائدة، 87، 88.

تعني كلّوا من لحومها واشربّوا من ألبانها، وكلّوا من ثمارها ورحيقها ولا تُحرِّموا شيئا منها لم يحرمه الله.

ولأنّه هو الآخِر فهو المنهي الأوّل لِما يجب أن يُنهى، ولذا يمسك رزقه عمن ليس له نصيب فيه ممّا يجعل النهاية خيرا بيد الأول والآخر لا بيد من لم يكن بأول ولا بآخِر. مصداقا لقوله تعالى: {أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ}327. بدون شكّ أنّه الأوّل والآخر، (الأوّل هو الثابت الأوّل؛ فلم يتغير، فهو الذي في البداية أعطى، وهو الذي في الناهية أمسك). وقد يتساءل البعض: لماذا هو في الأوّل أعطى، ولماذا هو في الآخِر أمسك؟

بطبيعة الحال لأنّه هو الذي يحيي ويميت، فإعطاؤه الرزق في البداية لأجل الحياة وإمساكه للرزق في النهاية لأجل الموت، ولذا فنحن كغيرنا من الكائنات نحيا ونموت ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام جلّ جلاله.

ثانيا ـ المصدر المخلوق: هو مصدر الرزق الذي تتعدد منه مصادر الأرزَّاق، كالسموات والأرض المخلوقات للمخلوق رزقا. مصداقا لقوله تعالى: {بديع السماوات والأرض}328 وقوله تعالى: {وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين}329 وقوله تعالى: {هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض}330 وقوله تعالى: {وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد

327 – الملك، 21.

328 – البقرة، 117.

329 – الأنبياء، 16.

330 – فاطر، 3.

موتها}331. وقوله تعالى: {أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}332.

يتضح من هذه الآيات الكريمة أن السماوات والأرض هي المصادر الرئيسة التي أبدعها الله عزّ وجلّ للرزق فهي التي منها ينزل الماء وعليها تنمو الحياة، ومنها تُستمد الأرزّاق وتؤخذ. فالأرض مصدر خَلقنا ومصدر رِزقنا {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}333؛ فالأرض عظيمة كريمة بعظم الخالق الأعظم فهي مصدر خلقنا ومصدر رزقنا، (منها خلقنا ومنها نرتزق فنعيش).

ومع أنّ السماوات والأرض هما مصدرا الرزق، إلا أن ما بينهما مصادر رزق كثيرة، فالرياح والسحاب والهواء التي بينهما هي أسباب مسخرة لمصادر أرزّاق، وكذلك الماء رزق ومصدر خلق قال تعالى: {وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}334.

ولذلك؛ فالرياح والسحب مصادر رزق مصداقا لقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ}335.

إذن، لو لم يرزق الله عباده بالرياح ما تلاقحت الأشجار وأثمرت، ولولا الرياح ما حملت المطر وأنزلت رزقا لكلّ كائنٍ حيٍ.

331 - البقرة، 164.

332 - النمل، 64.

333- الروم، 20.

334- البقرة، 164.

335 - الحجر، 22.

وبالرياح أثيرت السحب وتناقلت من مكان لأخر لتحيي الأرض بعد موتها مصداقا لقوله تعالى: {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ}336.

وإلى جانب المصادر الرئيسة للرزق المباشر للمخلوقات هناك مصادر أخرى ذات أهمية عالية لإبقاء الرزق وبقاء الحياة، إنها الشمس والقمر والنجوم والكواكب سبحانه لم يخلق شيئا عبثا، بل كلّ شيء خلقه وقدّره بحسبان موزون قال عزّ وجلّ: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ}337. وقال جلّ جلاله: {هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل}338 وقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالحقّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}339. ولذلك؛ فكما أنّ الأرض والسماء مصدرا رزق كبير كذلك فإنّ ما بينهما من الشمس والقمر والكواكب والنجوم والليل والنهار هي مصادر أرزّاق كثيرة، فالحمد لله الذي خلق لنا عبر الحركة والزّمان مصادر أرزّاق دون أن تكون من أيدينا؛ فنحن لم نخلق السماوات العلا ولم نخلق الأرض ولن نبلغ الجبال طولا، ولم نخلق الشمس ولا القمر ولا الكواكب والنجوم، ولم نخلق الليل ولا النهار ولم نخلق الزّمان ولا الحركة إنه الله الرزّاق جلّ جلاله.

336- فاطر، 9.

337 - الأنبياء، 16.

338- يونس، 5.

339- إبراهيم 33.

ومع أنّ الإنسان خُلق من تراب الأرض كغيره من المخلوقات الترابية إلا أنّه قد خُصَّ بأحسن تقويم وخُصَّ برزق حلال، فالطيور التي جعل لها الخالق رزقا جعلها بذاتها رزقا للإنسان في الحياتين ليأكلّ لحما ممّا تلذه الأنفس وتشتهيه. وهكذا جعل له رزقا من صيد البر والبحر وجعل له لحما حلال ممّا حوله من ذوات اللحوم، وفوق ذلك من لبنها وريشها ووبرها وصوفها وشعرها وحريرها وجلودها يُرزق وله منها منافع.

ويقول الإمام الغزالي: "الرزَّاق هو الذي خلق الأرزَّاق والمرزوقين، وأوصلها إليهم وخلق لهم أسباب التمتع بها"340.

قال الحليمي: "الرزَّاق هو المفيض على عباده بما يجعل لابدّ انّهم قواما"341.

وقال الطحاوي: "رازق بلا مؤنة بل لو سألوه جميعا فأعطاهم ما سألوه لم ينقص ذلك من مُلكه كما قال في الحديث القدسي: "يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كلّ إنسان مسألته ما نقص ذلك ممّا عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر"342.

---

340 الإمام الغزالي، القول الأسنى. ص 79.

341 مجدي صور الشورى، القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة ـ مكتبة العلم، 1999، ص 265.

342 الإمام ابن القيم الجوزية في شرح أسماء الله الحسنى. رسائل جامعية بيروت، دار ابن الجوزية، 20005، ص 322.

وقال الخطابي: "الرزَّاق هو المتكفل بالرزق، والقائم على كلّ نفس بما يقيمها من قوتها"343.

الرزَّاق: هو الذي له صفتي خلق الرزق، وإيصاله لمن هم في حاجة، وهو الذي برزقه يضمن الحياة لمن يُراد له أن يُرزق، وهو المصدر الذي به تتعدد المصادر.

وقد يتساءل البعض عن كونه المصدر الذي به تتعدد المصادر، فيقال الرزَّاق هو مصدر الرزق، والرزق يتعدد بمصادره في السماوات والأرض، فالرزَّاق سابق على السماوات والأرض وهما من المصادر الرئيسة للأرزَّاق حيث لولاها ما خُلقنا والكائنات وما رُزقنا على ظهرها. ولذا فالرزَّاق هو المصدر الذي خلق للرزق مصادر، فخلق السماوات وخلق الأرض وخلق فيها رزقا ثم خلق منها الإنسان تاليا على الرزق ليكون كغيره من المخلوقات على الرزق يعيش ويحيا ممّا آتاه الرزَّاق من نصيب ليشبع حاجاته المتنوعة والمتعددة والمتطورة، ثم يجازى في الحياة الآخرة بالثواب أو العقاب ليكون بما فعل من حسنات أو سيئات من أصحاب الجنّة أو أصحاب النّار.

والرزَّاق: مصدر يرزق رزقا، ومع أنّ رَزِقَ مصدر لمن يرزق رزقا، إلا أنها لا تأتي إلا من مصدر، ومصدرها الرزَّاق جلّ جلاله، فلو لم يكن رزَّاقا ما كان للرزق محل من الوجود والإعراب. ولذا فالرزق لا يستمد إلا من رزَّاق أعظم ولكي يكون رزَّاقا أعظم لابدّ أن يكون خلاَّقا أعظم، وهذه الصفات الحسان لا تكون إلا لله تعالى. وعليه تتعدد مصادر الأرزَّاق والرزَّاق واحد.

343 حامد أحمد الطاهر، الجامع لأسماء الله الحسنى ابن القيم الجوزية. القاهرة، دار الفجر للتراث، 2002، ص 128.

وقد يتساءل البعض عن الكيفية التي بها تتعدد مصادر الرزق والرزَّاق واحد، فيقال: لو لم يكن هناك رزَّاقا ما كان للرزق من مصدر. وفي هذا الأمر بالتمام لو لم يكن هناك خلاَّق ما خلقنا، ولو لم يكن هناك مصور ما صُورنا وهكذا لو لم يكن هناك رحمن ما رُحِمنا بالأرزَّاق منه جلّ جلاله، ولذا فإن الرزَّاق هو مصدر الأرزَّاق. وعليه بإمكاننا أن نُرَتِب مصادر الأرزَّاق أولويّا وفقا للآتي:

أولا . المصدر الخالق: وهو الرزَّاق الأول والآخر: فالأول من حيث لم يكن سابقا عليه أول، مصداقا لقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}344. وقوله تعالى: {إنَّ الله هو الرزَّاق ذو القوّة المتين}345. ولأنّه هو الرزَّاق الأوّل والآخِر فلا خوف من عدم على حياتنا وحياة أولادنا فالأرزَّاق منه تأتي إن توجهنا إليه وعملنا عملا صالحا مصداقا لقوله تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ}346.

ولذا فالرزَّاق الأوّل هو خالق كلّ مخلوق وسابق عليه وضامن معاشه إلى النهاية التي ينبغي أن يكون عليها، ولهذا فهو الآخِر الذي كما سبق أن كان رزَّاقا أولا فهو الأول الذي ينهي الرزق عمن لم يكن له رزق في الحياة. وعليه فإن القاعدة تقول: (من يرحل رزقه يرحل). ولا يبقى إلا هو جلّ جلاله عليما بما نحن عليه وبما سنكون عليه مصداقا لقوله تعالى: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}347.

344 الروم، 40.

345 الذاريات، 58.

346 الأنعام، 151.

347 الحديد، 3.

والأول والآخِر تعني: (هو واحد أحد) هو الذي بدأ الخلق وهو الذي يُعيده، أي أنه هو الذي يملك أمر البداية والنهاية سبحانه جلّ جلاله.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ}348. في هذه الآية نهى الله تعالى عن تحريم الرزق الحلال فبما أن الرزّاق أوجد الأرزّاق فلماذا تُحرَّم بما أنها تؤخذ وتؤكلّ حلالا طيبا؟ ولهذا قوله كلّوا ممّا رزقكم تعني كلّوا من لحومها واشربّوا من ألبانها، وكلّوا من ثمارها ورحيقها ولا تُحرِّموا شيئا منها لم يحرمه الله.

ولأنّه هو الآخِر فهو المنهي الأوّل لِما يجب أن يُنهى، ولذا يمسك رزقه عمن ليس له نصيب فيه ممّا يجعل النهاية خيرا بيد الأوّل والآخر لا بيد من لم يكن بأول ولا بآخِر. مصداقا لقوله تعالى: {أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه}349. بدون شكّ أنه الأوّل والآخر (الأوّل هو الثابت الأول فلم يتغير، فهو الذي في البداية أعطى وهو الذي في الناهية أمسك). وقد يتساءل البعض: لماذا هو في الأوّل أعطى، ولماذا هو في الآخِر أمسك؟

بطبيعة الحال لأنه هو الذي يحيي ويميت، فإعطاؤه الرزق في البداية لأجل الحياة وإمساكه للرزق في النهاية لأجل الموت، ولذا فنحن كغيرنا من الكائنات نحيا ونموت ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام جلّ جلاله.

---

348 المائدة، 87، 88.

349 الملك، 21.

ثانيا ـ المصدر المخلوق: هو مصدر الرزق الذي تتعدد منه مصادر الأرزّاق، كالسموات والأرض المخلوقات للمخلوق رزقا. مصداقا لقوله تعالى: {بديع السماوات والأرض}350 وقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ}351 وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}352 وقوله تعالى: {وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}353. وقوله تعالى: {أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}354.

يتضح من هذه الآيات الكريمة أنّ السماوات والأرض هي المصادر الرئيسة التي أبدعها الله عزّ وجلّ للرزق فهي التي منها ينزل الماء وعليها تنمو الحياة، ومنها تُستمد الأرزّاق وتؤخذ. فالأرض مصدر خَلقنا ومصدر رِزقنا {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}355 فالأرض عظيمة كريمة بعظم الخالق الأعظم فهي مصدر خلقنا ومصدر رزقنا، (منها خلقنا ومنها نرتزق فنعيش).

---

350 البقرة، 117.

351 الأنبياء، 16.

352 فاطر، 3.

353 البقرة، 164.

354 النمل، 64.

355 الروم، 20.

ومع أنّ السماوات والأرض هما مصدرا الرزق، إلا أن ما بينهما مصادر رزق كثيرة، فالرياح والسحاب والهواء التي بينهما هي أسباب مسخرة لمصادر أرزّاق، وكذلك الماء رزق ومصدر خلق قال تعالى: {وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}356.

ولذلك فالرياح والسحب مصادر رزق مصداقا لقوله تعالى: {وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه}357 إذن لو لم يرزق الله عباده بالرياح ما تلاقحت الأشجار وأثمرت، ولولا الرياح ما حملت المطر وأنزلت رزقا لكلّ كائنٍ حيٍ. وبالرياح أثيرت السحب وتناقلت من مكان لأخر لتحيي الأرض بعد موتها مصداقا لقوله تعالى: {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ}358.

ومع أنّ الإنسان خُلق من تراب الأرض كغيره من المخلوقات الترابية إلا أنه قد خُصَّ بأحسن تقويم وخُصَّ برزق حلال، فالطيور التي جعل لها الخالق رزقا جعلها بذاتها رزقا للإنسان في الحياتين ليأكلّ لحما ممّا تلذه الأنفس وتشتهيه. وهكذا جعل له رزقا من صيد البر والبحر وجعل له لحما حلال ممّا حوله من ذوات اللحوم، وفوق ذلك من لبنها وريشها ووبرها وصوفها وشعرها وحريرها وجلودها يُرزق وله منها منافع.

---

356 البقرة، 164.

357 الحجر، 22.

358 فاطر، 9.

وعليه أتساءل: أإله كريم يخلقك، ويخلق لك رزقا، ويغفر لك ذنبا وخطيئة، ويُشرك بالجنّة هو أولى بالعبادة أم إله يُخلق ولا يَخلق شيئا ولا يحيي ولا يميت ولا يرزق؟ {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}359

ثالثا ـ المصدر الذي يُخلق: هو الذي يُستمد ويشتق ممّا خَلق الله من أرزّاق، فبالعلم تُكشف الأشياء ويتم التعرف عليها، ومنها يصنع الرزّاق بالإضافة (الخليفة) رزقا يُحسِّن حياته به ويُشبع حاجاته المتنوعة والمتطور.

ولذلك نقَّب في الأرض حتى اكتشف الحديد رزقا والنحاس والذهب اصفرا واسودا، وعبَّد الطرق وشقها وهو يطوي المسافات مثلما يطوي الحديد؛ ثم رفع رأسه من على الأرض التي منها خُلق وعليها يرتزق إلى السماء، ففكر في طي المسافة بينهما حتى اكتشف قانون الجاذبية الذي به تمكَّن من غزو الفضاء، ثم طوَّر أحواله وحياته بما تصنع يداه ولا زال يُطوَّر بيديه وبعقله العلوم المتنوعة.

وكما قلنا الأرزّاق تتعدد والرزّاق واحد، فعلى مستوى البناء الخَلقي للإنسان الذي خلقه الله تعالى في أحسن تقويم، فقد رزقه بما يميزه عمَّا خَلق، ورزقه أيضا بما يماثله مع ما خلق، وفيما يميزه فقد رزقه بأربّعة أشياء عظيمة هي:

الشيء الأوّل رزقه العقل: ممّا جعل له ذاكرة تصنع التاريخ وتحفظه ثم تنقله تراثا ومواعظ حسنة لأجل مستقبلٍ أفضل وأجود وأفيد وأنفع. ولذلك رُزِق الخلاَّق بالإضافة عقلا يميزه عن تلك الدواب التي لا تدرك شيئا صم بكم لا يتذكرون ولا يستطيعون أن يتفكروا {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا

359 الغاشية، 20.

يَعْقِلُونَ}360. ولولا العقل الذي رُزِقَ به، ما استطاع آدم عليه الصّلاة والسّلام أن يُنبئهم بأسمائهم، ولذلك العقل المميز أُمرت الملائكة أن تسجد له طاعة لله الذي أصدر الأمر بالسجود لآدم.

الإنسان الذي ميزه الرزّاق بالعقل يفكر ويتذكر ويستقرئ ويستنبط ويخطط ويقوّم ويستنتج حتى يتبين ما يجب ويُقْدم على فعله أو عمله، ويتبين ما لا يجب ويحيد عنه أو يبتعد ويفكر في البديل الأنسب.

الشيء الثاني رزقه الضمير: الضمير حاسة مترتبة على حاسة العقل الذي رزق الله به العباد قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}361 ولذا فالضمير يتكون من مجموع القيم والفضائل الاجتماعية والإنسانية التي تُهذِّب الأخلاق، فهو الضابط للسلوك وفقا لما ترشد إليه الأديان والقيم الإنسانية وأعراف المجتمع، وهو الذي له علاقة بذاكرة التاريخ وما ينبغي أن يكون من أجل رضاء يستوعب الآخرين في حدود القيم والفضائل المرضِيَة لضمير المجتمع.

هذه الحاسة المميزة للخلق الإنساني هي التي تجعله يتألم من ارتكاب الأعمال المشينة للدين والأخلاق والقيم، وهي التي تجعله يغضب من أجل الكرامة ويثأر.

---

360 الأنفال، 22.

361 الحج، 46.

الشيء الثالث رزقه القامة السوية: قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}362 في أحسن تقويم تعني في أحسن صنعة يمشي سويا متميزا بالقامة والبهاء ليس كمثله شيء ممّا خلق من المخلوقات الأخرى التي تمشي مُكبة على وجوهها أو تزحف على بطونها.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ}363 لماذا الغرور أيها الإنسان وأنت تعلم أن الحياة الدنيا حياة متاع وغرور {فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ}364 واتقِ الله الذي خلقك فسواك فعدلك واتق الله الذي رزقك بالقامة السوية ليميزك عما خلق كما ميزك بالعقل والضمير الذين بهما تعرف وتدرك وتبحث وتتذكر وتفكر حتى تتبين الحقّ من الباطل.

قال تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ}365. إنها منظومة من القيم مبثوثة بذوق رفيع في هذه الآيات الكريمة، فيها من الصور الجمالية ما يُمكِّن المبدعين من رسم لوحة أو كتابة قصة أو رواية لتنسج علاقة صلة جمالية بين المؤمن وما بشر به في الجنّة.

---

362 التين، 4.

363 الانفطار، 6 . 8.

364 لقمان، 33.

365 الغاشية، 8، 16.

قال تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ}366.

وعليه فبهذه الأشياء الأربّعة تميَّز الإنسان بما رزقه الله من خصوصية عن غيره من الحيوانات والكائنات الأخرى، وتماثل معها في حواسه الأخر فهي تبصر كما يبصر وتسمع كما يسمع وتشم كما يشم وتذوق المحسوس بطعمه كما هو يذقه محسوسا بطعمه وهكذا للحيوان عاطفته مثلما للطير عاطفته وللإنسان عاطفته. ولأن الإنسان قد رزقه الرزَّاق المطلق العقل والضمير والقامة السوية والذوق الرفيع فهو يختلف عن الحيوانات والكائنات الأخر في كونه يُحب ويكره، وهي لا تحب ولا تكره كما هو يحب ويكره، فهي فقط تثور وتهدأ، ولهذا فهي قابلة للترويض من قِبل المدركين لأساليب الترويض بما ميزهم به تعالى من مدركات عقلية، وبما اكتسبوه من مهارات فنية وخبرة وتجربّة.

إذن مع أنّ الإنسان قد ميزه تعالى على جميع ما خلق إلا أنه شاركه في بعضها الآخر الذي لا يؤثر على حسن التصرف وإدراك المجردات، ولذا فهو يشاهد كغيره لِما يشاهد وفي مقابل ذلك أنه يلحظ عن عمدٍ وغيره لا يلحظ كما هو يلحظ وإن لحظ فلا يلحظ إلا مصادفة.

وتوجد علاقة ترابط بين المشاهدة والملاحظة تتمثل في أنَّ الملاحظة عميقة وواسعة، وتحتوي على الاستنتاج العقلي، أما المشاهدة فتحتوي على المعاينة بالعين للشيء، وذلك عن طريق

---

366 الغاشية، 17 . 21.

تفحّصه ككلّ وكجزء بنظرة نافذة. أي أن المعاينة بالمشاهدة تتم للأشكّال والصور والأجسام، وحركتها والتعرف على مكوّنِها (الأجزاء المتكونة منها) بالتعرف على كلّ ما يمكن تصويره أو رسمه أو أنه في حالة حركة وامتداد.

فإذا شاهدنا مباراة لكرة القدم، نشاهد أمامنا جماعتين في وسط الملعب بنوعين من الملابس الرياضية، ومرميين للتهديف، بوسطهما حارسين وجمهورا متحمسا، ونشاهد حركة اللاعبين وحركة تسجيل الأهداف. هذه المشاهدات التي تترتب عليها الملاحظات، والتي تُمكّن الملاحظ من معرفة درجة التعاون بين اللاعبين، والمهارات الفنية لهم ولياقاتهم وقدرات تحمّلهم، وعلاقتهم بالجمهور وإصرارهم على الفوز، ويلحظ أيضا علامات الهزيمة، والفوز أو الإحباط في نهاية المباراة على أفراد الفريقين والمشجعين والمدربّين حسب النتيجة لكلّ فريق. ولذلك لا يمكن لأحدٍ أن يشاهد الغضب أو الهزيمة ولا الحركة، هذه تُلحظ، أما الذي يُشَاهَد فهو الغضبان أو المهزوم أو المتحرك، ومن يخالفنا في الأمر نقول له إن كنت تشاهد الغضب أو الهزيمة أو الحركة فارسمها إن استطعت، حينها يجد نفسه أمام شيء لا يُرسم ولأنّه لا يُرسم لا يشاهد ولكنه يُلحظ ملاحظة.

تعتمد المشاهدة على ما تراه العين، ولكن ليس كلّ ما تراه العين هو حقّيقة، وذلك لأن الظاهر قد لا يكون الباطن، ولهذا فالاعتماد على المشاهدة في القضايا العلمية، مسألة غير يقينية فيصعب التسليم بمصداقيتها قال تعالى: {وَتَرَى النّاس سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى}367 فمن مشاهدة سلوكهم قد تعتقد أنهم في حالة

367 الحج، 2.

سكر، ولكن بملاحظتهم عن قربّ، قد لا يكونون سكارى مع أنّ حركتهم فيها شبه من هذا الأمر.

قال تعالى: {فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغا قَالَ هَذَا ربِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي ربِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ}368. وأيضا قال تعالى: {فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا ربِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ ممَّا تُشْرِكُونَ}369. فمن خلال المشاهدة كان يعتقد القمر هو الربّ ولما غاب لاحظ أن القمر يفتقد لصفة الربّ الدائم هو كما هو سبحانه جلّ جلاله وهي خاصيّة البقاء دون غياب وذلك بوحدانية الثبات، واعتقد مرة أخرى بأن الشمس هي الربّ فلما غابت عن المشاهدة ليلا، لاحظ أنها تغيب وهذه الصفة لم تكن من صفات الله عزّ وجلّ وذلك لانعدام خاصية البقاء، لأنه الحي الذي لا يغيب.

وعليه تكون الملاحظة أكثر أداة لإثبات الحقّائق والمصادق، وتتكون الملاحظة من عمليات عقلية متداخلة إلى جانب توليد المشاهدات، فالعمليات العقلية هي: تلك التساؤلات والافتراضات أو الانتقادات والتوقعات، وكيفية تفادي المواقف، وكيفية إدراكها واختيار الأساليب ومراعاة الظروف المناسبة.

أمّا توليد المشاهدات فهو: الانتقال من المشاهد إلى الأسرار التي وراءه والعلاقات المكونة لعناصره، قال الله تعالى: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}370. إنه أمر لمشاهدة آياته في السماء وهي النجوم والكواكب من خلال النظر إليها، يمكن

368 الأنعام، 77.

369 الأنعام، 78.

370 يونس، 101.

مشاهدة حركتها وضوئها الجميل، وبالمشاهدة يلحظ أن هناك علاقة، وأن هناك قدرة وراءها، وأنها علامات يمكن الاهتداء بها في تحديد الاتجاهات ليلا ونهارا وفي البر والبحر، وهذه مشاهدات تولَّدت من خلال الملاحظة والمشاهدة، وهكذا تتولد المشاهدة من المشاهدة، وتتولد الملاحظة من الملاحظة، فمن مشاهدة الشمس يشاهد الشروق والغروب، ومن مشاهدة القمر يشاهد الشمال والجنوب، ومن مشاهدة الجبال والمخلوقات يلحظ أن من ورائها خالق، وهكذا تتولد الفكرة من الفكرة لنلحظ أو نشاهد ما يترتب على الفكرة وتوليدها.

ولذا فالفرق كبير بين المشاهدة التي تقتصر على البصر والرؤية العينية، وبين الملاحظة التي تعتمد على المدركات العقلية الواعية قال تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}371. النّظر هو المشاهدة بالعينين أي فلينظروا إلى الصفة التي عليها الإبل من حيث المظهر التي خُلقت عليه، أما الكيفية التي بها خلقت فهذه لا يمكن مشاهدتها فهي تدرك إدراكا وتُلاحظ ملاحظة، ولذا فأمر النظر إلى الكيفية التي عليها خُلقت الإبل أمر إعجازي مثلها مثل الكيفية التي بها رُفعت السماء بغير عمد ونصبت الجبال وسطحت الأرض، فمع أنّ الإبل تشاهد والسماء تشاهد والجبال تشاهد والأرض تشاهد إلا أن الكيفية التي عليها أو الحالة التي عليها خلقت لا يمكن أن تشاهد بالمطلق، ولكن المتمعن فيها يلحظ الإعجاز الخلقي فتبارك الله أحسن الخالقين.

---

371 الغاشية، 17 . 21.

وهكذا مصادر الرزق المباشرة تشاهد أولا وتلحظ ثانيا، فالسماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والسحب والغيوم تشاهد أولا ثم تلحظ ثانيا إن كان هناك أثر على الرؤية سالبا أو موجبا، أو أنَّ هناك خسوفا أو كسوفا.

أما العلاقات فلا يمكن مشاهدتها فهي التي تُلحظ دون أن تشاهد، فالأبوة والأخوة والعمومة والجيرة والزواج والطلاق والحب والكره والتعاون والصدام والتكيف والتوافق. كلّ هذه القيم لا يمكن مشاهدتها وإلا هل هناك من يشاهد الأبوة والتعاون والتكيف؟ هذه لا يمكن مشاهدتها فالتي تُشاهد هي العناصر ذات العلاقة بها فالأب إنسان يشاهد كمفردة مستقلة بذاته والأم كذلك والأبناء أيضا، ولكن العلاقة التي بينهم هي التي جعلتنا نلحظ سلوكا أبويا أو أموميا أو أخويا بين العناصر المكونة للأسرة، ولهذا فالأسرة لا يمكن مشاهدتها ويمكن ملاحظتها فالذي يشاهد هم الأفراد المكونين لها، وهؤلاء يشاهدون بشرا فقط. ولهذا فالعلاقات لا تُرى بالعينين السليمتين مثل حال التعاون الذي لا يمكن أن يشاهد، فالتعاون جهود تُبذل ويستدلُ عليه استدلالا، وهكذا التكيف الذي هو عبارة عن تقديم تنازلات من أجل التأقلم مع الظروف وفي هذا الأمر مثل حال السجين الذي بالزمن يصبح متكيفا مع السجن، ولكنه لا يمكن أن يكون متوافقا معه فالتوافق لا يتم إلا بالرضاء وبدون تنازلات أما التكيف فلا يتم إلا بها.

وعليه فالرزَّاق الحقّ في الحياة الدنيا لا يمكن مشاهدته لأنه لم يكن مادة، ولذا فالمادة هي التي تشاهد أما الله تعالى يُدرك ويلحظ في خلقه وفي أرزّاقه وفي ووحدانيته وجبروته وكبريائه وعظمته ورحمته، ولهذا فمن طبيعة الخلق أن نرى الهلال أول كلّ شهر ونرى الشمس

كلّ يوم ولكننا لا يمكن أن نرى خالقها جلّ جلاله. قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ ربّهُ قَالَ ربّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى ربّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}372 الجبل مادة قابلة للمشاهدة ووجود الله قد لوحظ من القوّة التي دكت الجبل دون أن تخضع للمشاهدة. وهذا الأمر هو الذي جعل موسى عليه الصّلاة والسّلام بعد أن أفاق من صعقه يقول: (سبحانك تُبت إليك وأنا أوّل المؤمنين).

وقال تعالى: {وْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}373. يقال رجل عظيم وفيه نبوّة ويقال على الأغلب الرجل الذي مرَّ على القرية الخاوية على عروشها هو عُزير وهو الذي أماته الله مائة عام ثم أحياه وسأله: كم لبثت؟ فظن أنه لبث يوما أو بضع يوم فقط. ولما شاهد طعامه وشرابه وهو لم يفسد بالرغم من الزمن الطويل، وشاهد هيئة حماره وعظامه ولاحظ كيف تعود إليها الحياة بعد أن جُمّعت واكتست لحما حتى أخذ الحمار هيئته وصورته التي كان عليها قبل المائة عام التي قضاها ميتا حينها أدرك أنه الحقّ وأن الله على كلّ شيء قدير.

---

372 الأعراف، 143.

373 البقرة، 259.

وعليه في هذه الآية مجموعة مشاهدات ومجموعة من الملاحظات، فالمشاهدات هي التي تمت رؤيتها ماديا وهي الطعام والشراب والهيئة البالية التي كانت صورة الحمار عليها والعظام دون أن يكسوها اللحم، ثم مشاهدة الحمار حيا من جديد هو كما هو.

أما الملاحظات فهي: إدراك الزمن الذي جعل من العظام بالية وهيئة الحمار لا يمكن أن تكون هيئة الحمار الميت التي اختلفت عن هيئة وشكلّ الحمار وهو حي، فلو لم يمضي عليه زمن طويل ما كان على الهيئة التي كان عُزير عليه السلام شهيدا عليها. ولهذا شاهد عُزير الحمار ميتا ولا حظ في الوقت ذاته انبعاث الحياة فيه، ولذا فإنه قال: (أعلم أنَّ الله على كلّ شيء قدير). فأعاد الله سبحانه وتعالى الحياة إليه وإلى رزقه وإلى حماره وذلك بسبب تقواه ويقينه بأن الله على كلّ شيء قدير.

قال الشاعر:

عليك بتقوى الله إن كنت غافلا .. سيأتيك بالأرزّاق من حيث لا تدري

فكيف تخاف الفقر والله رازق .. فقد رزق الطير والحوت في البحرِ

ومن ظن أن الرزق يأتي بقوّة .. فما أكلّ العصفور رشفًا مع النسرِ

ترحل عن الدنيا فإنك لا تدري .. إذا جنَّك الليل هل تعيش إلى الفجرِ؟

فكم من صحيح مات من غير عِلةٍ .. وكم من سقيمٍ عاش حينا من الدهرِ

وكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكا .. وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري

يا جامع المال ما أعددت للحفر .. هل يغفل الزاد من أضحى على سفرِ[374]

أمّا ابن القيم فقال في نونيته:

---

374 مجدي صور الشورى، القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة ـ مكتبة العلم، 1999، ص 268.

وكذلك الرزَّاق من أسمائه .. والرزق من أفعاله نوعان

رزق على يد عبده ورسوله .. نوعان أيضا دان معروفانِ

رزق القلوب العلم والإيمان .. والرزق المعدِ لهذه الأبدان

هذا هو الرزق الحلال .. وربّنا رزّاقه والفضل للمنانِ

والثاني سوق القوت للأعضاء .. في تلك المجاري سوقه بِوزانِ

هذا يكون من الحلال كما يكون .. من الحرامِ كلّاهما رزقانِ

والله رازقه بهذا فاعتبرِ .. ليس بالإطلاق دون بيانِ375.

الرزَّاق الحقّ هو الذي يرزق خلقه دون أن ينقص شيء ممّا يرزقهم به، بل إنه للرزق يزيد، ولهذا فالله ذو القوّة المتين وهو خير الرازقين مصداقا لقوله تعالى: {وذكِّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين وما خَلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يُطعِمون إنَّ الله هو الرزَّاق ذو القوّة المتين}376. وذكِّر: جاءت مطلقة دون أي تحديد لما ينبغي أن يُذكِّرَ به، أي ذكرهم يا محمّد بما يعظهم إلى ما هو خير، فبالتذكُّر لعلهم يسترجعون القصص والأمثال والمعجزات القرآنية ويتفكرون في خلق السماوات والأرض حتى يتبينوا أنها لم تخلق باطلا، ولعلهم يتذكرون الحقّ ويتعظون فجادلهم بالتي هي أحْسَنُ وأَحْسِنْ كما أَحَسَنَ الله إليك، وبشرهم حتى يهتدوا ولا تُكره أحدا منهم ونبئهم بالثواب والعقاب والاستغفار والرّحمة وعمل الخير، وذكرهم بأن عذابي شديد وإني غفور رحيم على من تاب، ولهذا فما عليك إلا أن تُذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين.

---

375 النونية، 147.

376 الذاريات، 55، 58.

وقوله (وما خَلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) جاءت للتخصيص المطلق، أي تخص الثقلين ولا تعم غيرهما، أما كونها مطلقة فهي لم تستثنِ أحدا من الجن والإنس فهما المأموران بالعبادة مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}377.

أمَّا قوله: (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يُطعِمون) هذه الآية مُسلَّمة فهو الرزَّاق المطلق الذي بيده الخير، وهو خالق الأرزَّاق، وهو خير الرازقين، وهو مالك الملك، ولأنّه كذلك فهو لم يكن في حاجة لأحد من الثقلين ولا لكلّيهما، بل هم الذين في حاجة إلى رزق منه. وما يعتقده البعض بأنهم يملكون الرزق، فليسأل نفسه هل هم السابقون على الرزق أم أن الرزق هو السابق عليهم؟ وهل يمكن أن يكون الرزق لو لم يكن الرزَّاق سابق عليه؟ أي هل هم جاءوا ثم أتى الرزق عليهم، أم أن الرزق هو الذي أتى مسبقا وهم الذين أتوا عليه؟ ولذلك قال تعالى: (إنَّ الله هو الرزَّاق ذو القوّة المتين) أي أنه السابق على كلّ سابق وهو مالك القوّة التي أوجدت الرزق الذي منه يرزقون.

وقوله تعالى: {أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ ربّك خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}378 الخرج هو العطاء، ولهذا فعطاء الرزَّاق أكبر من أي عطاء يمكن أن يظنه البعض بأنّه عطاء كبير، ولذلك مهما أعطاك البعض من عطاء فلا تجعلهم يمنون عليك أو تطمع في غير وجه الله فعطاء ربّك الرزَّاق الأعظم أكبر، إنّه مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعزُّ من يشاء ويذلُ من يشاء بيده الخير

377 التوبة، 31.

378 المؤمنون، 72.

وهو على كلّ شيء قدير، ولأنه هو جلّ جلاله كذلك فهو خير الرازقين.

وعليه فإن خير الرازقين يرزق من يشاء كيف يشاء متى ما يشاء وبدون حدود، أمَّا الرزَّاق بالإضافة فهو الذي يرزق من يشاء بإذن من شاء. ولذا فالخليفة الرزَّاق هو الذي لا يستطيع أن يرزق بدون حدود، وذلك لأن ما يملكه له بداية ونهاية أمّا ما يملكه الرزَّاق الأعظم يرتبط بذاته العلية التي ليس لها بداية ولا نهاية، فهو الأول والآخر سبحانه جلّ جلاله.

ولذا فإنّ الخليفة الرزَّاق كلّما رزق أحدا ممّا يملك من رزقٍ نقص ما عنده إن لم يرحمه الرّحمن الرّحيم بالمزيد، من حيث يحتسب أو من حيث لا يحتسب، فالله يرزق من يشاء من غير حساب هذه قُدرة إلهية وخاصية ربّانية لأجل أن يتم ارتزاق الآخرين منه دون منَّة، فمن يرزقه الله برزق حلال عليه أن يتذكر فضل الله عليه ليجعل فيه نصيبا للآخرين الذين هم في حاجة والأقربّون أولى بأن يجود عليهم ممّا رزقه الله من فضله. ومن يغلق أبواب الرزق على الآخرين يغلق الله عنه أبواب الرزق والرّحمة ويجعله من الخاسرين، ولهذا فالقاعدة (ارزق تُرزق، وارحم تُرحم).

وبناء على هذه القاعدة تضرَّع عيسى عليه الصّلاة والسّلام إلى ربّه فقال في الكتاب العزيز: {قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ ربّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}379 فاستجاب له خير الرازقين بالمائدة

379 المائدة، 114.

الآية التي لم تكن لمن سبق ولن تكون لمن سيأتي من بعد عيسى وقومه الذين رزقهم الله في يوم عيدهم بها سعادة وفرحة.

وفي غير محل للمقارنة فالفرق كبير، بين من يعطي ولا يمن ولا يندم ولا تُسوِّل له نفسه، وبين الذي يعطي ويمنن أو يعطي ووسوسة الشيطان في نفسه لم تفارقه في بعض الأحيان، وحتى إن أعطى وفارقته النفس الوسوسة فهو لم يكن في محل مقارنة.

صفات الله صفات حسان تتداخل حتى الكمال وتتعدد للاختصاص والكثرة فالرزَّاق لو لم يكن وهابا ما رزق، والوهاب لو لم يكن قهارا ما وهب، والقهار لو لم يكن غفارا ما قهر، وهكذا الغفار لو لم يكن مصورا ما غفر، والمصور لو لم يكن بارئا ما صور، والبارئ لو لم يكن خالقا ما برأ، والخالق لو لم يكن متكبرا ما خلق، والمتكبر لو لم يكن جبارا ما تكبّر، والجبار لو لم يكن عزيزا ما تجبر، والعزيز لو لم يكن مهيمنا ما عزّ، والمهيمن لو لم يكن المؤمن ما هيمن، والمؤمن لو لم يكن السلام ما كان مؤمنا، والسّلام لو لم يكن القدوس ما كان سلاما، والقدوس لو لم يكن الملك ما كان قدوسا، والملك لو لم يكن رحيما ما كان ملكا، والرّحيم لو لم يكن الرّحمن ما كان رحيما، والرّحمن لو لم يكن الله ما كان رحمنا. ولذا فمهما تعددت الصفات فالله واحد لا شريك له بيده الملك وهو على كلّ شيء قدير.

قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا}380. يقصد بالدابة كلّ المتحركات المخلوقات ما دون الإنسان، التي لا تعقل ولا تفكر ولا تتذكر حتى ينفعها ويفيدها فيما

380 هود، 6.

تُفكر أو تتذكر بشأنه، ولهذا فإن خالقها خلق لها الرزق ثم خلقها لتعيش عليه، فهي تُرزق رزقا، ولا تملك مُلكا. وحتى أن ادخرت في بيوتها أو في أحشائها فهي لم تدخر إلا ممّا رزقها الله منه. ولأنها لا تعقل كما الخليفة يعقل فهي لم تستثمر ما تدَّخر، بل فقط لتستهلكه وهذا فارق بين الخليفة الذي ميزه الله بما ميزه به من صفات ليعقل ويتعلم ويُطوِّر ويستثمر وليدرك العلاقة بين الحاجة وأساليب مشبعاتها، ويتذكر ماضيه ويعيش حاضره ويفكر في مستقبله ويعمل من أجله.

المستقبل هو الوقت المنتظر الذي يحتوي على الآمال وهو غير قابل للتذكُّر مع أنّه قابل للتفكُّر، والتفكُّر لا يهتم باستدعاء المعلومات الجاهزة، بل هو المتطلع إلى ما هو متوقع، نتيجة استنتاجه واستقرائه لمضمون الماضي الذي تكمن فيه المعلومات والتجاربّ وتتراكم فيه الخبرة، ولذلك يستمد المستقبل تطوره وتجديده من الماضي الذي يرتبط به في الآن، ولذلك تتداخل المعلومات كما يتداخل الزّمان مع الحركة، ممّا يجعل الحياة نسيج الأفعال في الزّمان والحركة، فلا زمان بلا حركة، ولا حركة بلا زمان ولا حياة بدونهما.

المستقبل لا يُحصى، وذلك لعدم تسجيله بعد في سجلات التاريخ، مع أنّه مسجل كوقت في الزّمان والحركة، ولهذا سيأتي بالقوّة الفاعلة من خلال قوّة الزّمان والحركة الفلكية، فبما أنّ اليوم قد دخل والحركة مستمرة إلى النهاية مع الزّمان، فبالضرورة سيأتي غدا لا محالة، وغدا قد يكون نهاية لما سبق وقد يكون استمرارا له، وهذه بالنسبة إلينا غير معلومة مع أنّها متوقعة.

المستقبل هو الذي سيأتي بعد كتابة هذه الكلّمة في حالة مواصلتي الكتابة، وهو الفكرة التي ستأتي بعد ما أفكر فيه، وهو

الزّمان الذي فيه طموحاتنا وما نتوقع، والذي من أجله نتنفس، ونشربّ، ونأكلّ، ونفكِّر، ونتعلم، ونعمل، ونتصدق، ونصلي، ونحب، ونتزوج، وندَّخر وفق حاجاتنا، ونؤمن على أرواحنا وممتلكاتنا، ونخاف، وهو نهاية البداية وثبات الحركة، وعليه كلّ حركة من أجل المستقبل.

يتكوّن كلّ من المستقبل والحركة من زمان وفعل (محتوى ومضمون). وعليه لا يمكن أن يتحقّق المستقبل بدون زمان وفعل، ولا يمكن أن تكون الحركة بدون زمان وفعل، وعندما تصل الحركة إلى لحظة النهاية، يكون العدم، وينتهي المستقبل بالنسبة إليها مادامت في حالة عدم، وعليه يستمر المستقبل كلّما كانت هناك حركة، وتستمر الحركة كلّما كان هناك مستقبل. ولو لم يكن هناك مستقبل ما كان هناك أمل، ولا أمانٍ، وما فكرنا فيما ينبغي أن نفكر فيه وهو ما يشغلنا.

وبناء على ذلك ينبغي أن تكون مناهجنا مستقبلية، لكي نعرف من نحن، وما يجب علينا القيام به، ونعرف من أجل ماذا نُفكّر، ومن أجل ماذا نتعلم؟ ومن أجل ماذا نعمل، ونحلل، ونعالج؟ ولماذا نحن في هذا الوقت نطرح هذه الأسئلة؟ وهل ينبغي أن يتجاوز تفكيرنا الزّمان، أم ينبغي أن يقتصر عليه؟

إذا كانت الإجابة بتجاوزه فإننا نفكر، وإذا كانت بالاقتصار عليه فإننا نتذكر وننتظر، نتذكر الماضي، وننتظر حتى يأتي الغد في لحظة الآن المستقبلية، أي أننا نُعطل قدراتنا ومواهبنا ولا نفكر، لأن الغد لم يأتِ بعد؛ فكلّ هذه وتلك الأسئلة تجعلنا نتذكر كما قال

تعالى: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}381، وكذلك يقول تعالى: {فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}382.

المستقبل يكمن في الزّمان والحركة كما تكمن الشجرة في البذرة، ممّا يجعل الشجرة تكمن في الزّمان المستقبل في البذرة الآن، مع أنّ هذه البذرة كانت في الماضي من الشجرة، وعندما تصبح البذرة شجرة مثمرة تكون البذرة في الماضي، وتكون الشجرة في الآن، وتكون الثمار في المستقبل. وهكذا في التقاء الزوجين في الزمن الآن يكمن المستقبل الذي تكمن فيه هو الآخر معاني الأمومة والأبوة والأخوة بين البشر عندما تأتي الآن المستقبلية في وقت النضج العقلي والعاطفي والوجداني للبشر من مرحلة الطفولة المبكرة إلى مرحلة الشيخوخة المتأخرة.

إنّ ما وقع في الآن الماضي سيكون بالضرورة حاضرا في الآن المستقبل، ولهذا لا يمكن أن يكون الماضي ولا المستقبل إلاّ في الآن، فالمؤمن الذي يعمل صالحا في دنياه يعمل في حقّيقة الأمر من أجل المستقبل، ومستقبله سواء أكان سالبا أو موجبا، هو ما كان له حاضرا في الماضي. إذن الماضي كأحداث وأفعال سيكون حاضرا في المستقبل (الحاضر المستمر) ويُسأل صاحبه عليه حتى يعاقب أو يجازي به، فيقول الله تعالى: {يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوءٍ تودُ لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد}383.

---

381 الحشر، 21.

382 الأعراف، 176.

383 آل عمران، 30.

تؤكد هذه الآية على أن كلّ عمل ماض هو من أجل المستقبل، وهكذا عمل الحاضر الذي هو الآخر سيقع في الزّمان الماضي إلى أن يجد نفسه في الزمن المستقبل، وذلك لأنه لم يكن من أجل الماضي، بل أنه العمل الذي قد تم من أجل المستقبل، ولذلك يكون الماضي كالخزينة المملوءة التي لم تُفتح بعد الفتحة النهائية، فهي في الحياة الدنيا لا تُفتح إلا بمقدار استدعاء المعلومات التي يمكن أن تفيد في صنع تاريخ قريب، ولهذا ينبغي أن نعمل في حاضرنا خيرا لكي يكون لنا مستقبلا خيِّرا. وكلّ الأعمال التي تقع في الزمن الآن تمسى في الماضي وتصبح على خير المستقبل، وحتى إن نسيها أصحابها فلا يضيع منها شيء بالنسبة إلى سجل الزّمان والحركة، {يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوهُ واللهُ على كلّ شيء شهيد}384. تؤكد هذه الآية على أن كلّ شيء وُجِد يمكن إحصاؤه، ولكن لقصور القدرات البشرية عن ذلك عجزت عن إحصائه مع أنّه محصى من قبل الرزّاق عزّ وجلّ، ولهذا كلّ عمل قد حدث سيكون حاضرا في المستقبل لتتم المسألة ويتحقّق له الجزاء.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}385. الذين آمنوا هم الخلفاء في الأرض، وذلك لمقدرتهم على التمييز بين الحلال والحرام، ومقدرتهم على اتباع ما أحل لهم الرزّاق من رزقٍ، ومقدرتهم على تجنب ما حرّم عليهم من رزق في الدار الدنيا، وذلك لقياس ومعرفة درجات إيمانهم

384 المجادلة، 6.

385 البقرة، 172.

والتزامهم بما يأمر به وبما ينهى عنه ليتجاوز بهم إلى ما هو أفضل في الدار الآخرة.

قال تعالى: {وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ}386. التفضيل في الرزق جاء للتمييز بين من أُشبِعت حاجته وبين من لم تُشبع حاجته. والرزق يتعدد وله تضاد في عدم العطاء، فالسعة رزق في مقابل عوز، والحرية رزق في مقابل عبودية، والزواج رزق في مقابل وِحدة، والبنين والحفدة رزق في مقابل عقم، ونيل الطيبات رزق في مقابل الحرمان والحاجة.

قال تعالى: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ}387 فلو بسط الله الرزق ونشره لازداد عدد الطاغين بغير حقّ ولا نتشر الفساد في الأرض ولأزداد عدد المبذِّرين والعاصين الذين لا يُقدِّرون النعمة وفضائل الله عليهم، ولو استووا في الرزق لأنعدم التنوع وانعدمت الطاعة، وكثرت المعاصي بين النّاس ولتنازعوا واختصموا بما يتباهون به على بعضهم البعض من زينة ومظاهر لا تليق بمن يُراد له أن يكون خليفة في الأرض. ولذا فالرزَّاق هو الذي يُنزّل بمشيئته الرزق على من يشاء ليكون غنيا أو يحجبه عمن يشاء ليكون فقيرا. ولذلك ينزّل الرزَّاق الرزق تنزيلا على فترات من الزمن وعلى من يشاء من عباده؛ ولأن الله يعلم بأمر عباده الذين منهم من لو أفاض

386 النحل، 71، 72.

387 الشورى، 27.

عليه برزق لكفر بما رُزق به، ومنهم من لو آتاه رزقا لآتاه على وجهه من أجل فعل خير وإحقّاق حقّ.

حظ العبد: أنّه خُلِق عاقلا ليدرك أنّ وجود الرزق الواسع سابق على وجوده وأن الحصول عليه أو نيله لا يتم إلا بالعمل فليعمل ويبحث حتى يكتشف مصادر رِزقٍ ليستمد منها رزقه سواء كانت مصادر أساسية كالأرض والسماوات العلا أو من المصادر المستمدة منهما كالنبات والمياه والكائنات والجماد على سطح الأرض أو من باطنها، أو ما بينها وما بين السماء.

أن يتقي الله ربّه فيما رزقه من نعم وأن يتعظ بالموعظة الحسنة فالأرزَّاق تصان ولا يُعبث بها وأن يتصدَّق ويتزكَّى ممّا رزقه الله، وأن يعمل حتى يُرزق ويرتزق من ورائه آخرون.

وحظ العبد أيضا أن الرزق متاح فوجوده سابق على وجود المخلوق ولهذا فليعلم الإنسان أنّ الرزق متاح وهو وفرة إلا أنّه يستوجب العمل من قبل القادرين فإن عملوا سيجدونه وفرة تُشبع الحاجة وتزيد بكثير. وليعلم أن الرزق نوعان:

ـ الرزق المباشر: من الماء والنخيل والرمان والعنب والزيتون ومن كلّ شجرة نافعة مثمرة، وممّا تُنبت الأرض من بقول وحبوب وفاكهة، ومن الطير والحيوان الحلال وممّا يُخرجه من البحار وأنهار الأرض ومحيطاتها.

ـ والرزق غير المباشر: هو الذي يستمده الإنسان ممّا أعطاه الله من رزق مباشر من الأرض وما يُستخرج منها من ذهب أسود وما يشتق منه وكذلك من المعادن والحديد والنحاس والفضة والذهب

وغير ذلك كثير فليُنقب ويبحث ويُفكِّر حتى يرزقه الرزَّاق بالفكرة التي تمده بالرزق الواسع والنافع.

الخليفة هو الذي يؤمن بأن ما بين يديه من رزق هو من الرزَّاق العظيم، وهو الذي يؤمن بالإنفاق على ذوي الحاجات ممّا رزقه، ويعلم أن ما ينفقه من رزق فإن الله يخلفه مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}388.

ومن حظ الخليفة أن إخراج المال الحلال وإعطائه صدقة أو زكاة أو هبة لمن هم في حاجة ماسة له يُزكي المال والنفس ويطهرها بالرّحمة من الرّحمن الرّحيم. ولذا فمن أراد طهارة فليتطهر فإن أبواب الرّحمة واسعة فالصدقة كما يقولون رادة للبلية.

وعلى العبد أن يميز بين الاتكال الذي يجعله في حالة اعتماد على غير الله، وبين التوكلّ الذي لا يجعله معتمدا إلا عليه، ولهذا يعمل ويكد ويجتهد في سبيل نيل رزقه حلالا طيبا.

فالإنسان في أغلب الأحيان نجده طائعا لربّ العمل وطائعا لمن قدم له إحسانا أو أعطاه صدقة أو قدَّم له طعاما لسد جوعه مؤقتا، إنها طاعة مع خوف وطمع في غير الله، يطيع ربّ العمل ليحصل على أجرة يرتزق منها، ويطيع الحكومة لترضى عنه ولا تضايقه في أحواله، ويتملق البعض ليفوز بوظيفة أو ترقية. كلّ هذه الطاعات والتملقات لأجل ألا يُقطع رزقه بالخصم أو بالفصل أو بما هو أكبر من ذلك بكثير. مثل هؤلاء ليس من الذين يراد لهم أن يكونوا خلائف في الأرض؛ فالخليفة هو المؤمن حقّا، وهو المتوكلّ على الرزَّاق الأعظم الذي لا يَكلّ ولا يَملُّ من العطاء، ولا يعطي لينال

388 سبأ، 39.

الرضا، بل يعطي حتى يجد الراضين عنه، فليؤمن العبد بالرزّاق، ويرزق ممّا رزقه تعالى من هم في حاجة ولا يغلق أبواب الرزق والرّحمة في وجوه من هم في حاجة، فإن غَلّقهَا أغلق الله عليه أبواب رزقه الواسع. وليتذكر قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}389. قال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}390.

والرزق فيه إجمال عام مطلق غير مقيد، فقد يراد بلفظ الرزق ما أباحه الله لخلقه أو ملكه لأحد منهم، أو أنه مقيد في مسمى هذا الرزق كما في قوله تعالى: {وَممّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}391 فالإنفاق لا يكون إلا من الطيبات والذين ينفقون جانبا ممّا يرزقهم الله به في وجوه الخير والبر، وقوله تعالى: {وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ ربّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أجل قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ}392 وهنا أيضا الرزق مطلق غير مقيد بنوع، حيث يشمل الأموال والزروع والأنعام وحتى الكلّمة الطيبة هي من الرزق، وقوله تعالى: {وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا}393، وقد يراد بالرزق ما ينتفع به الحيوان وإن لم يكن هناك إباحة ولا تمليك.

وبما أنّ الله تعالى هو الواهب الرزّاق فقد ضمن للخلق رزقهم كما خلقهم، وإن كان الرزق من الرزّاق ولكنه وجب على الإنسان

---

389 الروم، 40.

390 الطلاق، 2.

391 - البقرة 3

392 - المنافقون 10

393- النحل 75

أن يأخذ بالأسباب ويعزم في التوكلّ، فمن روض على ذلك نفسه وقوي قلبه ولم يضعف بالجبن باطنه وقوي إيمانه بتدبير الله تعالى، كان مطمئن النفس أبدا واثقا بالله عزّ وجلّ، فتمام التوكلّ بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب آخر، فالذي خلق الخلق ضمن رزقهم، وهذا لا يأتي على موعد كان مضروبا للمرزوقين بما يرد عليهم من الأرزّاق العجيبة التي لم تكن في ظنهم وحساباتهم، فقد قال الله تعالى: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَربّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ}394 وفي السماء أمْر رزقكم وتقدير ما توعدون من جوانب عديدة، وهي أن أسباب الرزق ليست بيد أحد، وإنما هي في السماء، وسواء أكان مقصود بها الغيث والماء الذي يحيا به الخلق، أو أرزّاق أخرى مثل العلم والهدى والرشاد والبنين، فكلّ ذلك من أنواع الرزق التي هي في السماء، فإن كان هذا الرزق مقدرا بالغيث الذي يحمله السحاب فلا سلطة لكم عليه، وإنما أمره إلى الرزّاق يسقيه من يشاء من خلقه، وإن كان من الأنواع الأخرى فقد سبق به الكتاب، ومضى لكلّ مخلوق رزقه وأجله، لذلك ترى العقلاء من الخلق لا يسألون الله تعالى الرزق، وإنما يسألونه تيسير هذا الرزق والبركة فيه لأنهم علموا أن الله تعالى قد كتب لكلّ مخلوق رزقه كما كتب عليه أجله، وهذا معنى القناعة في الرزق. ومع هذا فإن الإنسان يجب عليه ألا يكون منتظرا للأسباب بل لمسبب الأسباب، فترك التوكلّ والاهتمام بالرزق غاية الضعف والقصور، ومن نظر إلى مجاري سنة الله تعالى علم أن الرزق ليس على قدر الأسباب، ولذلك فإننا نرى أحمقا مرزوقا وعاقلا محروما، ومن هذا الأمر أراد الرزّاق أن يدل على نفسه، إذ لو

394 - الذاريات 22، 23

رزق كلّ عاقل وحرم كلّ أحمق لظن أن العقل رزق صاحبه، فلما رأوا خلافه علموا أن الرازق غيرهم ولا ثقة بالأسباب الظاهرة لهم، قال أبو تمام:

ولو كانت الأرزّاق تجري على الحجا هلكن إذن من جهلهن البهائمُ395.

وليس الرزق من الرزّاق يقتصر على جوانب مادية دون المعنوية، وليس بالضرورة أن يكون رزقا مباشرا، فالأنعام والإحسان وغير ذلك من الحفظ واللطف، فهذا من إحسانه ومن رزقه فإنه بشهوده يحفظه من الهلاك فكلّ حال ينتقل فيه العبد فهو من إحسان الله تعالى وهذا من أعلى مراتب الرزق، إذ هو الذي نقله تعالى ولهذا سُمَّى الأنعام إحسانا فإنه لا ينعم عليك بالقصد إلا من يعلمك ومن كان علمه عين رؤيته فهو محسن على الدوام فإنه يراك على الدوام لأنه يعلمك دائما وليس الإحسان في الرزق موقوفا على الطعام والشراب والمال والمتاع الذي هو زينة الحياة الدنيا ممّا فطر عليه البشر من حب هذه الأشياء التي كثيرا من النّاس ما يحصرون الرزق فيها وقد قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ والأنعام وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}396 لذلك نرى البشر جبلوا على حب الشهوات التي تتمثل في النساء والبنين والكثرة من الذهب والفضة، والخيل الحسان المعلمة، والأنعام التي منها الإبل والبقر والغنم، وتتمثل أيضا في الزرع الكثير. لكن ذلك كلّه متاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية، وهو لا يعد

395 – ديوان أبي تمام، ص 243.

396 – آل عمران 14

شيئا إذا قيس بإحسان الله إلى عباده فيما أسبغ عليهم من نعم رزقهم بها وهم عنها لاهون لا يدركون قيمتها، ولا يعلمون أنها من الرزق في شيء، فكلّ ذلك لا يقاس بشيء ممّا عند الله الذي أعدّه لعباده في الحياة الآخرة من الرزق. فلا ينبغي للناس أن يجعلوا همّهم في هذا المتاع العاجل بحيث يشغلهم عن باقي الأرزّاق التي هي خير من الذهب والفضة مثل الصحة والعافية وهذا الماء الذي ينزله الرزّاق من السماء ليكون رزقا للبشر والشجر والدواب حيث قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كلّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}397 هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب، وبعضه ينبت منه الشجر، وفي هذا الشجر ترسلون أنعامكم لتأكلّ منه، وتمدكم باللبن واللحوم والأصواف والأوبار والأشعار، وينبت لكم بالماء الذي ينزل من السماء الزرع الذي يخرج منه الحبوب والزيتون والنخيل والأعناب، وغيرها من كلّ أنواع الثمرات التي تأكلّونها، فبعد أن ذكر الله نعمة رزقه على النّاس بتسخير الدواب والأنعام، شرع يذكّر بنعمته عليهم بإنزال المطر وتسخير الكون كلّه لهذا الإنسان، إن الذي خلق لكم الأنعام والخيل وسائر البهائم لمنافعكم ومصالحكم هو الذي أنزل المطر من السماء عذبا زلالا تشربّون منه وتسقون الشجر والنبات، وهذا الشجر والنبات هو الذي تجعلون أنعامكم ترعاه وتمدكم بما ذكر من أبواب، ثم إن هذا الماء الذي ينزله الله من السماء بقدرته فيحيي به الأرض وينبت لكم زرعكم المختلف من جميع أنواع الثمرات ويجعله رزقا لكم ونعمة منه عليكم، وفيما ذكر من الآيات

---

397 - النحل 10، 11

الدالة على قدرة الله وما فيها من نعم لا تحصى لأدلة وحججا لقوم لهم عقول تفكر بالرزَّاق، وبها يدركون حكمة الله، ويفهمونها حقّ الفهم ذلك أنه أيضا رزقهم العقل والفهم والحكمة، فالسعيد من استخدم هذا النوع من الرزق في الشكّر للرزَّاق على أنواع أخرى من الأرزَّاق المادية التي يعاش وينتفع بها. ففي إيجاد هذه الأشياء لعلامة هادية لقوم ينتفعون بعقولهم ويفكرون في الرزق الذي أوجده الرزَّاق، ولذلك أوجب الله الإنفاق من هذا الرزق الذي هو من خزائن رحمته حتى لا يكون حكرا على أحد فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآَخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}398 فالله سبحانه وتعالى جعل الكسب رزقا، وإن بذل الإنسان الكد والجهد والعمل في تحصيله، ذلك أنه رزق أولا الصحة والعافية التي كانت مدعاة لتحصيل الكسب، فجعل كونها رزقا بالأسباب التي أدت إليها، والله الذي يرزقكم من السماء بما ينزل منها من أرزَّاق الأرواح ومن الأرض بما يخرج منها من أرزَّاق الأجسام فهو الرازق الذي بيده هذا الرزق، غير أن الحجب التي يرسلها الله على بعض أبصار عباده، جعلهم لا يدركون إلا مسمى الرزق، ولم يدركوا مسمى الرزَّاق، لأنهم آثروا المال والولد على الخالق الرازق ثم أمر بالإنفاق ممّا رزق وقرنه بالإيمان وأخبر أنّه استخلفنا في ملكه اختبارا لنا فقال تعالى: {آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ}399 فسمع الغافلون نصف الكلّام فآمنوا ولم ينفقوا، وعقل العاملون كلّ الكلّام فآمنوا وأنفقوا وما يعقلها إلا العالمون المستخلفون فيها بالحقّ.

398 – البقرة 267

399 – الحديد 7

ومن أنواع الرزق الذي منحه الرزّاق لبعض خلقه دون البعض، والذي لا يلتفت إليه إلا أصحاب البصائر، ولا ينتبه له إلا أولوا الألباب، ولا يعلم قيمته إلا من ملك عقلا رشيدا ورأيا سديدا، ألا وهو الصبر حيث قال تعالى: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}400 فالذي رُزِقَ الصبرُ فإن الله تعالى قد اختصه بنوع من الرزق له من المكانة والقيمة ما ليس لغيره من بقية الأنواع الأخرى وما يُرزَق هذه السجايا إلا الذين عندهم خُلق الصبر، وما يُرزقها إلا ذو نصيب عظيم من خصال الخير وكمال النفس، فضلا عن ذلك فإن هؤلاء الذين اختصهم الله بأن رزقهم الصبر في الدنيا كان لهم جزاء عظيم في الآخرة على صبرهم هذا حيث قال تعالى في جزاء الصابرين: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}401 أي أنهم لا يحاسبون كما يحاسب بقية الخلق والمفهوم من ذلك أن الصبر أشق شيء على النفس وأكرهه وأمره على الطبع وأصعبه، لما فيه من الألم والتحمل والتجمل والحلم، ومنه التواضع والكتم وفيه الأدب وحسن الخلق وهو رزق مخصوص، فبه يكون كف الأذى عن الخلق واحتمال الأذى من الخلق، وهذه من عزائم الأمور التي تضيق منها أكثر الصدور وفيه إكراه النفوس وحملها على الشدة والبؤس، وقد جاء أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس، ولأجل ذلك اشترط الله تعالى على المتقين والصادقين الصبر في الشدائد والمكاره، وحقّق بالصبر صدقهم وتقواهم وأكمل به وصفهم وأعمال برهم فقال تعالى: {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ

400 - فصلت 35

401 - الزمر 10

الْمُتَّقُونَ}402، فمعنى الصبر حبس النفس عن السعي في هواها وحبسها أيضا عن مجاهدتها لمرضاة مولاها بمثل ما يوجب المجاهدة على قدر ما يبتلي به العبد لأن المجاهدة على قدر البلاء، والامتناع عن الشرود وحبسها على دوام الطاعة، وصبرها عن شره الطبع الذي يظهر سوء الأدب بين يدي الله سبحانه وتعالى، وصبرها على حسن الأدب في المعاملة، ثم يتفرع الصبر إلى معان شتى، فمنها الصبر عن تفاوت الأهواء والصبر على الثبات، فمن ذلك ما توجب المجاهدة صرف الهمة عن الهوى، وتطهير القلب من خطرات الهوى ونزعات الأعداء وتزيين الدنيا، ومن الآفات ما يوجب الصبر كف الجوارح عنها وحبس النفس عن المشي فيها، ومن الصبر حبس النفس على الحقّ وعكوفها عليه بمعاملة اللسان والقلب والجسم، وبذلك وصف الله تعالى عباده الذين يعملون الصالحات واشترط لصلاح أعمالهم الصبر وأخبر أن النّاس كلّهم في خسران إلا من كان من أهل الحقّ والصبر، وعظّم الصبر فأفرده بإعادة التواصي به ولما كان ذلك كذلك فإن الصبر يكون رزقا مخصوصا لأناس مخصوصين لا يدخل فيه العموم، وإن الخلق كلّهم مرزوقون ولكن بدرجات متفاوتة، ومن الصبر حبس النفس على القناعة بما قسمه سبحانه وتعالى، وصبرها على القناعة وعلى صنع الرازق، ومن الصبر كف الأذى عن الخلق الذي يدخل في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ}403 فالأمر بالإحسان هو أمر بالأخذ من أفضل أنواع الرزق الذي يهبه الرزّاق لمن يشاء من الخلق، حيث أن الإحسان هو الأنعام الذي ينعمه الرزّاق على عباده، ثم احتمال الأذى عن الخلق وهو مقام المحسنين الذين ينفقون ممّا رزقهم الرزّاق

402 - البقرة 177

403 - النحل 90

من الإحسان، ومن الصبر، الصبر على الإنفاق وإعطاء أهل الحقّوق حقّوقهم الأقربّ فالأقربّ، ومن كان كذلك فقد أدى حقّ ما رزقه الله لقوله تعالى: {وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} ومنه الصبر على الفحشاء وهو الأمر الفاحش في العلم والإيمان، ومن كان بعيدا عن الفحشاء فقد رزق الحياء، والصبر عن المنكر وهو ما أنكره العلماء وأهل العقل، ومن صبر على المنكر فقد رزق المعروف، والصبر عن البغي وهو التطاول والغلو ومجاوزة الحد بالكبر والإسراف في أمور الدنيا، فمن ابتعد عن البغي فقد رزق العدل، فمن كان من الصابرين فقد رزق العدل والإحسان والأنفاق، فأخذ بأفضل ثلاث خصال، وابتعد عن أسوأ ثلاث خصال وهي الفحشاء والمنكر والبغي، ومن يكون كذلك فقد رزق مكارم الأخلاق، فالذين صبروا، ما أنعم أجرهم حتى وصفهم بالصبر، وما أكرم رزقهم ووصفهم حتى مدحهم بالصبر، والصبر يُحتاج إليه قبل العلم، ومعه وبعده، غير أن كثيرا من الخلق لا يدركون هذه المعاني من دلالات الرزّاق التي تفضل بها على بعض خلقه دون البعض الآخر لعلمه تعالى ولمشيئته حيث قدَّر ذلك علام الغيوب فقد قال تعالى: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}404 لأنه أراد سبحانه أن يفيدنا فضل بيان ويعلمنا اقتران الرزق بالخلقة، وأنهما مسببان عن القدرة، فالمتوكلّ قد أيقن أنه لم يكن على الله أن يخلقه، فلما خلقه كان عليه أن يرزقه، وهذا الذي ذكرناه من أن الله سبحانه وتعالى هو المعطي المانع الضار النافع حيث كان هو الخالق الرازق كيف شاء، ومتى شاء، ولمن شاء، بما شاء، ومن تذمر من رزقه فقد تذمر من الرزّاق جل شأنه، وأوكلّ

404 - الأنبياء 23

نفسه إلى الحسد، وهؤلاء إنما فيهم جهلا بالحكمة وغفلة عن الحاكم، وجهلا بالرزق وجحودا بالرزَّاق، حيث يحيلون ذلك إلى عاداتهم وحظوظهم ويريدون أن يكون رزقهم من حيث ما اعتادوا عليه، أو من حيث معقولهم باختيارهم، ومعقولهم بالعز والفخر والتطاول، لا على الذل والتواضع والفقر والمسكنة، ولا يكلّون أمورهم إلى الله ويرضون بتدبيره وتقديره أن يرزقهم كيف شاء وبيد من شاء فيؤثرون أخلاق المسرفين على أخلاق المتواضعين، لبعدهم من مشاهدة اليقين ولاستيلاء أخلاق النفس الأمارة بالسوء عليهم، ثم إن نفوسهم مع علمهم أن الخلق والأرض كلّه لله عزّ وجلّ، وأن الحمد والملك له، قد تطمع في غير الله وترجو سواه، وقد تضطربّ بجبلتها عن أثقال الحقّائق، وقلوبهم لا تطمئن بل تنزعج عند الابتلاء بالمصائب والفاقات، ولا تصبر للخالق على استبطاء الرزق الذي هو مكتوب من الرزَّاق فقد قال صلّى الله عليه وسلّم: "ما تركت شيئا يقربّكم من الجنّة ويباعدكم عن النّار إلا قد بينته لكم، وإن روح القدس نفث في روعي، وأخبرني أنها لا تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها، وإن أبطأ عنها، فيا أيها النّاس اتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملن أحدكم استبطاء رزقه أن يخرج إلى ما حرَّم الله عليه"405.

أنّ الله تعالى يعطي ما شاء لمن شاء فيزيد وينقص كما يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أي يوسع ويضيق على خلقه بما جرى عليهم القلم، فإن الإنسان لو هربّ من رزقه لأدركه كما لو هربّ من الموت لأدركه الموت، وأن رزق الدنيا لا ينقطع عن العبد حتى يأتيه أجله، فحينئذ ينقطع عنه رزق الدنيا ويدخل في رزق الآخرة، فيكون أول

405 – مصنف عبد الرزاق 11،125

رزق الآخرة آخر رزق الدنيا ولا آخر لهذا الرزق، لو أنّ إنسانا سأل الله أن لا يرزقه لم يستجب له، فالله سبحانه وتعالى خلقه وضمن له رزقه إلى أجله المعلوم بصرف النظر عن الطاعة أو المعصية فهو خلقه ولابدّ من أن يرزقه أبدا، ولو أن إنسانا آخر سأل الله أن يكون له مثل ما أوتي غيره من النّاس في الرزق من زينة الحياة الدنيا لما استجاب الله له أيضا لأن ذلك مخالف لما قضاه الله تعالى وقدره، حيث نقف على مثل ذلك في قوله تعالى: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ}406 فالتكسب والأسباب طرق أودعها الله العطاء، والأرزّاق لا هي تعطى وترزق بمنزلة الأشياء من الأشخاص حيث تكون في متناول يده متى أراد، ولا يستطيع أحد أن يؤجلها لوقت حاجته، فالمتوكلّ موقن أنّ الله سبحانه هو المعطي والمانع، وأنه هو المسبب الرازق، وأنه هو الأوّل في التصريف والآخر في التقليب.

ونحن نعلم أن الرزّاق لا يتوقف رزقه على ما يعتاش به المخلوق من الطعام والشراب، ولكن هناك أرزّاق مخصوصة للإنسان الذي رزقه الله العقل، لذلك ترتب على هذه الهبة الإلهية أرزّاقا أخرى تتناسب مع طبيعة هذا المخلوق، وكذلك الأمر بالنسبة للمخلوقات غير العاقلة فقد رزقت أشياء أخرى غير التي تعتاش بها من الطعام والشراب، وهذه الأرزّاق متفاوتة ومتباينة بين المخلوق العاقل وبين غيره من المخلوقات، ومتفاوتة ومتباينة بين كلّ نوع من المخلوقات، فأما الذي يشترك به جميع المخلوقات هو ما يعم الجميع من الرزق

406 - القصص 79- 80

المحسوس الذي يشترك جميع الحيوانات وجميع النّاس من طائع وعاص وسعيد وشقيّ حيث قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كلّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}407 فمن هنا نتبين أن قدرة الله ونعمه وعلمه ورزقه شامل لكلّ شيء، فلا توجد دابة تتحرك في الأرض إلا وقد تكفَّل الله سبحانه برزقها المناسب لها في مختلف البيئات تفضلا منه لأن الذي خلق الخلق ضمن لهم الرزق، وهو يعلم مكان استقرارها في حال حياتها، والمكان الذي تودع فيه بعد موتها، وكلّ شيء من ذلك مسجل عنده سبحانه في كتاب موضح لأحوال ما فيه، وهذا النوع من الرزق الذي وهبه الرزَّاق لخلقه هو رزق العموم المطلق الذي ليس فيه استثناء، وهو الغذاء الضروري لحياة جميع الأحياء من إنسان وحيوان ونبات، بما يتناسب مع طبيعة خلقه، ثم يأتي التفاوت والاختلاف في الكم والنوع حسب طبيعة الخلق، وأول هذه المخلوقات المرزوقة – غير الغذاء- هو الإنسان، فالله تعالى رزق جميع البشر عقلا يتساوون به، إلا في حالتين استثنائيتين هما العبقري والمجنون، وبين هذا وذاك درجات ولكلّ خصوصية سبحانه إنه على كلّ شيء قدير، وكلّ ذلك لحكمة أرادها الرزَّاق جلّ جلاله، وسنتكلّم عنهما بشكلّ مقتضب والحكمة الإلهية من ذلك, ثم نبسط القول في أرزَّاق العقول الطبيعية وتنوع تلك الأرزَّاق واختلافاتها.

أمّا المجنون الذي لم يرزق العقل، فإنّ الحكمة التي أرادها الرزَّاق هي أن يتفكر أصحاب العقول بأي نوع من الرزق أكرمهم الرزَّاق به في تصريف أمورهم والمحافظة على هيبتهم وما إلى ذلك ممّا يمتاز به العاقل عن المجنون، فيعلم قدر النعمة وقيمتها التي أكرمه الرزَّاق بها،

407 - هود 6

فيحمده ويشكّره ويتوب إليه، وأما العبقري الذي خصه الله بعقل امتاز به عن جميع العقلاء فهي حاجة إنسانية لا تعني الشخص نفسه لأننا نجد النتاج العقلي لأمثال هؤلاء يتعدى الخاص إلى العام، وهذا يعني أنه من خصوص العموم، لذلك لم نجد أحدا من هؤلاء على الرغم من انتمائهم لأمم مختلفة، أنهم يكنون العداء لأمة أخرى وهذا من حكمة الرزّاق الذي جعل عقولهم رزقا للبشرية التي أساءت استخدام هذا الرزق فيما بعد، فمن هؤلاء أينشتاين في النظرية النسبية، وأديسون الذي أخترع المصباح الكهربّائي، ونوبل الذي اخترع المتفجرات، ومدام كوري التي اكتشفت اليورانيوم، وغيرهم كثير، فلم يكن أحد من هؤلاء يفكر في جانب الشر الذي يكمن في هذا النوع من الرزق، وما كان همهم وانشغالهم إلا بما يقدمون من الخير للإنسانية التي أساء بعض أفرادها التصرف بهذا الرزق، لذلك وجدنا ردة الفعل عظيمة عند نوبل عندما رأى اكتشافه يستخدم للقتل والدمار، فما كان منه إلا أن نذر جميع ثروته على شكلّ جوائز لمن يقدم خدمة تفيد الإنسانية في وجوه الخير شعورا منه أن هذا النوع من الرزق استخدم في غير مجاله. وأما بقية بني البشر فهم متساوون في دائرة التوسط في أن رزقوا هذا العقل، وهو تساوٍ فطري في الارتزاق به، وإن كان للذكاء بينهم درجات، ولهذا يكون التفاوت فيما بينهم يعود إلى الذكاء المكتسب من مجالات الحياة في العلوم والآداب والفنون على اختلاف أنواعها، وكلّ ذلك ينطوي تحت راية الرزق من الرزّاق في هبته تعالى لهذا الوجه من الخير، وأوّل أرزّاق العقل هو العلم والمعرفة على اختلاف أنواعها دون تحديد أو استثناء لأي نوع من أنواع هذه العلوم الشرعية أو الوضعية، ونحن لا نفاضل بين أنواع الرزق العقلي لأن الرزّاق هو الذي قدّر المقادير والحاجات لهذا العلم أو ذاك، على أننا نجد الغالبية العظمى من بني البشر لا

يطلقون اسم عالم إلا لمن كان له باع طويل في الطب أو الهندسة أو الجينات الوراثية أو في عوالم الأحياء المائية إلى آخر ما هنالك من أنواع هذه العلوم الوضعية، ولا يطلقون هذه التسمية على الذين يشتغلون بالعلوم الشرعية والإلهيات التي هي من أرفع أنواع العلوم وأشرفها، حتى أن الفلاسفة الذين هم وضعوا أسس المعرفة جعلوا الميتافيزيقا والإلهيات أعلى درجات المعرفة، ذلك أن أمر العلوم التي رزقها الرزّاق للخلق إنما تتدرج من الأدنى إلى الأعلى، فكان أول العلوم وأدناها هو علم التشريح بصرف النظر عن توجيهه سواء إلى الإنسان أو الحيوان أو النبات، فلو أخذنا قطعة من الخشب وشرحنا هذه القطعة فنكون بدأنا بأول العلوم التي سوف تظهر لنا عددا من القطع من خلال التشريح، فإذا أحصينا هذه القطع نكون قد انتقلنا من التشريح إلى الحساب الذي هو أرفع درجة لأنه اشترك بين الواقع والذهن، وبعد ذلك سوف نجد الدوائر والزوايا والمستقيمات في هذه القطعة أو تلك فيظهر لنا علم الهندسة الذي هو أرفع من الحساب، وكلّما تقدمنا مرحلة تبدأ عملية التسامي من الواقع إلى الذهن، فكلّما ترفعت العلوم عن الواقع زادت رتبة في الشرف، وهكذا فالجبر أعلى من الهندسة لأنه يتجرد من الواقع إلى الفرضيات التي تثبت النظريات بحيث تؤسس علم الفلك، ولذلك كانت الموسيقى والشعر والفنون بشكلّ عام هي أرفع من العلوم لتجردها عن الواقع، فكلّما ازداد التسامي والتجريد في علم من العلوم كانت درجته أشرف من سابقه، ولذلك كانت الميتافيزيقا وما وراء الطبيعة والبحث في علم الإلهيات من أشرف العلوم لأنها تبحث في الغيبيات لذلك كانت العلوم الشرعية أشرف العلوم من هذا الباب، وهذا لا يعني أن العلوم الطبيعية منقوصة الشرف بل العاملين في مجالاتها هم شرفاء بالبحث والتجريب والتطوير الذي هو في حركة دائمة لأجل تحسين أحوال

العيش وتطوير مصادر الأرزّاق للعباد، وعليه لا شرف في العلم مهما كان إن لم يكن عائدا بالنفع على العباد. قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}408 ولذا فمن رُزِقَ هذا العلم المنتج والمبدع والمؤدي للإصلاح في الأرض وإعمارها فقد أوتي خيرا كثيرا، ولا يتوقف هذا النوع من الرزق على العلم فقط، وإنما يحتاج من يشتغل بهذا النوع من الرزق إلى أن يرزق الفهم.

وعليه كلّ هذه الأرزّاق إشارة إلى نعيم الدنيا ولكن من حيث أنه معين على الآخرة فهو نعمة، ولذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "من أصبح منكم معافي في جسده آمنا في سربّه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا"409.

وأمّا الأهل والولد الصالح فلا يخفي وجه الحاجة إليهما وأنهما رزق من الرزّاق، إذ قال صلّى الله عليه وسلّم: "ألا أخبرك بخير ما يكنزه المرء، المرأة الصالحة، إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته"410 فهذا خير من رزق الذهب والفضة والمتاع، وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة، من صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له"411.

وعليه فالرزق من الرزّاق الكريم لا يقتصر على الأقوات والمعاش كما يفهمه البعض قال الله تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ

408 – الأنعام 38

409 – سنن ابن ماجة، ج 12، ص 171

410 – المستدرك للحاكم، ج 7، ص 418

411 – سنن النسائي، ج 11، ص 424

إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ}412 حيث يدخل في ذلك كلّ أنواع الرزق وأدناها الرزق المادي وأعلاها الرزق العقلي وما اجتمع بينها كالسمع والبصر والتذوق والشم وما تختص به الجوارح التي يملكها المرزوق وصفوة القول وخيره ما قاله الله تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}413.

وعليه أتساءل:

أإله كريم يخلقك، ويخلق لك رزقا، ويغفر لك ذنبا وخطيئة، ويُبشرك بالجنّة هو أولى بالعبادة أم إله يُخلق ولا يَخلق شيئا ولا يحيي ولا يميت ولا يرزق؟ {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ}414

ثالثا ـ المصدر الذي يُخلق: هو الذي يُستمد ويشتق ممّا خَلق الله من أرزّاق، فبالعلم تُكشف الأشياء ويتم التعرف عليها، ومنها يصنع الرزّاق بالإضافة (الخليفة) رزقا يُحسِّن حياته به ويُشبع حاجاته المتنوعة والمتطور.

ولذلك، نقّب في الأرض حتى اكتشف الحديد رزقا والنحاس والذهب اصفرا واسودا، وعبّد الطرق وشقها وهو يطوي المسافات مثلما يطوي الحديد؛ ثم رفع رأسه من على الأرض التي منها خُلق وعليها يرتزق إلى السماء، ففكر في طي المسافة بينهما حتى اكتشف قانون الجاذبية الذي به تمكّن من غزو الفضاء، ثم طوّر أحواله وحياته بما تصنع يداه ولا زال يُطوّر بيديه وبعقله العلوم المتنوعة.

---

412 – النحل 35

413 – إبراهيم 34

414- الغاشية، 20، 21.

وكما قلنا الأرزّاق تتعدد والرزّاق واحد، فعلى مستوى البناء الخَلقي للإنسان الذي خلقه الله تعالى في أحسن تقويم، فقد رزقه بما يميزه عمَّا خَلق، ورزقه أيضا بما يماثله مع ما خلق، وفيما يميزه فقد رزقه بأربّعة أشياء عظيمة هي:

الشيء الأوّل رزقه العقل: ممّا جعل له ذاكرة تصنع التاريخ وتحفظه ثم تنقله تراثا ومواعظ حسنة لأجل مستقبلٍ أفضل وأجود وأفيد وأنفع. ولذلك، رُزِق الخلاَّق بالإضافة عقلا يميزه عن تلك الدواب التي لا تدرك شيئا صم بكم لا يتذكرون ولا يستطيعون أن يتفكروا {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ}415. ولولا العقل الذي رُزِقَ به، ما استطاع آدم عليه الصّلاة والسّلام أن يُنبئهم بأسمائهم، ولذلك العقل المميز أُمرت الملائكة أن تسجد له طاعة لله الذي أصدر الأمر بالسجود لآدم.

قال تعالى: {وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}416 أي أنّ الإنسان الذي ميزه الله بالعقل هو وحده من بين المخلوقات يعقل أمر الرياح والسحاب ويدرك العلاقة بينهما وبين السماء والأرض وبين ما سيترتب على حياته وحياة المخلوقات التي لم تأت الرياح إليها بالسحب وبين حياة المخلوقات التي سيسقط المطر عليها فَتُحي الأرض بعد موتها.

الإنسان الذي ميزه الرزّاق بالعقل يفكر ويتذكر ويستقرئ ويستنبط ويخطط ويقوّم ويستنتج حتى يتبين ما يجب ويُقْدم على فعله أو عمله، ويتبين ما لا يجب ويحيد عنه أو يبتعد ويفكر في البديل الأنسب.

415- الأنفال، 22.

416 - البقرة، 164.

الشيء الثاني رزقه الضمير: الضمير حاسة مترتبة على حاسة العقل الذي رزق الله به العباد قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}417 ولذا؛ فالضمير يتكون من مجموع القيم والفضائل الاجتماعية والإنسانية التي تُهذِّب الأخلاق، فهو الضابط للسلوك وفقا لما ترشد إليه الأديان والقيم الإنسانية وأعراف المجتمع، وهو الذي له علاقة بذاكرة التاريخ وما ينبغي أن يكون من أجل رضاء يستوعب الآخرين في حدود القيم والفضائل المرضِيَة لضمير المجتمع.

هذه الحاسة المميزة للخلق الإنساني هي التي تجعله يتألم من ارتكاب الأعمال المشينة للدين والأخلاق والقيم، وهي التي تجعله يغضب من أجل الكرامة ويثأر.

الضمير بيت التقوى، فالذي يمتلك ضميرا مدركا لما يجب ولما لا يجب مع وافر التقدير لا يُخِيفَك في شيء إن كنت على الحقّ، وإن لم تكن على الحقّ فتكون له مع الشدة قوّة وثبات لا يحيده حائد عنه إلا حجّة وتقوى قال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}418 وقوله تعالى: {ولكم في القصاص حياة يا أولي اللباب لعلكم تتقون}419. فأولي الألباب هم المؤمنون أصحاب الضمائر بالقلوب لا بالأفواه مصداقا لقوله تعالى: {يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ}420،

417 - الحج، 46.

418- المائدة، 100.

419 - البقرة، 179.

420 - آل عمران، 167.

وقوله تعالى: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}421. وقوله عزّ وجلّ: {ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم}422.

الضمير رزق نافع من الرزّاق الأعظم إلى الرزّاق بالإضافة ليكون عادلا ومعتدلا مع ما يستمع إليه ومع ما يقوله أو يفعله، فالضمير هو الذي به يتمكن الخليفة من حمْل المسؤولية، وتحمُّل ما يترتب عليها من أعباء. ولهذا فمن لا يرزقه الرزّاق الأعظم بضمير نافع لن يكون قادرا على حمل المسؤولية وتحمّل أعبائها الجسام.

الشيء الثالث رزقه القامة السوية: قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}423، في أحسن تقويم تعني في أحسن صنعة يمشي سويا متميزا بالقامة والبهاء ليس كمثله شيء ممّا خلق من المخلوقات الأخرى التي تمشي مُكبة على وجوهها أو تزحف على بطونها.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}424، لماذا الغرور أيها الإنسان وأنت تعلم أن الحياة الدنيا حياة متاع وغرور {فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ}425، واتقِ الله الذي خلقك فسواك فعدلك واتق الله الذي رزقك بالقامة السوية

421 - الحج، 46.

422 - الحجرات، 14.

423 - التين، 4.

424 - الانفطار، 6 . 8.

425- لقمان، 33.

ليميزك عما خلق كما ميزك بالعقل والضمير الذين بهما تعرف وتدرك وتبحث وتتذكر وتفكر حتى تتبين الحقّ من الباطل.

قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}426، في تقديرنا (في كبد) أي خُلق ونحن نعلم بألم والديه ومن لهم علاقة به كلّما تألم وذلك لإحساسهم بحاله وما يلم به من مرض أو حاجة إن لم تُشبع، ويقول القرطبي في كبد قائم في خلقه في وسط بطن أمه وهو مستوي القامة427.

الشيء الرابع رزقه الذوق الرفيع: الذي به يتذوق المعنى والدلالة وبه تُرسم الصور البلاغية وتُستمد لتتجسد في القول الحقّ والفعل الحقّ والسلوك الحقّ. قال تعالى: {هل جزاء الإحسان إلا الإحسان}428، أي: لا جزاء عظيم للإحسان إلا المكافأة عليه بالجنّة وقوله تعالى: {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ}429.

الذين يمتلكون حاسة الذوق الرفيع يميزون بين الحسن والأحسن، والجيد والأجود وكذلك الأكثر جودة، ولذا فبذوقهم يتمكنون من الاختيار الأفضل والأروع والأكثر نفعا.

قال تعالى: {فإذا انشقت الأرض فكانت وردة كالدهان}430، صورة جمالية ترتسم في ذهن المتذوق حتى تمده

426- البلد، 4.

427- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 20، ص 63.

428 - الرّحمن، 60.

429 - الزمر، 18.

430 - الرّحمن 27.

بالذوق الرفيع وتجعله من الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك.

وقال عزّ وجلّ: {يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتنَّ تُردنَّ الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكنَّ وأسرحكنَّ سراحا جميلا وإن كنتنَّ تردنَ الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكنَّ أجرا عظيما}431. وقال تعالى: {فمتعوهنَّ وسرحوهن سراحا جميلا}432.

فلننظر إلى البناء الذوقي للكلّمة والجملة والصورة والأسلوب والمعنى والدلالة حتى نتبيِّن وندرك المقدرة الذوقية التي رزقنا وميزنا الله بها، ولنتعظ فيما نقول وما نعمل ونتقي الله ربّا.

رزقنا الله تعالى بالذوق معاملة رفيعة وحسنة مثلما الدين معاملة رفيعة وحسنة، قال تعالى: {وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفَّارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون}433. تحتوي هذه الآية على مجموعة من الأحكام العادلة للقصاص، حتى لا يَظلم أحد أحدا. وهذا ما فرضه الله تعالى على اليهود في التوراة أي أن النفس لا تقتل إلا في مقابل نفس قتلتها، ولا تُفْقَأ عينٍ إلا في مقابل عينٍ فقأتها، وهكذا إلا إذا عفي أحد عن أحدٍ فَيُكفِّر الله عنه ذنوبه.

431- الأحزاب، 28، 29.

432 - الأحزاب، 49.

433 - المائدة، 45.

قال تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ}434. إنها منظومة من القيم مبثوثة بذوق رفيع في هذه الآيات الكريمة، فيها من الصور الجمالية ما يُمكِّن المبدعين من رسم لوحة أو كتابة قصة أو رواية لتنسج علاقة صلة جمالية بين المؤمن وما بشر به في الجنّة.

قال تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ}435.

وعليه: فبهذه الأشياء الأربّعة تميَّز الإنسان بما رزقه الله من خصوصية عن غيره من الحيوانات والكائنات الأخرى، وتماثل معها في حواسه الأخر فهي تبصر كما يبصر وتسمع كما يسمع وتشم كما يشم وتذوق المحسوس بطعمه كما هو يذوقه محسوسا بطعمه وهكذا للحيوان عاطفته مثلما للطير عاطفته وللإنسان عاطفته. ولأن الإنسان قد رزقه الرزَّاق المطلق العقل والضمير والقامة السوية والذوق الرفيع فهو يختلف عن الحيوانات والكائنات الأخر في كونه يُحب ويكره، وهي لا تحب ولا تكره كما هو يحب ويكره، فهي فقط تثور وتهدأ، ولهذا فهي قابلة للترويض من قِبل المدركين لأساليب الترويض بما ميزهم به تعالى من مدركات عقلية، وبما اكتسبوه من مهارات فنية وخبرة وتجربّة.

434 – الغاشية، 8، 16.

435 – الغاشية، 17 . 21.

النبي

زكريا من السنّة

النبي زكريا عليه السّلام من أنبياء بني إسرائيل، وهو من دخل المنافسة مع غيره من أجل كفالة مريم؛ فكانت الاستجابة والحظ أن يكون زكريا عليه السّلام كفيلا؛ أي بعد أن لجأ المتنافسون إلى أجري القرعة، كانت كفالتها من حظ زكريا.

نشأت مريم كما سبق وأن بينا نشأة دينية، وتفرغت للعبادة، فكان زكريا يجد عندها رزقا من رزق الله لم يأتها به، وفي غير وقته، وهذا من إكرام الله لها.

كان زكريا عليه السلام يخشى على دين الله من المفسدين والمارقين، وهذه الخشية جعلته يدعوا ربّه سائلا أن يرزقه ولدا لتكون سلالة آل يعقوب وارثة لذلك في بني إسرائيل؛ فاستجاب الله له وبشّرته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أنّ الله يبشرك بيحيى، وأنّه سيكون من الأنبياء الصالحين، وأنّه خير أهل زمانه.

توالت على زكريا عليه السّلام في زمانه كثير من الشدائد الثقال، ومع ذلك كان صبورا، وبالزّمن وهن العظم منه واشتعل الرّأس شيبا، وفي كلّ أعوامه الناضجة كان من الصّالحين الربّانيين الذين يخدمون الهيكلّ، حتى أنبأه الله تعالى واصطفاه نبيا كريما. فقام عليه السّلام يدعو قومه إلى دين الله الإسلام وعبادة الله وحده، ويحذرهم عذابه، وذلك بما هم عليه من فسوق وفجور ومفاسد، إلى جانب تسلط الملوك على الحكم وكذلك تسلطّهم على الأنبياء والصّالحين وسفك دمائهم.

إنّ الله تعالى اجتبى واصطفي زكريا عليه السّلام لرسالته، وخصّه بوحيه، فقام بذلك قيام أمثاله من الأنبياء والمرسلين عليهم الصّلاة والسّلام، ودعا العباد إلى عبادة الله ولا يشركوا به شيئا، وعلّمهم ما علمه الله، ونصحهم نبأ وعلما ومعرفة وحكمة.

كفالة زكريا لمريم:

كان نبي الله زكريا عليه السّلام متزوجًا بإيشاع أخت مريم وهذا قول الجمهور، وقيل زوج خالتها إيشاع، ولذلك فلا يقين إلّا من القرآن، والقرآن لم يذكر ذلك.

كانت زوجة عمران من الصّالحات العابدات قد كبِرت وعجزت ولم تلد ولدًا؛ فدعت الله تعالى أن يهبها ولدًا، ونذرت إن رزقها الله تعالى ولدًا أن تجعله من سَدَنة بيت المقدس وخدمه، وحررت ما في بطنها، ولم تكن تعلم ما الحمل، وكان النذر المحرر عندهم هو أن يصبح الولد لله يقوم بخدمة المسجد ولا يبرح منه حتى يبلغ الحلم؛ فإذا بلغ خيّر، فإن أحبّ أن يقيم فيه أقام وإن أحبّ أن يذهب ذهب حيث شاء.

وقبل الولادة مات الرّجل الصّالح (عمران) أبو مريم في حملها؛ فلمّا وضعت أمّ مريم حملها إذا هو أنثى، فقالت: {ربّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}436 أي أنّها تعتذر لربّها لأنّها لم تنجب الذّكر الذي نذرته لخدمة الله تعالى، كون الأنثى لا تصلح لما يصلح له الذّكر من خدمة المسجد والإقامة فيه.

[436] آل عمران 36.

وضعت أمّ مريم ابنتها عند الأحبار العلماء أبناء هارون، وقالت لهم: "هذه المنذورة" فتنافسوا فيها لأنّها كانت بنت إمامهم وسيدهم عمران الذي كان من علماء بني إسرائيل الصّالحين، وكانوا يقترعون على الذين يؤتون بهم إلى المسجد لخدمته، فقال زكريا عليه السّلام وكان نبيهم يومئذ: أنا أحقّ بها لأنّ خالتها عندي، وذلك أنّ الخالة تعد بمنزلة الأم، فأبوا وطلبوا الاقتراع عليها وقالوا: نطرحُ أقلامنا في النّهر الجار، قيل هو نهر الأردن فمن صعد قلمه فوق الماء فهو أحقّ بها؛ فذهبوا إلى ذلك النّهر وألقوا فيه أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة؛ فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم، فأخذها زكريا عليه السّلام وكفلها وضمنها إلى خالتها ‘‘أمّ يحيى’’ واسترضع لها حتى كبرت ووضعها في غرفة في المسجد لا يرقى إليها إلا بسلم ولا يصعد إليها غيره. وكان يغلق عليها الباب ومعه المفتاح لا يأمن عليه أحدًا، وكان بين الحين والحين يخرجها لخالتها مؤقّتا.

كان نبي الله زكريا عليه السّلام يرى من عجائب قدرة الله تعالى من الكرامات في حفظ هذه السيدة الطاهرة العفيفة ما يبهر العقول، يقول الله تعالى: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}437.

كان نبي الله زكريا عليه السّلام إذا دخل على مريم عليها السّلام في المحراب وهو معبدها الذي تعبد فيه الله تعالى يجد عندها من الرّزق ما لم يكن يتوقّعه، إنّها رعاية الله عزّ وجلّ وكفالة زكريا عليه الصّلاة والسّلام.

---

437 آل عمران 37.

في ذلك المعبد الربّاني كانت الفتاة الصّالحة الشّريفة (مريم) تتعبّد توحيدا لله تعالى ليلها ونهارها.

دعاء زكريا:

كان نبي الله زكريا عليه السّلام وقد تقدمت به السّن وانتشر الشيب في رأسه وبلغ من الكبر عتيًا، وكانت امرأته عاقرا لا تلد، ولكنّه لما رأى فضل الله الرزّاق على مريم المكفولة من قبله، تبيّنا له أنّه لا شيء مستحيل على الله تعالى فدعاه بالرّغم من أنّ زوجته عاقرا وقد تجاوزت عمر الإنجاب؛ وكانت لزكريا رغبة (أن يرزق بولدٍ)؛ فطلب ربّه أن يرزقه غلامًا تقيًا يرثه في العلم والنبوّة ويكون رحمة بين النّاس؛ {هُنالِكَ دَعَا زَكريَّا ربّهُ قالَ ربّ هَبْ لي مِن لدُنْكَ ذُرّيَّةً طيّبةً إنَّكَ سميعُ الدُّعاء}438

والذي يجب التوقّف عنده هنا، هو: أنّ العاقر لا يمكن أن تلد، وذلك لأنّها عاقر. أي لم تخلق فيها أنوثة الإنجاب، بمعنى: أنّها لم تعد خلقا لتكون منجبة، وهذه مشيئة الخالق {يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}439، وقد البعض يقول: أنّ الطبّ الحديث قد بلغ من العلم ما بلغ مقدرة ومعرفة تمكّن من أن تجعل العاقر منجبة.

أقول:

الطبّ بلغ من المعرفة العلمية مبلغ عظيما، ولكنّه لا يعالج إلّا من هي لم تحرم خلقا من معطيات الإنجاب، ولهذا وجب التمييز بين

[438438] آل عمران 38.

[439] الشورى 49، 50.

المرأة التي لم تحمل بعلل يمكن علاجها، وبين امرأة عاقر (لا إمكانية لأن تنجب) ولهذا؛ فللمرض علاج (المرض الذي يعيق أن تحمل الأنثى) أمّ العقم فلا علاج له لأنّه خلقي.

وعليه؛ فإنّ حمل زوجة زكريا معجزة، لأنّ زوجته عاقر، وهذا الأمر لا يكون خاضعا إلّا للأمر (كن) الذي لا يكون إلّا أمرا من عند الله تعالى.

وحتى لا يتعصّب البعض لأقوالهم أنّ للعقم علاج ودواء أقول:

عليكم أن تميّز بين أربّعة حُجج هي:

الحجّة الأولى: إنّ العمل المستحيل لا يكون إلّا بيد الله تعالى. ومن هنا كان إنجاب العاقر بإذن الله

الحجّة الثانية: إنّ العمل المعجز لا يكون إلّا على أيدي أنبياء الله ورسله، وهنا تعدّد معجزات الأنبياء والرّسُل عليهم الصّلاة والسّلام.

الحجّة الثالثة: إنّ عمل الخوارق لا يكون إلّا على أيدي النوابغ بإذن الله. وهنا تمّ غزو الفضاء ولا يزال يغزى علما ومعرفة من قبل النوابغ الكرام.

الحجّة الرّابعة: إنّ عمل الممكن لا يكون إلّا على حالتين:

الأولى: الممكن المتوقّع، وهو الذي يكون على أيدي عموم النّاس بإذن الله. ومن هنا، كان علاج من لا تلد طبّا ولا استغراب.

الثانية: الممكن غير المتوقّع، وهو الذي لا يكون إلّا على أيدي متحدّي الصّعاب بإذن الله. وهنا كان بلوغ الحلّ والاستغراب يصاحبه.

وعليه؛ فإنّ حمل زوجة النبي زكريا بيحيى لم يكن من الخوارق كما أرثاءه البعض من المحلّلين والمفسّرين، بل هو عمل معجز، ذلك لأنّ عمل الخوارق يتحقّق على أيدي البشر؛ أمّا المستحيل فلا يكون إلّا أمرا نافذ من أمر الله تعالى.

ومن هنا جاء الدّعاء استجابة، مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ ربّ رَضِيًّا}440؛ أي يرثني في العلم والنبوّة والحكمة والحكم في بني إسرائيل، فكانت الاستجابة الإلهية: {فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِّمَةٍ مِّنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ}441

ولما بُشّر نبي الله زكريا عليه السّلام بالود الذي سأل، فكان الاستغراب ظاهرا عليه بالرّغم من يقينه أنّ الله على كلّ شيء قدير، ولا استحالة أمامه: {قَالَ ربّ أَنَّ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا}442

ويقصد النبي زكريا أنّه قد كبر وعتا، ولكنّ دعاؤه أجيب، وقال له الملك الذي يوحي إليه بأمر الله ما أخبر الله به في قوله: {قَالَ

440 مريم 5، 6.
441 آل عمران 39.
442 مريم 8.

كَذَلِكَ قَالَ ربّك هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا}443.

وهكذا أصبح نبي الله زكريا مرحوما بيحي عليهما الصّلاة والسّلام {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}444

زكريا يوكلّ أمره لربّه تعالى:

قال تعالى: {قَالَ ربّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ ربّ شَقِيًّا}445 تشير هذه الآية إلى إيمان زكريا حيث لا شكّ في إيمانه، ويفهم من هذه الآية الكريمة أنّ زكريا قد أوكلّ أمره وسؤاله إلى الوكيل الأعظم، (قَالَ ربّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا)، ومن هنا كانت الإجابة من الْوَكِيلُ الذي أوكلّ الأمر إليه وهو "المتولي لتدبير خلقه، بعلمه، وكمال قدرته، وشمول حكمته. الذي تولى أولياءه، فيسرهم لليسرى، وجنبهم العسرى وكفاهم الأمور. فمن اتخذه وكيلا كفاه"446

وعليه فالوَكِيلُ هو الكفيل بنا وبأحوالنا وبأرزاقِنا، وهو نعم الوكيل، {حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}، والمتوكلّ على الله الذي يعلم أَنّ الله كافِلٌ رزقه وأَمْرَه فيرْكَن إِليه وحْدَه ولا يتوَكلّ على غيره، وقال ابن سيده: وَكلّ بالله وتوَكلّ عليه واتَّكلّ استَسْلم إِليه447. وهذا بالتمام أمر النبي زكريا عليه السّلام.

---

443 مريم 9.

444 الأنبياء 90.

445 مريم 4.

446 شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 88.

447 لسان العربّ – ج 11، ص 734

وهنا فأوّل ما يقع في نفس المتأمل لهذا الاسم (الوكيل) أنّه من أسماء الكمال التي تحوي الجمال والجلال الإلهيين في الذات والصفات والأفعال.

فمن الجمال:

الوكيل رحيم بمن وكلّ أمورهم، حافظ لمصالحهم، دؤوب على راحتهم، مدافع عمّن لجأ إليه، يحلُّ محل الجميع ولا يحلُّ محله أحد.

ومن الجلال:

الوكيل يكفي من انتصر به؛ فلذلك يقول المتوكلّ عليه عند الشدائد كما قال من أقيم الدين على أكتافهم وهم الذين من بينهم زكريا عليه السّلام: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاس إِنَّ النّاس قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}448.

فماذا تغني قوّة العالم أمام قوّة من انتصر به وتوكلّ عليه؟

والله الذي لا إله غيره لا تقدم ولا تؤخر قيد أنملة، لأنّه يملك جنودا لا حصر لها في العدد، ولا وصف لها في القوّة، فليجمع النّاس ليرهبوا المتوكلّ على الوكيل، وما على المتوكلّ على الوكيل المطلق إلا أن يقول: "حسبي الله ونعم الوكيل" نعم أنا المتوكلّ عليه، الآخذ بأسبابه، المنتصر باعتمادي عليه، لا يخيفني جموع أهل الباطل من مفسدين حاقدين، ولا يرعبني عددهم، فعددهم بدد، وجند ربّي لي مدد {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}449.

---

448 السابق، ص 734.

449 -الفتح 7.

فمن اعتمد عليه أعزه ومن اتخذه وكيلا نصره، فجنوده يملؤون الزّمان والمكان، وهو القوي العزيز الذي لا يحتاج لجنود ينصرونه، ولكن على سبيل طمأنة المتوكلّ عليه حتى لا يدخل قلبه أقل من ذرة شكّ من أن الوكيل يتركه لتوهم أن الوكيل ينساه فهو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا بأنّه الوكيل ولا يرتابون ولا يقع في قلوبهم الخشية من قوّة الظلم مهما أعدّ لأنه ضعيف بتدبيره وعاجز في تفكيره ومهما جمع فهو قليل بجمعه ذليل بما يتوهم أن فيه العز قال تعالى: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}450، فتعالوا يا أهل الذل الذين جمعتم لأهل العز، أجيبوا علينا:

-هل تعلمون عددا لجنود الوكيل؟

-هل تعلمون مقدارا لقوّة جند الوكيل؟

-هل لديكم عزة الوكيل التي يهبها للمتوكلّ عليه؟

-هل لديكم القدرة في الجمع بين العزّة والحكمة كما هو الحال فيمن نتوكلّ عليه (وكان الله عزيزا حكيما)؟

إنّ إجابتكم بالقطع ستكون بالنفي: لا نعلم ... لا نعلم ... لا نعلم.

أمّا نحن المتوكلّين عليه فنعلم عدد جنوده، فهي فوق العد وخارج حدود الإحصاء، لذا فنحن مطمئنون بتوكلّنا عليه ونعلم أن

450 لسان العربّ، ج 11، ص 735.

جنود ربّنا لا يعلم عددها إلا هو. {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ ربّك إِلَّا هُوَ}451.

وجند ربّنا الوكيل قد ترى، وقد لا ترى فهي متعلقة بقوّة الله الذي لا تدركه الأبصار ولا تحيط بقدرته البصائر، فمن جنده المدركة بصرا الريح قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا}452

ومن غير المشاهدة:

{وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا}453.

فالريح تحس ويرى أثرها في إطفاء النّار أو انتشارها أو في نقل السحاب أو تفرقه وفي نقل اللقاح للثمار أو في خلع الأشجار وهدم البنايات أو في تحريك السفن أو في إغراقها، فهي جنود مطيعة تفعل ما تؤمر فهي للسلام والتعمير وقد ذكرها الله في كتابه فقال: {فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ}454.

فالريح الرخاء من جند الله لنشر الخير ولجلب المسرة في النفوس بم تتركه من أثر طيب لدى المستفيد منها.

وقد تكون ريح ساكنة ولكنها مدمرة فتمنع حركة السفن في البحار وتجعل الموج راكدا، فهل من محرك لها من دون الله؟ قال تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ

---

451 المدثر 31

452 الأحزاب 9.

453 الأحزاب 9

454 ص، 36

لَآيَاتٍ لِكلّ صَبَّارٍ شكّورٍ}455 فجند الله جند مستعدون لأداء ما يطلب منهم في أي وقت وبأي كيفية وفي أي مكان في الأرض والبحر والجو لأنه سبحانه المهيمن على ملكه الحافظ لمن يتوكلّ عليه بتسخير جنوده له كيفما شاء.

ومع فرضية إمكانية النجاة من الريح العاصف والوصول على البر، فهل النجاة في البر مضمونة؟ بالتأكيد لا، لأن من يملك الريح في البحر يملك الريح في البر فيرسلها إلى البر فيحدث التصدعات فيهلك من على البر أو يرميهم بريح حاصب ترميهم بالحصباء أي بالحجارة، فبالله هل ينفع معها مصدات للريح؟ أو مضادات للحجارة؟ سؤال إجابته كسابقيه!!

فهل يفهم من استخلف في الأرض؟ ويتوجه قلبا وقالبا للوكيل فيتوكلّ عليه وينطلق في ركب الخلافة فيكون خليفة لله متوكلّا عليه، أو سيقف متكاسلا خذولا لا يأخذ بالمبادرة في الحفاظ على دوره في خلافة الله وتعمير الأرض ومحاربّة المفسدين مستعينا بالوكيل الذي عنده جنود السماوات والأرض والبحر وما غاب عنا أكثر.

وعليه فالوكيل: هو من يتولى الأمر، وهو من يُرجع الأمر إليه، وهو من يتوكلّ بأمر من يوليه أمره رعاية وعناية وحسن عاقبة.

والوكيل هو دائما وكيل أمر ووكيل حال، أي وكيل للرعاية والعناية الكاملة، وكذلك وكيل حسن تصرف وفقا لكلّ حالة وحال ووفقا لكلّ مكان وزمان سبحانه إنه الملك المتعال جلّ جلاله.

فمن يقف أمام حركة الكون الطبيعية لا يملك إلا أن يتقهقر وينزوي ويذوب ويذهب أثره، وهذا لا محالة حال من يفسد في

455 الشورى 33.

الأرض الذي ضلت دعوته وضاعت كلّمته وتبدد أثره فلم يجد وكيلا يتوكلّ عليه فتوجه داعيا للباطل من وثن وصنم، وفكر فاسد لا يضر ولا ينفع، مع العلم الذي لا يرقى إليه شكّ أن المنجى هو الله الذي ينجيهم برحمته إلى البر قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا}456 وعند النجاة إلى البر هل يتحقّق الأمن من خسف؟ أو من ريح حاصب؟ أو الانتصار بأيّ وكيل غير الله؟

فلا منجي إلا الله ولا وكيل بحقّ غير الله فهو ينصر من ينصره ويتكفل بمن ألقى إليه همّه وألجأ إليه ظهره فهو بحقّ نعم الوكيل.

ومن جند الله الريح العقيم التي لا تبقي على شيء إلا وجعلته كالرميم الذي لا حياة فيه سيء الشكلّ كريه الرائحة وقد سخر إليه هذا الجند على قوم من الظالمين وهي في خزائن ملكه في كتائب جنده تعمل بأمره وتدمر بحكمته وتندفع بمشيئته لنصرة من يتوكلّ عليه ولنأخذ العبرة من قوم عاد ولنستلهم العظة من قوم تركوا حقّهم في الخلافة معتمدين على قوّة واهية وجند مغلوبين لا محالة لأنهم وقفوا ضد حركة الكون وإرادة الله في تحقّيق الخلافة على الأرض قال تعالى: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ}457 وما تزال الريح العقيم موجودة لا يمنعها إلا رحمته، وهي من أدوات الوكيل لنصرة المتوكلّ عليه.

456-الإسراء 67-69

457 الذاريات، 41 -42

وحتى لا نطيل على المتتبع لتجليات الاسم الوكيل نقول إن الوكيل يكفي عبده المتوكلّ عليه من كلّ معلوم ومجهول وصدق الله في قوله: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ}458 بلى الله كاف عبده في أي وقت، فهو قد كفي آدم عليه الصّلاة والسّلام وذريته من الخلفاء الذين تحقّقت فيهم الخلافة وأرادوا الإصلاح في الأرض من إبليس ووعيده بأنه سيحتنكن آدم وذريته فيدمرهم ويهلكهم ويقودهم إلى الهلاك وذلك لأن الله قد اختار آدم عليه الصّلاة والسّلام للخلافة ومن توفرت فيه شروطها من ذريته وأول ما كان من أمر ذلك الاختيار السجود لآدم طاعة لأمر لله وتكريما للخليفة، فكان طاعة ومعصية، طاعة من المجبولين على الطاعة، ومعصية لمن حقّت عليه اللعنة فهدد وتوعد قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا}459 ولكن الله الوكيل من تكفل بآدم وبحقّه في الخلافة لم يترك مكفوله فصرف عنه الشر متمثلا في إبليس ومن سار على نهجه، وأنذره بجند من جند الله، أنذره بالنّار التي سيكون لكلّ معترض على الخلافة والخليفة نصيب وافر من عذابها فقال سبحانه وتعالى: {قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا}460.

458 الزمر 35.

459 الإسراء 61، 62

460 الإسراء 63، 64

فالغرور من الشيطان الذي يعد المغبون الملعون بسلب الخليفة حقّه ومن يدفع طريد الهداية المتسربّل بالضلال المحتمي بالظلم المستنير بالظلام للفساد في الأرض التي أصلحها الله كرما منه لبني آدم فقال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}461 فضل الله بني آدم بالخلافة في الأرض على الجن والملائكة الذين كانوا في حضرة السجود وفضلهم على الملعون الذي طرده من رحمة الله غروره وصلفه، وكرمهم بأن تكفل ووكلّ أمرهم ومنحهم شرف عبادته وكفاهم من سلطان الشر والفساد فقال الله تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفي بِربّك وَكِيلًا}462.

فلا مجال للوصول بشرّ إلى أهل الخلافة لأنه لا سلطان لأحد عليهم لأنهم قد آثروا الحقّ على الباطل والعمار على الفساد والخير على الشر وهؤلاء خلاصة العباد أخلصهم لنفسه ووكلّ أمرهم واستثناهم دون بني آدم فقال سبحانه وتعالى: {قَالَ ربّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ}463.

ومن عباد الله المخلصين الأنبياء والصالحين والأولياء ومن كانوا في خفاء برحمة الله فلا يعلمهم إلا الله مثلهم كمثل اللؤلؤ في الأصداف لا يُعْرَفُون والله يعرفهم.

---

461 الإسراء 70

462 الإسراء 65

463 الحجر 39-43

وعباد الله المخلصون قد آمنوا بالذكر فذكروا وأخلصوا فأُخْلِصُوا وانتصروا به فانتصروا وغالبوا له فغلبوا به، فوكلّ الله أمرهم وكفاهم، أما من تركوا وكالته وابتعدوا عن ذكره فكفروا وسوف يعلمون عاقبة كفرهم، مع نفاذ إرادة الله في نصر من توكلّ عليه، وغلبة من اعتمد على أسبابه، ويوضح السياق القرآني هذا في قول الله تعالى في بيان حال المبعدين والمخلصين قال تعالى: {لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}464.

فالمبعدون يتمنون لو أن لهم ذكر من الأولين الذين أخلصهم الله، ولكنهم لما أتاهم الذكر كفروا به وشكّكوا في آيات الله، وهم لا يخفون على الله الذي يعلم ما تخفي الصدور وما تصدر وما يهمس الخاطر وما يهمهم اللسان فهو العليم البصير، وجزاء هؤلاء المبعدين نار جهنم فلا يجدون أمنا لأن الأمن للمؤمنين الذين آمنوا فأمنوا مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النّار خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}465.

والمخلصون آمنوا بالذكر وبرسل الله عليهم الصّلاة والسّلام فكفاهم الله ونصرهم وأمدهم بجنده وجنده منصورون لأن مددهم من العزيز الغالب.

---

464 الصافات 168 -172

465 فصلت 41، 42

وممّا تقدّم نقول بفضل الله وتوفيقه إن اسم الله الوكيل له معان عدة منها:

الأوّل: المقيم على شئون الخلق.

الثاني: الكفيل برزق العباد.

الثالث: حفيظ لخلقه بتقدير أمر محياهم ومماتهم وبعثهم ونشورهم وحسابهم.

الرابع: الكافي الذي يكفي عباده هم الدنيا وما فيها وهم الآخرة وما خفي منها بما لا يعلمه إلا هو.

الخامس: الربّ الصاحب المالك الذي لا يملك أمر خلقه أحد سواه.

والوكيل بالإضافة وهو ما نبحث فيه ونبذل جهدنا لاستجلاء دور الخليفة لله من خلال التخلق بأسمائه فيأتي بمعنى (المتوكلّ) الذي يأخذ بالأسباب متوكلّا على ربّه خالقه وخالقها، والمتوكلّ في الجانب المشرق أو في الجانب الفاعل الإيجابي.

والمتواكلّ الكسول الذي غرته الأماني فأخلد إلى الهوى ومال عن طريق الحقّ ففقد نصيبه في الخلافة، هذا المتخاذل في الجانب المظلم الفاسد السلبي.

وسنربّط بين الاسم الوكيل وما ورد فيه من معان بين دفتي كتب اللغة والتراث وبين الطرح الذي ننطلق منه وهو تحديد العلاقة بين الاسم والخليفة، وبين الاسم ومن تنازل عن حقّه في الخلافة.

أوّلا:

في أَسماء الله تعالى الوَكِيلُ ما ورد في كتب اللغة وهو:

. "المقيم الكفيل بأَرزاق العباد وحقّيقته أَنه يستقلُّ بأَمر المَوْكول إِليه وفي التنزيل العزيز: {أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا}466 قال الفراء: يقال: "ربّا" ويقال: "كافِيا"467. ومن تجلي الله الوكيل إنّه مقيم أي قائم على شئون خلقه ومن مظاهر هذا التجلي الآتي:

1- أنّه القائم على شئون العباد في أحوالهم كافة برعايته لهم في كلّ زمان ومكان.

2-هو الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، لأنّه لو أخذته السنة أو النوم لما كان مقيما. ومن لا تأخذه سنة ولا نوم فهو المقيم، ومن تأخذه السنة والنوم فليس بمقيم سبحانه جلّ جلاله.

3-والمقيم هو المدبر لأمر الخلق بالتساوي في وقت واحد.

4-والمقيم هو الذي يضع من يشاء على الطريق القويم الذي لا عوج فيه.

5-والمقيم هو القائم على كلّ نفس بما كسبت مصداقا لقوله تعالى: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كلّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ}468.

466 الإسراء 2.

467 لسان العربّ، ج 11، ص 734

468 الرعد 32- 34

الثاني:

- والوَكِيلُ الحافظ469.

الثالث:

. والوَكِيلُ في صفة الله تعالى الذي توَكلّ بالقيام بجميع ما خَلَق470.

الرابع:

- والوَكِيلُ الكفيل ونِعْمَ الكَفِيل بأَرزاقِنا471.

وفي قولهم: (حَسْبُنا الله ونِعْم الوَكِيلُ): كافِينا اللهُ ونِعْمَ الكافي كقولك رازِقنا اللهُ ونِعْم الرازق الوَكِيل بمعنى الربّ472.

وأوّل ما يلقانا من معان أنّ الوكيل مقيم على شؤون الخلق لذا سنطلق العنان في البحث والتفكر في هذا المعنى، فالوكيل المقيم لأنّه:

1-الملازم على فعل الشيء بانتظام دون خلل ولا كلّل ولا ملل.

ومن أمثلة الانتظام دون كلّل أو ملل:

- سقوط المطر في مواسمه إلا إذا منعه الله فهو جند من جنده يُسْتَخدمُ رحمة وعذابا ثوابا وعقابا. {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

469 لسان العربّ، ج 11، ص 734

470 لسان العربّ، ج 11، ص 734

471 لسان العربّ، ج 11، ص 734

472 لسان العربّ، ج 11، ص 734

وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ}473.

– تسخير الفلك التي تجري في البحر بأمره وبقدرته ولا يجريها إلا جند من جنوده (الريح)، فإذا وثب علينا من يقول: أن هناك المحركات والنفط والطاقة النووية والشمسية فلا حاجة للريح الآن، نقول له وبكلّ بساطة أيها الظالم لنفسه المغرور بعقله الضال بعلمه إن ما تقول هو من جند الله وقد منحك العقل لتسخيره فلا تدفع بنفسك إلى الهلاك كمن قال: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي}474، لا فهو الذي سخر الفلك والأدوات التي تجريها في كلّ زمان ومكان {وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهن يديه}475 ويا لروعة النص الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فيعقب قضية تسخير حركة الفلك بحركة الزمن الذي يعلم من الشمس والقمر.

– تسخير الشمس والقمر بصفة مستمرة لا يعتريها خلل أو اضطراب فقال الله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ}476.

فلأنه الوكيل الذي إليه أمور الخلق فقد خلق السماوات والأرض بالحقّ لكي يستفيد منها الخليفة في تحقّيق الخلافة، وهذه الاستفادة لابدّ لها من أدوات تساعد على تيسيرها لذا فقد حفظ ماء الحياة في السماوات وينزله بقدر موزون في الوقت الذي يراه

473 إبراهيم 32.

474 القصص 78

475 إبراهيم 32.

476 إبراهيم، 32، 33

مفيدا لخلقه دون تمييز إلا إذا أراد من ذلك الماء أن يغير وظيفته من النفع إلى الضرر لحكمة يعلمها هو عزّ وجلّ.

وفي حالتنا هذه فهو الذي ينزل ماء السماء لإخراج كنوز الأرض الزراعية من ثمار وحبوب رزقا لجميع الخلق، وحتى تعم الفائدة سخر الفلك لنقل هذه الثمار من مكان إلى آخر، كما سخر الماء بنوعيه المالح والعذب لمهمة النقل: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ) نعم تجري بأمره هو لا بأمرنا نحن لأنه لو أراد أن يعطل حركة الفلك لأوقف الريح التي تسيره ولأوقف الحركة التي أمرها بالمطلق بيده سبحانه لا إله إلا هو مالك الأمر والملك.

والله خلق الأرض وما فيها لغرض تحقّيق الخلافة وقد تكفل بنعيم مقيم للذين يتوكّلون عليه فلا ينظرون إلى متاع زائل يمنعهم من أداء دورهم السامي وهذا النعيم لا ينفد ولا يزول قد أعده الله للذين على ربّهم يتوكّلون، والذين على ربّهم يتوكّلون هم المعتدون عليه في حركتهم وسكونهم وفي صحوتهم ومنامهم وفي حياتهم ومماتهم وفي بعثهم يوم يبعثون، وينبه الله المنوط بهم أمر الخلافة إلى أن متاع الحياة الدنيا لا قيمة له لذا لم يعقبه بوصف مثل الغرور أو لقليل لأنه أقل من أن يوصف في مقابل نعيم الله فيقول الله تعالى: {فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاة وَأَمْرُهُمْ شُورَى

بَيْنَهُمْ وَمِمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} 477.

ولله الوكيل القدرة المطلقة على خلقه لأنه قائم وكيل على مصالحهم:

- فهو سبحانه الذي خلق السماوات والأرض.

- خلق الخلق في الأرض ونشرهم في عموم الأرض ولا يفعل ذلك إلا القائم على شؤون الخلق المتصرف في أمورهم الوكيل عليهم بهيمنته على السماوات وما فيها والأرض وما عليها وما تحويه في باطنها.

-ما يصيب الإنسان من ضرر على الأرض إنما هو من صنع يديه ومن فساده هو ومن كسب يديه لا من النظام الذي وضعه القائم على الخلق الوكيل عليهم وصدق الله إذ يقول: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النّاس لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} 478.

فثقب الأوزون وارتفاع حرارة الأرض والأعاصير والجفاف والجدب وانتشار أمراض ما عرفت من قبل وغير ذلك الكثير والكثير يمكن رده وبسهولة إلى ما كسبت الأيدي الشريرة الآثمة في تدخلها بالفساد في الأرض وهذا الفساد هو محك السؤال الذي سألته الملائكة لله سبحانه وتعالى وهو سؤال لاشكّ للاستفسار لا للاستنكار قال تعالى: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا

477الشورى 36- 39

478 41 الروم

تَعْلَمُونَ}479، فالله حين قال: (إذ قال ربّك إني جاعل في الأرض خليفة) فالخطاب للنبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم الذي به ختمت الرسالات وفي رسالته أجمع بلاغ للناس وأوضح بيان، والخطاب فحواه تبليغ الثقلين والملائكة الكرام، بحقّيقة الخلافة وهي جعل خليفة في الأرض يخلف الله في تنفيذ أحكامه من أمر بمعروف ونهي عن منكر وإصلاح في الأرض والأخذ على يد كلّ مفسد وإن كان المفسد من ذرية الخليفة الأول آدم عليه الصّلاة والسّلام وذلك لأن المفسد قد تنازل عن حقّه في الخلافة ببعده عن منهج الحقّ وتخليه عن الوكالة التي أنيطت به ليؤدّيها.

والهدف من الخلافة تنفيذ أحكام الله في الأرض وبهذا يكون الوكيل بالإضافة أو المتوكلّ على الله الوكيل المطلق، وبيان ذلك أنه إذا أخذ منه حقّ أو قهر من ظالم بالاعتداء أو بالحيلة أو بشهادة الزور فماذا يصنع؟

يتوجه إلى الله بالدعاء بأن ييسر له أخذ حقّه، ثم يتوجه للخليفة ليساعده لنيل حقّه فإن أعانه ذلك المسؤول فقد حقّق الخلافة أمّا إن أهمله ولم يعنه لأخذ حقّه فقد تنازل عن حقّه في الخلافة، ومرد كلّامنا هذا إلى القول الفصل كلّام الله تعالى إذ يوضح تلك القضية مع نبي الله داود عليه الصّلاة والسّلام فيقول تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}480.

---

479 البقرة 30

480 ص، 26.

يا داود (إنا جعلناك خليفة في الأرض) الخلافة هنا نيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه وإما لموته وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف والمنوب عنه حاضر لا يغيب يختبر ويبتلى الخليفة، وهو حي لا يموت دائم دواما سرمديا قديما أزليا، قادر مقتدر لا يعجزه شيء، وعلى هذا فيكون الوكيل المطلق الذي لا يغيب ولا يموت ولا يعجز عن فعل شيء يكون وكيلا على غائب وميت وعاجز وهذا الإطلاق لله، والإضافة للخليفة وعلى هذا الرأي الذي نركن إليه استخلف الله أولياءه في الأرض فالخليفة ينفذ الحكم الإلهي وهو من كان متبعا للنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وسنته. والاستخلاف على الملك في الأرض والحكم فيما بين أهلها بم أمر الله وفق إرادته التي خلق النّاس لها.

فالخلافة الحقّيقية ليست كسبا للإنسان وإنما هي وهبةً من الله يؤتيها من يشاء كما قال تعالى: (إنا جعلناك خليفة) والجعل هبة وعطاء لا كسبا وعملا.

. إنّ استعداد الخلافة مخصوص بالإنسان كما قال تعالى: (وجعلكم خلائف الأرض) ولا يصل إليها إلا المتوكلّ على الله الآخذ بأسباب الخلافة.

وعلى ذلك فقدرة الله المطلقة تحيط بمن يتوكلّ عليه تشمله وتكفله وترعاه ولا يستطيع أي خارج عن منهج الله أن يفر أو يخرج عن إرادته لا بالجدل أو بالفرار، وهنا نعود لما استشهدنا به من قول الله تعالى في المتاع الذي لا قيمة له والمتاع المقيم الدائم، لنستبين صفات من صفات المتوكلّين على ربّهم، فما ملك النّاس في الدنيا فهو متاع زائل لأن المتاع الحقّيقي يكمن في طاعة الله في الدنيا والفوز برضاه في الآخرة وهذا الفوز خير وأبقى ولا ينال هذا النعيم

المقيم إلا المتوكّلون على الله فيقول الله تعالى: {وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصّلاة وَأَمْرُهُمْ شورى بَيْنَهُمْ وَمِمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ}481.

وهؤلاء المتوكّلون من صفاتهم:

- (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ).
- (وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ).
- (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ).
- (وَأَقَامُوا الصّلاة).
- (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ).
- (وَمِمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ).
- (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ).

ولأنّ هذه صفات المتوكلّ فهو "يعلم أن الله كافِلٌ رزقه وأَمْرَه فيرْكَن إليه وحْدَه ولا يتوَكلّ على غيره"482. وهنا ننطلق إلى الجزئية التالية التي صدّرنا بها البحث في الاسم الوكيل.

المعنى الثاني:

. إنّ الله وحده الوكيل الذي تكفل برزق العباد.

---

481 الشورى، 35-39.

482 لسان العربّ، ج 11، ص 734

فهو وكيل وكفيل وضامن لرزق من يتقيه في حركاته وسكناته وأنفاسه وخواطره ونيته وسره وجهره، فيجعل مخرجا للتقي من كلّ ضيق وفرجا من كلّ كربّ، ويسرا من كلّ عسر، ويكفيه كفاية شمولية تبلغ به إلى ما أراد الله من تنفيذ أمر واجتناب نهي، ولأن التوكلّ عمل وجهد يعقبه رزق وكفايه فقد جعل الله لكلّ شيء سببا دفعا لعباده المتوكّلين عليه للأخذ بالأسباب فقال الله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}483.

ومنهج الله شمل الزّمان والمكان على العموم والإطلاق، فبالإضافة إلى السياق الأول لنزول الآية نقول:

إن المتوكلّ على الله هو الذي يتقي الله في السر والعلن ويكون جزاء ذلك:

- (يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) ومسألة الرزق واسعة، فمن الرزق ما هو مادي وما هو معنوي، والمادي كما في قوله تعالى:

قال الله تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}484، فرزق الدنيا المادي بالعمل والسعي ورزق الآخرة برحمة الله تعالى وهذا الرزق يشبه رزق الدنيا في الاسم لا في الجوهر والحقّيقة.

---

483 الطلاق 2-3

484 البقرة 25.

وعلى سبيل المثال قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}485.

ودخول الجنّة برحمة الله للذين آمنوا وكانوا على ربّهم يتوكّلون ومن التوكلّ الأخذ بالأسباب بالعمل الصالح من صلاة وصيام وإنفاق في سبيله بالقول والفعل وبذل النفس لإحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل ونشر العدل والسّلام والمساواة بين النّاس على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأديانهم، ولأنّ المؤمن قد أخذ بأسباب التوكلّ فقد نال ما لم ينله المتواكلّ.

المتواكلّ: هو الذي غرته الدنيا ونعيمها الزائل فقد أخلد إلى هواه واعتقد من وهمه وضلاله أن الله كما أنعم عليه في الدنيا سينعم عليه في الآخرة وقد تناسى أنه قد فشل في اختبار الخلافة وتنازل عن حقّه فيها وهذا هو لب القضية التي خلق من أجلها الإنسان، فيقول ذلك المغرور كما اخبرنا الله جلت قدرته في كتابه: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآَيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرّحمن عَهْدًا كلّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا}486 فالذي كفر بآيات الله ومنها البعث يعتقد أنه سينال الآخرة بما ناله في الدنيا فاغتر بماله وولده ولم يأخذ بأسباب النعيم الدائم فضاع منه شرف الأخذ بأسباب الخلافة في الدنيا وشرف الفوز بثواب الله عنها في الآخرة، "وقد نزلت الآية في العاص بنِ وائلٍ وكان لخبّابٍ بنِ الأرتّ عليه مالٌ فاقتضاه فقال: لا حتى تكفرَ بمحمّد، قال: لا والله لا أكفرُ به حيا ولا ميْتا ولا حين بُعِثتُ، قال: فإذا بُعث جئني فيكونُ لي ثَمّةَ مالٌ وولدٌ

485 محمّد، 12.

486 مرم، 77-80.

فأعطِيَك"487. فهذا العاص قد اعتمد على ماله وولده ووكلّ أمره لهما وهما ليسا له بل عليه لأنهما ابتلاء واختبار، فليعرف من أراد الخلافة هذا فإن المال والولد سببان لشكّر الله وتنفيذ منهجه لا للكفر ومعاداة أوليائه وخلفائه الذين يصلحون في الأرض معتمدين عليه آخذين بالأسباب ذاتها لتحقّيق الخلافة المثلى على الأرض، ومثل آخر ضربّه الله في كتابه للمؤمن الذي يتوكلّ على الله وينتصر به، والكافر الذي يعتمد على الهوى والغرور ولا ينتصر بالله لأنه لم يتخذه وكيلا قال الله تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا}488.

فرجل مغرور بماله قد أعطاه الله له للاختبار فكفر بربّه وظن ظن السوء بأنّه لن يزول ناسيا قدرة الله عليه وأنه خلقه من نطفة لا قيمة لها وسواه رجلا ليعرف طريق الهداية ولكنه ضل بمال ليس له وبقوّة ليست منه وغرته أوهامه بأنه سينال عند الله ما ناله في الدنيا بالرغم من صلفه وعنته وكفره، فهذا حال من أحوال المتواكلّ المغرور بالقوّة الفانية من مال وولد، أما المؤمن المتوكلّ على الله فقد أيقن أن الله هو الرازق المانح الكفيل بأن ينعم في الآخرة كما أنعم في الدنيا

487 تفسير أبي السعود، ج 4، ص 328

488 الكهف 32 ـ 38.

إن شكّر الإنسان وأقر بأن المنعم المتفضل هو الله، فلا يكفر الخليفة بربّه ويرد ما لديه من قوّة إلى المصدر الأوّل لها ولا يغتر ولا يفتخر ولا يتعالى بل يزداد توكلّا على الله سبحانه وتعالى.

وفي الحقّيقة فإن الكافر لا متعة له لأنّه يتمتع متعة حيوانية مثل الأنعام وهو بذلك قد اختار متعة زائلة عن نعيم مقيم يقول الله تعالى:

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّار مَثْوًى لَهُمْ}489.

وما أشدّ الفرق بين المؤمن والكافر، بين المتوكلّ والمتواكلّ، بين الذي على بينة من ربّه وهدى ونور وبين الذي على الضلال واتبع سوء عمله مصداقا لقوله تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ}490.

فالذي على الهدى هو الذي أخذ بأسباب الهداية وعمل للنعيم المقيم وتوكلّ على الله فجزاه الله برحمته النعيم الدائم الذي لا يحول ولا يزول وقد ضربّ الله لذلك النعيم مثلا على سبيل التقريب لا على سبيل الوصف الممّاثل، ثم أردف بالتعجب من حال الكافر الذي سيخلد في النّار ولا يشربّ إلا الماء الحميم الذي يقطع الأمعاء، فقال عزّ وجلّ: {مَثَلُ الجنّة الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِّينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفي وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كلّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ

489- محمّد، 12

490 محمّد، 14

مِنْ ربِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النّار وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُم} 491

وما سبق من أمثلة الرزق المادي والمعنوي الذي يرزقه الله للمتوكلّ، ويغتر به المتواكلّ الذي يسعى للمتع الحيوانية ولا يأخذ بأسباب الرزق الحقّيقي الذي يحفظ الجسم للتعمير والإصلاح ويسمو بالروح إلى الملأ الأعلى، وهذا ما يسعى له الخليفة السمو بالروح والسمو بالجنس الإنساني من البهيمية الحيوانية إلى الروحانية المتمثلة في أن يكون خليفة في الأرض ولا فض الله فاه القائل:

إني أسوم الروح إلى ملأ علا.... غيري يسوق بهيمة الأنعام492.

فالخليفة هدفه السمو بالروح إلى المعاني السامية والأغراض النبيلة وممّالا شكّ فيه أن من تلك المعاني السامية والأغراض النبيلة تحقّيق الخلافة من تعمير وإصلاح وبناء وتعليم وزراعة وكفاية لحقّوق من كرمهم الله وأراد أن يكونوا خلفاء وهذا من الرزق المادّي الذي يعد أساسا من أسس السمو بالروح.

وغير الخليفة من الذين يتمتعون ويلهون متعة بهيمية ويلهون لهوا حيوانيا يسوقون أجسادهم لمتع زائلة كما تساق البهائم من الأنعام.

والرزق المادي في الدنيا غير مرفوض ولا يُنْهَى عن الأخذ بأسباب استخراجه ولكن المهم في كيفية الانتفاع به واستخدامه

491- محمّد، 15

492 ديوان الإمام فخر الدين البر هاني، ص 76

وهذا دور الخليفة الذي يدعو إلى أخذ الأسباب من توكلّ على الله والعمل والكد باستخراج ما في الأرض من خيرات.

ومن التوكلّ على لله الجمع بين الصبر والتوكلّ فيكون ضمان الرزق من الله قال تعالى: {الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}493.

فقد ذكر الله الصبر والتوكلّ وفي الأمرين استغراق للزّمن الماضي والحاضر والمستقبل، فالماضي لا ندركه ولا قدرة لنا على استرجاعه والعمل فيه ولا يؤمر الإنسان فيه بشيء، فبقي الحاضر ويصلح معه الصبر وبقي المستقبل ويصلح معه التوكيل، ومن هنا فالخليفة يصبر على ما يصيبه من الأذى في الحاضر، ويتوكلّ على الله فيما يحتاج إليه في المستقبل، ولأجل ذلك علينا أن نتوقف قليلا عند الزمن الذي يحتوي في تقسيماته الماضي والحاضر والمستقبل لنتبيَّن الأمر، ولنتبيَّن ذلك الأمر علينا بالتوقف عند (الآن) التي هي المكون الرابط في كلّ زمان.

يقول ابن سينا: (الآن) هو (دائما وصل بين قبل وبعد، وهو قبل ما بعده، وبعد ما قبله)494. فالآن كالعلامة على الزّمان ويشار به إلى الوقت الحاضر الذي يربّط الزمنين الماضي والمستقبل اللذين هما الآخرين علامتين على الزّمان، والزّمان متصل غير منفصل، أما الوقت الذي هو المتكون من الماضي والحاضر والمستقبل فمتجزئ بأحداثه، وعندما نقول الزّمان في تشبيهه كالحبل على

493 العنكبوت، 59، 60

494 إبراهيم العاتي، الزمان في الفكر الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، دار المنتخب العربّي، 1993م، ص 183.

البكرة، فالذي تم سبحه منه أصبح في الوقت الماضي، وما هو على البكرة هو في وقت الآن، وما لم يسحب بعد يقع في الوقت المستقبل، ولهذا تجزأ الوقت ولم يتجزأ الحبل (الزّمان) فالحبل متصل لأنه حبل واحد، أما الوقت فلم يكن واحدا.

الآن إذا هو الظاهر في الحاضر، والكامن في الماضي، والمتناهي في المستقبل.

الآن البداية:

هو الذي لم يكن كما قال عنه ابن سينا (الآن دائما وصل بين قبل وبعد)495، بل الآن البداية هو بداية التوأم (الزّمان والحركة) فلا زمان إلاّ من بعده ولا حركة إلاّ من بعده، ولا حياة إلاّ من بعده، وذلك لعدم وجود ماض سابق على وجوده، ولهذا الآن البداية هو دائما بداية لما بعده.

الآن الأوسط:

هو الذي ينطبق عليه ما قاله ابن سينا بأنه (دائما وصل بين قبل وبعد، وهو قبل ما بعده، وبعد ما قبله)، ولكن ليس بالضرورة أن يكون هو الوسط الحسابي بحيث تتعادل أطرافه، فإذا اعتبرنا الآن في هذا اليوم نقطة وصل بين الماضي من البداية، والمستقبل إلى النهاية، فهل نحن متأكدون بأن ما قضيناه من الزّمان يساوي ما تبقى منه؟

الآن النهاية:

---

495 المرجع السابق 183.

هو دائما بعد ما قبله، وليس وصل بين قبل وبعد، فإذا كان للحجرة باب، فالآن هو المفتاح الذي أُقفلت به الحجرة. ولهذا الآن النهاية هو دائما نهاية لما قبله.

الآن الماضي:

هو المستوعب للتجاربّ التي وقعت أو التي حدثت بموجبها وسالبها، وهو الذي يكتمل بعد حدوث الفعل أو الانتهاء من التجربّة، ويتصل مع كلّ حاضر بالنقطة الآن. الماضي هو الوقت الذي سجلت فيه الأحداث والأفعال والتجاربّ في الزّمان والحركة، وهو القابل للاستدعاء كأحداث وغير قابل للاستدعاء كزمان وحركة، والسبب هو الأفعال الماضية إلى جانب كونها تسجل في الزّمان والحركة، فهي أيضا تسجل في العقول المدركة التي عندما تحاور بالأسلوب العلمي تتمكن من أن تستدعى ما سجل لديها من مخزون الماضي. أما الزّمان الماضي والحركة الماضية فلا يمكن استدعاؤهما مع الأحداث الماضية إلاّ كمواقيت ودلائل لتسجيل الأحداث والمواقف والمواضيع والظواهر، ولذلك لا يمكن استدعاؤهما مجردين مع أنّهما يتكرران وفقا للدورة الفلكية المنتظمة. ولذلك نلاحظ تكرار الزّمان والحركة، ونلاحظ اختلاف المحتوى، بمعنى أن اليوم يتكرر كلّ أربّع وعشرين ساعة، ولكن مضمون اليوم ومحتواه قد لا يتكرر، فعلى سبيل المثال: قد نجد اليوم درجة الحرارة أكثر أو أقل من حرارة يوم أمس، أو أنّها أكثر أو أقل من حرارة اليوم المماّثل لهذا اليوم من العام الماضي، مع أنّ هذا اليوم يماثل يوم العام الماضي من حيث الزّمان والحركة، ولهذا يختلف المضمون والمحتوى لكلّ وقت سواء من حيث الكم أو الكيف، ولكن بالنسبة إلى الحركة الذاتية والزّمان الذاتي لا يختلفان بين هذا اليوم ويوم العام الماضي، فيوم 23

يوليو من هذا العام لا يختلف عن يوم 23 يوليو من العام الماضي، باعتباره أطول أيام السنة نهارا، ولكن من حيث المضمون والمحتوى فقد لا يكون بينهما تماثل، وهكذا يكون يوم الفاتح من سبتمبر من هذا العام لا يختلف عن يوم الفاتح من سبتمبر من العام القادم من حيث الزّمان والحركة. إذا الماضي كأعمال لها مضمون ومحتوى يمكن استدعاؤها في الوقت الآن، والآن هو لحظة بداية ولحظة نهاية، ولهذا يقع الآن في الزّمان كما يقع الزّمان في الحركة، فلا حركة بدون الآن، ولا الآن بدون زمان، فالماضي لا يبدأ إلاّ به ولا ينتهي بغيره (بغير الآن)، وهكذا الحاضر هو الآخر بدايته الآن ونهايته الآن، وكلّ مستقبل لا يكون إلاّ به، فهو أمر البداية والنهاية، فسبحان ربّي إذا أراد أمرا فإنما يقول له كن فيكون، ولذلك قال الله تعالى: {ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربّك أحدا}496 فالأعمال التي وقعت في الماضي ستكون في المستقبل كما هي أمام مرتكبيها، ولهذا استدعاء الماضي ممكن، ولكن إعادة الزّمان والحركة بالنسبة إلى المخلوقات غير ممكنة.

الآن المستقبل:

المستقبل هو الوقت المنتظر الذي يحتوي على الآمال وهو غير قابل للتذكر ولكنه قابل للتفكر، والتفكر لا يهتم باستدعاء المعلومات الجاهزة، بل هو المتطلع إلى ما هو متوقع، نتيجة استنتاجه واستقرائه لمضمون الماضي الذي تكمن فيه المعلومات والتجاربّ وتتراكم فيه الخبرة، ولذلك يستمد المستقبل تطوره وتجديده من الماضي الذي يرتبط به في الآن، ولذلك تتداخل المعلومات كما

496 الكهف، 49.

يتداخل الزّمان مع الحركة، ممّا يجعل الحياة نسيج الأفعال في الزّمان والحركة، فلا زمان بلا حركة، ولا حركة بلا زمان ولا حياة بدونهما.

المستقبل لا يحصى، وذلك لعدم تسجيله بعد في سجلات التاريخ، مع أنّه مسجل كوقت في الزّمان والحركة، ولهذا سيأتي بالقوّة الفاعلة من خلال قوّة الزّمان والحركة الفلكية، فبما أن اليوم قد دخل والحركة مستمرة إلى النهاية مع الزّمان، فبالضرورة سيأتي غد لا محالة، وغدا قد يكون نهاية لما سبق وقد يكون استمرارا له، وهذه بالنسبة إلينا غير معلومة مع أنّها متوقعة.

المستقبل هو الذي سيأتي بعد كتابة هذه الكلّمة في حالة مواصلتي الكتابة، وهو الفكرة التي ستأتي بعد ما أفكر فيه، وهو الزّمان الذي فيه طموحاتنا وما نتوقّع، والذي من أجله نتنفس، ونشربّ، ونأكلّ، ونفكر، ونتعلم، ونعمل، ونتصدق، ونصلي، ونحب، ونتزوج، وندَّخر وفق حاجاتنا، ونؤمن على أرواحنا وممتلكاتنا، ونخاف، وهو نهاية البداية وثبات الحركة، وعليه كلّ حركة من أجل المستقبل.

تتحرك الأرض والكواكب والنجوم بالأمس، فكان اليوم، وتستمر في حركتها من أجل أن يأتي غدا، وهكذا تكون الحركة إلى النهاية، وعندما تأتي النهاية يكون الثبات، وإذا كانت الحركة تتضمن وجود طاقة، فإن المستقبل يتضمن زمان ومجال توليدها، وهكذا تستمر الحركة والمستقبل، فلا حركة إلاّ لمستقبل، ولا مستقبل بدون حركة، ومنهما يحدث التغير، سلبا أو إيجابا.

يتكوّن كلّ من المستقبل والحركة من زمان، وفعل (محتوى ومضمون). وعليه لا يمكن أن يتحقّق المستقبل بدون زمان وفعل،

ولا يمكن أن تكون الحركة بدون زمان وفعل، وعندما تصل الحركة إلى لحظة النهاية، يكون العدم، وينتهي المستقبل بالنسبة إليها مادامت في حالة عدم، وعليه يستمر المستقبل كلّما كانت هناك حركة، وتستمر الحركة كلّما كان هناك مستقبل.

ولو لم يكن هناك مستقبل ما كان هناك أمل، ولا أمانٍ، وما فكرنا فيما ينبغي أن نفكر فيه وهو ما يشغلنا. وبناء على ذلك ينبغي أن تكون مناهجنا مستقبلية، لكي نعرف من نحن، وما يجب علينا القيام به، ونعرف من أجل ماذا نفكر، ومن أجل ماذا نتعلم؟ ومن أجل ماذا ندرس، ونحلل، ونعالج؟ ولماذا طرحت هذه الأسئلة؟ وهل ينبغي أن يتجاوز تفكيرنا الزّمان، أم يقتصر عليه؟ إذا كانت الإجابة بتجاوزه فإننا نفكر، وإذا كانت بالاقتصار عليه فإننا نتذكر وننتظر، نتذكر الماضي، وننتظر حتى يأتي الغد في لحظة الآن المستقبلية، أي نعطل قدراتنا ومواهبنا ولا نفكر، لأن الغد لم يأتِ بعد. كلّ هذه وتلك الأمثال تجعلنا كما قال تعالى: {وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون}497، ويقول تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}498.

497 الحشر، 21.

498 الأعراف، 175 . 178.

المستقبل يكمن في الزّمان والحركة كما تكمن الشجرة في البذرة، ممّا يجعل الشجرة تكمن في الزّمان المستقبل في البذرة الآن، مع أنّ هذه البذرة كانت في الماضي من الشجرة، وعندما تصبح البذرة شجرة مثمرة تكون البذرة في الماضي، وتكون الشجرة في الآن، وتكون الثمار في المستقبل. وهكذا في التقاء الأحبة الآن بين الحيوان المذكر مع البويضة يكمن المستقبل الذي تكمن فيه هو الآخر معاني الأمومة والأبوة والأخوة بين البشر عندما تأتي الآن المستقبلية في وقت النضج العقلي والعاطفي والوجداني للبشر من مرحلة الطفولة المبكرة إلى مرحلة الشيخوخة المتأخرة.

إنّ ما وقع في الآن الماضي سيكون بالضرورة حاضرا في الآن المستقبل، ولهذا لا يمكن أن يكون الماضي ولا المستقبل إلاّ في الآن، فالمؤمن الذي يعمل صالحا في دنياه يعمل في حقّيقة الأمر من أجل المستقبل، ومستقبله سواء أكان سالبا أو موجبا، هو ما كان له حاضرا في الماضي. إذن الماضي كأحداث وأفعال سيكون حاضرا في المستقبل (الحاضر المستمر) ويُسأل صاحبه عليه حتى يعاقب أو يجازي به، فيقول الله تعالى في سورة الأعراف: {يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوءٍ تودُ لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد}499.

تؤكد هذه الآية على أنّ كلّ عمل ماض هو من أجل المستقبل، وهكذا عمل الحاضر الذي هو الآخر سيقع في الزّمان الماضي إلى أن يجد نفسه في الزمن المستقبل، وذلك لأنه لم يكن من أجل الماضي، بل أنه العمل الذي قد تم من أجل المستقبل، ولذلك يكون الماضي كالخزينة المملوءة التي لم تفتح بعد الفتحة النهائية، بل

499 آل عمران 30.

إنها في الحياة الدنيا لا تفتح إلا بمقدار استدعاء المعلومات التي يمكن أن تفيد في صنع تاريخ قريب، ولهذا ينبغي أن نعمل في حاضرنا خيرا لكي يكون لنا مستقبلا خيِّرا. وكلّ الأعمال التي تقع في الزمن الآن تمسى في الماضي وتصبح على خير المستقبل، وحتى إن نسيها أصحابها فلا يضيع منها شيء بالنسبة إلى سجل الزّمان والحركة، {يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصه الله ونسوهُ واللهُ على كلّ شيء شهيد}500. تؤكد هذه الآية على أن كلّ شيء وجد يمكن إحصاؤه، ولكن لقصور القدرات البشرية عن ذلك عجزت عن إحصائه مع أنّه محصى من قبل الخالق عزّ وجلّ، ولهذا كلّ عمل قد حدث سيكون حاضرا في المستقبل لتتم المسألة ويتحقّق له الجزاء.

الوقت منتظم في الزّمان كانتظام حبات المسبحة في خيطها، وبالتالي يمكن التعرف على الأوقات وحصرها وعدها، ولكنه من غير الممكن عد الزّمان، فعندما تعد واحدة من حبات المسبحة المتكونة من المائة حبة تصبح هذه الأولى في الماضي، وتكون الحبة الثانية الواقعة بين أصابعك في الآن، وتكون 98 حبة واقعة في المستقبل، ولكن إذا قررت أن تكرر التسبيح أو عد حبات المسبحة أكثر من مرة واحدة، تكون الحبة التي وقعت في الزّمان الماضي هي الأخرى واقعة في المستقبل وذلك لأنها هي الأخرى سيتم عدها أو التسبيح بها مرة ثانية، وفي هذه الحالة لن يكون عدد الحبات المتبقية للتسبيح كما سبق وأن ذكرنا هي 98 مفردة، بل يكون عدد الحبات المتبقية 99 مفردة، وعلى هذا النحو يكون عدد الحبات في جميع الدورات هو 99 مفردة عندما تكون الاستمرارية في التسبيح على أن تكون

500 المجادلة 6.

في كلّ دورة تسبيحية مفردة واحدة في الآن بين الأصابع، ولا يكون العد التناقصي إلى الصفر إلاّ في الدورة التسبيحية الأخيرة، وعليه كلّ الماضي هو واقع في المستقبل المعلوم بما أنه سيكون حاضرا، مصداقا لقوله تعالى في سورة آل عمران: (يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوءٍ تودُ لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد).

إذا كلّ ما قمنا به من أعمال سيكون حاضرا في المستقبل ونكون نحن مساءلين عنه، ولهذا لن ينتهي الماضي بعد، لأن نهايته هي في الآن المستقبلية وليست في الآن الماضية التي كنا نعتقد بأنها النهاية. ويكون قولنا إن الزّمان كالخيط والأوقات منظومة عليه كحبات المسبحة هو المثال القريب لتوضيح أحداث الماضي التي وقعت في الآن الحاضرة وأصبحت في الماضي وفق دورة الحركة والزّمان فلكيا. وستكون جميعها في المستقبل قبل المساءلة والمراجعة، وتكون بالضرورة في المستقبل عند بدء المراجعة، وكلّ حاضر منها سيكون هو الآخر في الماضي بعد إتمام عملية المراجعة أو المساءلة. فعند دراسة الحالات الفردية من الناحية السلوكية والاجتماعية والصحية. تتطلب بالضرورة مراجعة سجل الماضي الذي يتعلق بالحالة، والذي يتضمن الأحداث والأفعال والظروف التي أثرت في السلوك أو أثرت في الحالة الصحية، أي دراسة الماضي لمعرفة الأسباب والعلل التي تحتويها الحالة ممّا يجعل هذه الحالة بالنسبة إلى الباحث أو الأخصائي قبل بدء الدراسة هي في المستقبل، وفي أثناء التشخيص والتحليل تكون في الحاضر، وبعد العلاج تصبح الحالة في الماضي.

ومع أنّ الزّمان لم يكن له شكلّ ولا صورة كما هو حال الأجسام الأخرى المتحركة، إلاّ أنه هو الآخر في حالة حركة، يقول الله سبحانه وتعالى: {وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربّكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكلّ شيء فصلناه تفصيلا}501. ولو لم يكن هناك ليل ونهار ما كانت الأيام ولا كانت الشهور ولا السنون والدهور، ولا كانت هناك حركة، أي لم يكن لدينا ما نعد من الزّمان ونحن على سطح الأرض، أما رواد الفضاء عندما يخرجون عن قوانين حركة الأرض فقد تناسبهم مقاييس فيزيائية أخرى لا تعتمد على حركة الأرض، ولذلك لم يقل الله عزّ وجلّ لتعلموا عدد الزّمان بل قال: (لتعلموا عدد السنين)، ولهذا قلنا الزّمان والحركة لا يعدان، بل الذي يعد هو المتحرك الأرض والقمر والشمس وبقية الكواكب كلّ في فلكه، وهذه جميعها قابلة للمشاهدة والملاحظة، وهكذا حال الليل والنهار والفجر والمغربّ كمواقيت تشاهد وتلحظ وبالتالي فهي تعد. والفارق بين الأجسام والمواقيت هو أن الأجسام قابلة للمس المادي، أما المواقيت الزمنية كالليل والنهار والفجر فلا يمكن لمسها ماديا، ولهذا من الممكن الاحتفاظ بشيء ما من الأجسام المادية كالأهلة والساعات الذرية في قوارير المعامل والمختبرات، ولا يمكن الاحتفاظ بشيء ما من المواقيت الزمنية في قوارير المعامل والمختبرات. وعليه لو لم يكن الزّمان في حالة حركة ما كان الليل والنهار، وما كان الفجر والمغربّ، وما عرفنا عدد السنين والحساب، وما عرفنا الوقت الذي تستغرقه الكواكب والنجوم والأجسام في حركتها الذاتية في مجال فلكها الذي تسبح فيه أو تمتد إليه.

501 الإسراء 12.

والحركة والزّمان شيئان لا يمكن مشاهدتهما مع أنّهما يلاحظان بسهولة ويسر، فالذي يشاهد هو المتحرك وليست الحركة، الكواكب تُلمس وتشاهد وتلحظ حركتها، أما الليل والنهار والفجر والمغربّ فمع أنّها تشاهد وتلحظ إلاّ أنها لا تُلمس، ومع ذلك كلّ ما يشاهد يعد حتى لو لم يُلمس كالليل والنهار، وذلك لأن لكلّ منهما بداية ونهاية يمكن رصدهما وتحليلهما وتسجيلهما.

الحركة والزّمان كما سبق وأن وضحنا لا يمكن مشاهدتهما ولا لمسهما ولا ذوقهما ولا شمهما مع أنّهما يلحظان، ولذلك يمكننا التمييز بين الحركة والمتحرك، وبين الحركة والامتداد. فالامتداد هو مجال حركة الجسم أو الشكلّ، فالمثلث هو امتداد بين نقاط زواياه الثلاث، ولو لم يحدث بينها امتداد ما كان للمثلث صورة أو شكلّ متصل، وهكذا مجال تكوين الشكلّ الدائري أو الربّاعي أو أي شكلّ من الأشكّال الهندسية، فالامتداد يكون في تكوين الشكلّ وفي تحديد اتجاه حركة الشكلّ، كاتجاه حركة الأرض في دورانها حول نفسها، ودورانها حول الشمس، فهي لا تمتد إلاّ في مجالها الفلكي، ولهذا فالامتداد هو الذي يرسم شكلّ الدائرة، أما الحركة فهي الطاقة التي بها يمتد المتحرك سواء أكان المتحرك قلما لرسم مستقيم أو منحنى أو أي شكلّ، أو حركة كوكب، أو حركة كائن من الكائنات.

الزّمان والحركة متناهيان حيث أنهما محصوران بين قوّة الأول والآخر الذي خلقهما وجعل لهما امتدادا، ولذلك فهما المخلوقان في الآن والمكان الواحد، ممّا يجعل لهما أجلا واحدا (نهاية واحدة) ولو لم نؤمن بأن الزّمان متناه فكيف نؤمن إذا باليوم الآخر؟ فاليوم الآخر هو الذي لا يكون فيه الليل والنهار والفجر والمغربّ

(المعروفات) في حساباتنا، والتي بها تعد أيامنا وشهورنا وأعوامنا ودهورنا، والتي جميعها ستنتهي ليكون اليوم الآخر، واليوم الآخر هو الذي لم يكن مثل يومنا هذا الذي نعرفه، ولأنّه الآخر فهو المختلف بالضرورة عما عرفناه في يومنا الأول. وبما أنّ للزمان بداية وللحركة بداية إذا ممّا لا شكّ فيه ستكون لهما نهاية.

حركة الزّمان تماثل حركة الأجسام في قوتها وانتظام سرعتها، ولهذا تنتظم حركة المواقيت وتتزامن مع حركة الكواكب، فلا يأتي الليل مرتين في اليوم الواحد، ولا تتأخر حركة الأرض عن ميقاتها ومكانها ليتأخر الشروق عن النهار ويتضاعف زمن الليل، بل الكلّ في فلك يسبحون وفق سرعة ثابتة ومدارات ثابتة. فاليوم هو اليوم في كلّ دورة للأرض حول نفسها وحول الشمس، وذاك اليوم من العام الماضي لا يختلف عن هذا اليوم الذي يماثله من عامنا هذا، الاختلاف بينهما في المحتوى الذي تتضمنه الأيام، فمحتوى هذا اليوم قد لا يماثل محتوى العام الماضي من حيث درجة حرارته أو برودته أو من حيث الأحداث التي وقعت فيه، وعليه زمن اليوم لا يختلف وفق كلّ دورة سنوية، والمحتوى اليومي مختلف بين الحين والآخر، فاليوم الذي ولد فيه محمّد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هو اليوم الذي توفي فيه، ولذلك قلنا اليوم واحد والمحتوى مختلف.

الزّمان دائرة متصلة يتواجد فيها الماضي جنبا إلى جنب مع الحاضر والمستقبل، ولو عُدنا إلى الماضي البعيد إلى أن نصل إلى النقطة الآن فلا نجد ماضيا على الإطلاق، بل نجد الاثنين معا الآن والمستقبل، ولا نجد الماضي، وذلك لعدم تكوّنه بعد، وبعد أن قُضيت الآن أصبحت ماضيا وحدها، وكلّ ما عداها مستقبل، ولهذا كان المستقبل هو الأكثر والأوفر الذي لا يقارن بأي وقت آخر، لا

بالماضي الذي في تعداده إلاّ الآن الواحدة، ولا بالحاضر الذي لا يمتلك إلاّ اللحظة الآنية، وعليه بداية الحياة مستقبل ونهايتها مستقبل، فالمستقبل الأوّل هو المتكون من الحياة الدنيا، والمستقبل الآخر هو المتكون من نهايتها، ممّا يجعل نهاية الحياة الدنيا بداية للحياة الآخرة، والتي يكون فيها كلّ الماضي كمحتوى هو المستقبل الحسابي لمن وجد في اليوم الأوّل (الحياة الدنيا)، ولهذا لا يتم الاتفاق مع أرسطو ومؤيديه بأن كلّ ما هو ماضٍ قد فسد، فالزّمان الماضي لم يفسد بل إنّه في السجل المحفوظ الذي فيه حسابنا ما ثقل وما خف منه.

وعليه من مستوجبات نجاح الخليفة في ممّارسة حقّوقه وأداء واجباته وحمْل مسؤولياته أن يراعي الزمن ولا يهدره فيما لا يرضي الوكيل، الذي به آمن وأولى أمره إليه، وهذا لا يعني أن يترك أمره للوكيل وهو على حالة من الاتكالية، فالوكيل قال أعملوا وأنتم متوكلّون فيما تعملون على الله الذي بيده الأمر والملك. {وَلِكلّ دَرَجَاتٌ ممّا عَمِلُوا وَمَا ربّك بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ وَربّك الْغَنِيُّ ذُو الرّحمة إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آَخَرِينَ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآَتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}502، وقال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَآَخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}503، وقال تعالى:

502 الأنعام 132 . 135.

503 التوبة 105، 106.

{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}504، وقال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحمن فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحمن أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا وَعِبَادُ الرَّحمن الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا

---

504 الكهف 110.

وَمُقَامًا قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رِبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا}505.

والمتوكلّ على الله صبور ولهذا فالصبر والتوكلّ صفتان لا تجتمعان إلا مع العلم بالله وقدرته والعلم بما سوى الله وضعفه، فمن العلم بالله يعلم الخليفة أنه تعالى الرازق ذو القدرة المطلقة على الرزق في كلّ مكان وكلّ وقت، وعالم بما سوى الله فغير الله زائل وهذا يجعل الأمر يهون عليه، فيلزم الصبر على الزائل الذي لا يدوم، ومن يؤذى في مكان ما ويضيق عليه رزقه فليخرج صبرا وتوكلّا على الله لذلك النّاس قسمان:

- قسم قادر على الخروج وهو متوكلّ على ربّه، يترك الأوطان ويفارق الأهل والإخوان طلبا للرزق بصبر وتوكلّ، قال تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}506، وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:(الْبِلَادُ بِلَادُ اللَّهِ وَالْعِبَادُ عِبَادُ اللَّهِ فَحَيْثُمَا أَصَبْتَ خَيْرًا فَأَقِمْ)507.

والإقامة برفق لأنّه لا رزق بغلظة، فروي في الإحياء "البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فأي موضع رأيت فيه رفقا فأقم"508.

- وقسم خانع خاضع عاجز وهو يصبر بتواكلّ لا بتوكلّ. قال

---

505 الفرقان 58 . 77.

506 النحل 126 . 128.

507 مسند أحمد، ج 3، ص 355

508 تخريج أحاديث الإحياء، ج 2، ص 284

تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السميع العليم}509.

وفي الجمع بين الصبر والتوكلّ (الذين صبروا وعلى ربّهم يتوكلّون) ذكر ما يساعد على التوكلّ وهو بيان حال الدواب، ويأتيها كلّ يوم برزق جديد، والمطلوب منا أن نتخطى درجة الدواب فنسعى صبرا وتوكلا بالعمل على لله الوكيل.

والرزق يتطلب الشكّر والشكّر فيه الزيادة فيضا من الله على الشاكر المتوكلّ على الله سبحانه، قال تعالى: {كلّوا مِنْ رِزْقِ ربّكمْ وَاشكّرُوا لَهُ}510.

ويوضح الله تعالى إن الرزق المعنوي أفضل من الرزق المادي، والرزق المعنوي عند الله، فقد خلق الرزق المادي للاختبار في دار الفناء، قال الله تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ ربّك ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا}511.

ولهذا أخبر تعالى أنّ المال والبنين، زينة الحياة الدنيا، أي: ليس وراء ذلك شيء، وأنّ الذي يبقى للإنسان وينفعه ويسره، الباقيات الصالحات، وهذا يشمل جميع الطاعات الواجبة والمستحبة من حقّوق الله، وحقّوق عباده، من صلاة، وزكاة، وصدقة، وحج، وعمرة، وتسبيح، وتحميد، وتهليل، وتكبير، وقراءة، وطلب علم نافع، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبر والدين، وقيام بحقّ الزوجات، والممّاليك، والبهائم، وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق،

509 العنكبوت 60.

510 سبأ، 15

511 الكهف، 46.

وكلّ أعمال الخير والإصلاح في الأرض والإعمار فيها، وكلّ هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خير عند الله ثوابا وخير أملا فثوابها يبقى، ويتضاعف، ويؤمل أجرها وبرها ونفعها عند الحاجة، فهذه التي ينبغي أن يتنافس عليها المتنافسون، ويستبق إليها العاملون، ويجد في تحصيلها المجتهد، وضربّ الله مثل الدنيا وحالها وذكر أن فيها نوعين:

- نوع من زينتها، يتمتع به قليلا ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه، بل ربّما لحقّته مضرته وهو المال والبنون.

-ونوع يبقى وينفع صاحبه على الدوام وهو (الباقيات الصالحات).

ولمقارنة المادي بالمعنوي يقول الله تعالى: {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ ربّك ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا}[512]

فالله يزيد المهتدين بالإيمان به والتوكلّ عليه بما ينزل عليهم من الآيات والدلائل التي تؤدّي إلى تمسك المؤمن بما انزل الله والعمل بما أراد ليحقّق الخلافة على الأرض، مع العلم واليقين ببقاء الأعمال والأقوال الصالحة التي يرجو بها الخليفة طاعة ربّه (والباقيات الصالحات) لأنها بلا أدنى شكّ (خَيْرٌ عِندَ ربّك ثَوَابا وَخَيْرٌ مَّرَدّا) في الدنيا وفي الآخرة.

ومن التوكلّ على الله تسليم الأمر إليه وحده والاعتماد عليه في كلّ شيء من أمر الدنيا والآخرة لذا فنحن نعيش في نعمة الله

---

512 مريم 76.

الوكيل لأننا مسلمون له قد أسلمنا أمرنا لله "وهذا المعنى في كتب اللغة، وَكلّ بالله وتوَكلّ عليه واتّكلّ استَسْلم إليه"513.

ومن التوكلّ في أبهى صوره ما جاء على لسان أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في القرآن الكريم قال الله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ربّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرّحيم ربّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ ربّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}514.

فإن من يرغب (عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ) أبي الأنبياء بعد ما عرف من فضله لأنه الداعي إلى التوحيد والتسليم لله والتوكلّ عليه (إلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ) ومن السفاهة الجهل بحقّيقتها التي خلقت من أجلها، فالنفس لا تطمئن إلا بالرجوع إلى ربّها ومن الرجوع: رجوع اختياري في الدنيا فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

513 لسان العربّ، ج 11، ص 734

514 البقرة 127--133

ورجوع إجباري بدعوة الله لها بأن ترجع إليه {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى ربّك رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي}515.

وهذه الدعوة الطيبة لا تتأتى إلا من خلال توجه الإنسان للهدف الذي خلقه الله من أجله وهو التسليم والتوكلّ عليه، لا بجهل قيمة نفسه وامتهانها بالبعد عن منهج الخلافة من تسليم وتوكلّ على الله، كما أنه لا أرشد ولا أكمل ممن رغب في ملة سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام الذي اختاره الله في الدنيا.

(وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا) فأسلم لله وتوكلّ عليه لذلك قد أثابه في الآخرة (وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) الذين لهم أعلى الدرجات بتوكلّهم على ربّهم.

(إِذْ قَالَ لَهُ ربّهُ أَسْلِمْ) وهذا أمر الله لمن يريد الثواب في الدنيا والفوز في الآخرة، والجواب بما قاله نبي الله إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام الذي قَالَ: امتثالا وطاعة لله ربّ العالمين (أَسْلَمْتُ لِربّ الْعَالَمِينَ) أسلمت إخلاصا، أسلمت توحيدا، أسلمت محبة، أسلمت إنابة، أسلمت توكلّا عليك يا ربّ فأنت حسبي ونعم الوكيل، ثم أورث ذلك اليقين والتوكلّ والتسليم في ذريته، ووصّاهم بالإسلام والتوكلّ على الله ربّ العالمين، وجعلها كلّمة باقية في ذريته، وتوارثت فيهم، حتى وصلت لنبي الله يعقوب فوصى بها بنيه، وتكررت الدعوة إلى الإسلام بترك الأمر لله والتوكلّ عليه والخروج من الحول والقوّة والحسب والنسب إلى حول الله وقوته وأمره وحكمه لأنه سبحانه وتعالى صاحب الأمر ف (لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ

515 الفجر 27-30

بَعْدُ)516، ولأنّه صاحب الأمر فهو الوكيل الذي يلجأ الكلّ إليه ويسلمون أمرهم له لأنّ إرادته أن يسلم له الخلق، فجعل دينه الإسلام ولا خلاف على ذلك ولا حجّة إلا القول (أسلمت وجهي لله) وهذه الدعوة للعالم بان يعودوا إلى الانقياد لله والتوكلّ عليه كما قال الله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ}517.

ومن التوكلّ على الله والتسليم له والانقياد لأمره واليقين بأن لله تعالى ما سكن في الليل، وتحرك في النهار، وهذا يدل على الاستغراق الزمني والمكاني، وبما أنّ له أمر ما سكن فله بالتالي أمر المتحرك في الزّمان والمكان كما سبق أن أوضحنا، وحال المؤمن المتوكلّ على الله يقول في عجب: هل أتخذ من دون الله وليا وهو خالق السماوات والأرض؟ وهو يطعم الخلق جميعا، الساكن والمتحرك، ولا يطعمه أحد فيحفظ الخلق لأنه وكيل عليهم حافظ لهم، وهو جلت قدرته لا حاجة له فيهم إلا نفعهم، ونفعهم في عبادته، وهذا ما جاء في قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القوّة الْمَتِينُ}518 ومن يعرف ذلك لابدّ وأن يسلم لله ويعلن انقياده التام له ويبتعد عن الشرك به ولا يتخذ من دونه وكيلا، تصديقا لقوله تعالى: {أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا}519،

516 - الروم، 3

517 آل عمران، 19، 20.

518 الذاريات، 56-58.

519 الإسراء 2

ويظهر ذلك التسليم في قول الله تعالى: {وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ}[520].

والمراد هو المنع من اتخاذ غير الله تعالى وليا ووكيلا. لأنّه فاطر السماوات والأرض وهو الذي يطعم ولا يطعم. ومتى كان الأمر كذلك امتنع اتخاذ غيره وليا وكيلا. أما بيان أنّه فاطر السماوات والأرض، فلأن ما سوى الواحد ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يقع موجودا إلا بإيجاد غيره، فنتج أن ما سوى الله فهو حاصل بإيجاده وتكوينه. فثبت أنه سبحانه هو الفاطر لكلّ ما سواه من الموجودات. وأما بيان أنه يطعم ولا يطعم فهذا لأنّ الإطعام عبارة عن إيصال المنافع، وعدم الاستطعام عبارة عن عدم الانتفاع. ولما كان هو المبدئ لكلّ ما سواه من المخلوقات، كان لا محالة هو المبدئ لإيصال جميع المنافع. ولما كان واجبا لذاته كان لا محالة غنيا ومتعاليا عن الانتفاع بشيء آخر فثبت بالدليل القاطع صحة أنّه تعالى فاطر السماوات والأرض، ولهذا امتنع في العقل اتخاذ غيره وليا لأنّ ما سواه محتاج في ذاته وفي جميع صفاته وفي جميع ما تحت يده إلى الله الغني القوي. والله سبحانه وتعالى هو الغني لذاته الجواد لذاته، وترك الغني الجواد، والذهاب إلى الفقير المحتاج ضربٌ من مخالفة العقل والمنطق.

فقوله تعالى: (قل أغير الله أتخذ وليا) يمنع القربّ من غير الله تعالى. وهذا يقتضي ممن أراد الخلافة تنزيه القلب عن الالتفات إلى

---

520 الأنعام، 13-16.

غير الله تعالى فلا يجعل في قلبه يقينا إلا بالله، وقطع العلائق عن كلّ ما سوى الله تعالى. ثم قال تعالى: (قل إنّي أمرت أن أكون أوّل من أسلم) ذلك أن النبي صلّى الله عليه وسلّم سابق أمته في الإسلام لقوله {وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}521.

والنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أول المتوكّلين المسلمين لله أمره ربّه بقوله: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ ربّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}522 وهذه الآية الكريمة تدلُ على أنَّه – عليه الصّلاة والسّلام – مؤدّي العِبَادة مع الإخْلاص، وأكد الله ذلك بقوله تبارك وتعالى: لاَ شَرِيكَ لَه، وهذا من أقْوَى الدَّلائل على أنَّ شَرْط صحة الصّلاة أن يُؤتَى بها مَقْرُونةً بالإخْلاصِ، والإخلاص على وجهين:

-الإخلاص في الحياة بأن يكون الهدف منها طاعة الله بالإسلام له والتوكلّ عليه، واستنفاذ العمر كلّه في جعل كلّمة الله هي العليا وكلّمة الباطل هي السفلى ولا يتأتى ذلك إلا بالعمل الصالح.

-الإخلاص في المماّت بالخروج من الدنيا والقلب غير متعلق بها وقد استفرغها المؤمن من قلبه بالكلّية، وملأ قلبه بطاعة الله، فلا يتوجه إلا لله في الصّلاة والحياة والمماّت والنسك والفروض والنوافل.

ومن التوكلّ على الله ما ورد في حشد من الآيات نذكر منها قوله تعالى:

---

521 الأنعام، 163

522 الأنعام 162.

{وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفي بِاللَّهِ وَكِيلًا أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}523، وهي دعوة صريحة للجوء إلى الوكيل الناصر وهو فعل أمر واجب التنفيذ يا مريد الخلافة هلا اتخذت المنهج وتدبرت تفاصيله الذي لا يوجد فيه اختلاف لأن هذا المنهج من لدن حكيم خبير.

ولأنّه الوكيل المطلق، فلا توكلّ إلا عليه جلّ جلاله، ومن يتوكلّ على غيره يُذل حيث لا اعتماد إلا على الوكيل المطلق، فالبشر هم في دائرة النسبية، متقلبون إلا من آمن بالوكيل المطلق فلا يسلم أمره لغيره، ولذا لا وكالة بالمطلق إلا للحقّ المطلق، والوكيل هو المهتم بالأمر دون مقابل لحاجة، إنه الخلاق الرزاق ذو العرش المجيد.

– وفي التوكلّ الكفاية لأنّه الكافي الذي يكفي من توكلّ عليه، كما كفي زكريا رحمة من الكفيل المطلق جلّ جلاله.

– ومن التوكلّ تدبر القرآن لأنّه المنهج الأمثل للمتوكلّ، لأنه من لدن حكيم خبير وليس من فعل بشر أو من تلقين معلم لذا فلا مجال لنقص فيه من خلاف وتعارض.

ويقول الله تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفي بِاللَّهِ وَكِيلًا (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النّاس وَيَأْتِ بِآَخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}524.

(ولله ما في السماوات وما في الأرض) وذلك لكونه غنيا عزيزا لا يجب العوز والحاجة في صفاته، وجميع المخلوقات تذل بحاجتها

523 النساء، 81، 82..

524 النساء، 131- 134.

إلى غناه، وتدل بهذه الحاجة إنه الغني المطلق، ولهذا لا يجب التوكلّ إلا عليه (وكفي بالله وكيلا) في تدبير أمور الخلق في كلّ الأمور فلابدّ من أن التوكلّ عليه لا على أحد غيره، وهذا ما يقوم به الخليفة المتخلق بالاسم الوكيل فلا يعرف اعتمادا ولا استنادا إلا عليه.

ويخبر تعالى عن ملكه العظيم الواسع المستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير، وتصرفه بأنواع التصريف قدرا وشرعا، فتصرفه الشرعي أن وصى الأولين والآخرين من أهل الكتب السابقة ومن اللاحقّين –أمة الإسلام– بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي، وتشريع الأحكام، والمجازاة لمن قام بهذه الوصية بالثواب، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها بأليم العذاب، ولهذا قال: (وَإِنْ تَكْفُرُوا) بأن تتركوا تقوى الله والعمل بكتابه والإسلام له والتوكلّ عليه، وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا، فإنكم لا تضرون بذلك إلا أنفسكم، ولا تضرون الله شيئا ولا تنقصون من ملكه، وله عبيد خير منكم وأعظم وأكثر، مطيعون له خاضعون لأمره. ولهذا ترتب على ذلك قوله تعالى: (وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا) فلله الجود الكامل والإحسان الشامل الصادر من خزائن رحمته التي لا ينقصها الإنفاق ولا يغيضها نفقة، سحاء بالليل والنهار، لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض أولهم وآخرهم، فسأل كلّ واحد منهم ما بلغت أمانيه ما نقص من ملكه شيئا، ذلك بأنه جواد واجد ماجد، إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون. وهذا ما ذكره النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم فيم يرويه عن ربّ العزّة: "عَنْ أَبِي ذَرٍّعَنْ النَّبِيِّ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كلّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ

يَا عِبَادِي كلّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كلّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ"525.

ومن تمام غناه أنّ له الكمال المطلق إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه، لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال، بل له في كلّ صفة من صفاته الكمال المطلق فيها، ومن ذلك فهو الغني المطلق والوكيل المطلق، ومن تمام غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولا شريكا في ملكه ولا ظهيرا، ولا معاونا له على شيء من تدابير ملكه لأنّه لا يتوكلّ على أحد فالكلّ فقير إليه ويتوكلّون عليه لأنهم يحتاجون إليه وهو لا يحتاج إلى أحد526.

وهو الوكيل على كلّ شيء، القائم على شؤون خلقه بتدبير أمورهم على وجه الكمال والتمام بما تقتضيه حكمته البالغة وعلمه

525- صحيح مسلم، ج 12، ص 455

526 تفسير السعدي، ج 1، ص 207.

المطلق، وقدرته النافذة لأنه له جنود السماوات والأرض وذلك من كمال الوكالة، فإنّ الوكالة تستلزم العلم بما هو وكيل عليه، وامتلاك القوّة والقدرة على التنفيذ والتدبير، ولكون ذلك التدبير على وجه الحكمة والمصلحة بمنافع من يتوكّلون عليه، فلا ينقص من مصالحهم شيء لأن الوكيل هو الله والله تعالى منزه عن كلّ نقص.

ومن النص المقدس الذي يرشدنا إلى شرف التوكلّ على الله ما ورد في قضية الصراع الذي لا ينتهي إلا بصرف المؤمن إلى الجنّة والكافر إلى النّار، الصراع بين الحقّ والباطل، الحقّ بتولي الله له والتعهد بأن يكون وكيلا عنه، والباطل الذي مازال يعمل على ظهور الباطل ومحقّ الحقّ، وهي القصة التي تثير البحث وتدفعه نحو القضية المحورية التي يرتكز عليها الخلافة المثلى على الأرض وهنا تهب علينا نفحات من الاسم الوكيل وفيه يتجلى بفرض وكالته على عباده والذي منهم الخليفة بلا شكّ فهو الربّ صاحب الملك الكافي لعباده شر ما يهمهم ويؤرقهم ويؤلمهم قال الله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفي بِربّك وَكِيلًا}527.

والله هو الوكيل والربّ والمهيمن على الكون وما فيه فيقول للنبي صلّى الله عليه وسلّم والحديث في الوقت ذاته للخليفة ولمن أراد

527 - الإسراء، 61. 64.

أن يحقّق الخلافة نفسه أو في الآخرين: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ ربّك إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا وَتَوَكّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفي بِاللَّهِ وَكِيلًا}528.

قوله عزّ وجلّ: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا) للرسل بالتبليغ شاهدا على الخلق كلّهم يوم القيامة (ومبشرا) لمن آمن بأنّه سيدخل بالجنّة (ونذيرا) لمن كذب بالرّسُل وبحقّ لله في العبادة وبأنه الواحد الأحد فسيكون مصيرهم النّار (وداعيا إلى الله) داعيا إلى توحيده وطاعته والتسليم له والتوكلّ عليه (بإذنه) بأمر الله وإرادته (وسراجا منيرا) سراجا منيرا لأنّه صلّى الله عليه وسلّم نوره جلا ظلمات الشرك واهتدى به الضالون كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير، وقد أمد الله بنور نبوته نور البصائر كما يمد بنور السراج نور الأبصار ووصفه بالنور لأن من السراج ما لا ينير. وسماه سراجا، ولم يسمه شمسا والشمس أشد إضاءة من السرج وأكثر نورا، لأنّ نور الشمس لا يمكن أن يؤخذ منه مقدارا ويوضع في شيء آخر بخلاف نور السراج فإنّه يؤخذ منه أنوار كثيرة (وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا) ولأنه البشير طلب منه صلّى الله عليه وسلّم أن يبشر المؤمنين بزيادة فضل الله عليهم والفضل هو الثواب وتفضيل الأمة المحمّدية على سائر الأمم (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم) في ما يقولون ويفعلون واصبر عليهم حتى تعد لهم العدة وتنتصر عليهم (وتوكلّ على الله وكفي بالله وكيلا) واعتمد عليه وانتصر به وله واكتفي بقوته وقدرته فهو الحافظ لك ولمن اتبعك الذي يملك القوّة المطلقة وهو الربّ الذي يعتمد عليه.

528 الأحزاب، 1-3.

ومن معاني الوكيل كما بدأنا في أول البحث في هذا الاسم الشريف، الربّ صاحب الملك ومالكه والمتصرف فيه، ويتجلى ذلك في أم الكتاب في قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ ربّ الْعَالَمِينَ الرّحمن الرّحيم مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}529، فهو ربّ العالمين ومن يتوكلّ عليه ويجعل اعتماده مستندا إليه لا يخاف من معلوم أو مجهول لأنه ربّ العالمين العالم بالمرئي وغير المرئي، ولا يخشى المتوقّع ولا غير المتوقّع لأنهما جميعا في دائرة ملكه، ومن يعيش وهو يعلم أنه في ملكه يكن أسعد الخلق لأنه يعتمد ويتوكلّ على ربّ العالمين.

وربّ العالمين من ملكه الواسع رحمته الواسعة التي وسعت كلّ شيء فلأنه ربّ العالمين فهو عالم الشهادة الذي نعيش فيه وعالم الغيب الذي لا نعرف عنه إلا ما أخبرنا الله به، ومن الذي أخبرنا به إنه مالك يوم الدين فهنيئا لمن يتخذه وكيلا في الدنيا فيكفيه ويحميه ويهديه للعمل الصالح النافع وهنيئا لمن يتخذه وكيلا فيرحمه برحمته في يوم لا يملك فيه أحد أن يتكلّم إلا بإذنه لأنّه ربّ السموات والأرض وصاحبهما: {ربّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرّحمن لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرّحمن وَقَالَ صَوَابًا ذَلِكَ الْيَوْمُ الحقّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى ربّهِ مَآبًا}530. ولا ينجو في ذلك اليوم إلا من عرف أنه مالك يوم الدين وقال وعمل: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا

529 الفاتحة، 1 -7.

530 النبأ، 37-39.

الضَّالِّينَ} فنحن نعبدك ونوحدك بتخصيص العبادة لك لأنك ربّ العالمين مالك الدنيا والمتصرف فيها والمتوكلّ عليك والمعتمد عليك في الدنيا والمرجوة رحمتك في الآخرة والذي لا استغناء عن جودك وكرمك ورحمتك في عالم الشهادة وفي عالم الغيب ونقول كما قال المصطفي صلّى الله عليه وسلّم في الدعاء الجميل العذب الذي ينسال خشوعا وخضوعا لربّ العالمين بعدما تعرّض صلّى الله عيه وسلّم لأذى الكفار في ثقيف لما أراد هدايتهم فأبوا إلا الكفر فلجأ عليه الصّلاة والسّلام إلى الربّ الوكيل العظيم، وهذا ما ورد في سيرته العطرة (السيرة النبوية) فقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم، فيما ذكر، إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا علي. وكره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم ذلك عليه. فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه النّاس وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربّيعة وشيبة بن ربّيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه. فعمد إلى ظل عنب فجلس فيه، وابنا ربّيعة ينظران إليه ويريان ما يلقى من سفهاء أهل الطائف. فلما اطمأن قال فيما ذكر: "اللهم إليك أشكّو ضعف قوتي وهواني على النّاس، يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربّي، إلى من تكلّني، إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى، لا حول ولا قوّة ألا بك"531.

---

531 ابن كثير – ج 2، ص 150

وفي نص آخر به زيادة "وقلة حيلتي:

فَلَمّا اطْمَأَنّ رَسُولُ اللهِ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وسلّم قَالَ: اللّهُمّ إلَيْك أَشكّو ضَعْفَ قُوّتِي، وَقِلّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النّاس يَا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ أَنْتَ ربّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ ربّي، إلَى مَنْ تَكلّنِي؟ إلَى بَعِيدٍ يَتَجَهّمُنِي؟ أَمْ إلَى عَدُوّ مَلّكْتَهُ أَمْرِي؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بِك عَلَيّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنّ عَافِيَتَك هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِك الّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَك، أَوْ يَحِلّ عَلَيّ سُخْطُكَ لَك الْعُتْبَى حَتّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قوّة إلّا بِك532.

ومن تمام التوكلّ على الوكيل لجوء المكروب المضطر إليه فيكفله الوكيل ويحميه، وقد علمنا الرّسول الأعظم أن نلجأ إلى الوكيل عند الشدة ومن ذلك تعليمه لنا كلّمات المكروب فيقول:

"اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلّني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كلّه، لا إله إلا أنت"533.

عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال في دعاء المضطر "اللهم رحمتك أرجو فلا تكلّني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كلّه لا إله إلا أنت"، وقال في حديث آخر: "إنك إن تكلّني إلى نفسي تكلّني إلى ضعف وعورة وذنب وخطيئة، وإني لا أثق إلا برحمتك فاغفر لي ذنوبي كلّها إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وتب على إنك أنت التواب الرّحيم"534.

532 سيرة ابن هشام - ج 1، ص 420

533- مصنف ابن أبي شيبة - ج 7، ص 21

534- شعب الإيمان للبيهقي - ج 2، ص 322

وقال النبي صلّى الله عليه وسلّم للسيدة الزهراء عليها السلام، عن أنس بن مالك قال: قال النبي صلّى الله عليه وسلّم لفاطمة ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به أو تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كلّه ولا تكلّني إلى نفسي طرفة عين"535.

ومن دعاء النبي صلّى الله عليه وسلّم يوم أحد: "يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، اكفني كلّ شيء ولا تكلّني إلى نفسي طرفة عين"536.

ومن التوكلّ على الله الانتصار به وله، ومن توكلّ عليه حفظه ونصره وهذا ما حدث في بدر وحدث في مواطن كثيرة وسيحدث إن شاء الله في مواطن يحتاج إليها المتوكلّون عليه.

قال الله تعالى:{وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْربّ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آَتَاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحقّوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلّهِ وَالرّسول مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاس إِنَّ النّاس

535- السنن الكبرى للنسائي - ج 6، ص 147

536 -الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم - ج 8، ص 276

قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}537.

وكانت قريش أعلى النّاس شجاعة وأوفاهم قوّة وأعرقهم أصالة فكانوا كأنهم جميع النّاس، فكان التعبير بصيغة في قوله: (الذين قال لهم النّاس) أي نعيم أو ركب عبد القيس (إن النّاس) يعني قريشا (قد جمعوا لكم فاخشوهم) أمدح للصحابة رضي الله عنهم من التعبير عمن أخبرهم ومن جمع لهم بخاص اسمه أو وصفه.

ولما كان الموجب لإقدامهم على اللقاء بعد هذا القول الذي لم يشكّوا في صدقه ثبات الإيمان وقوّة التيقن قال تعالى: (فزادهم) أي هذا القول إيمانا لأنه ما ثناهم عن طاعة الله ورسوله، وقالوا، ازدراء بالخلائق اعتمادا على الخالق (حسبنا) أي كافينا الله، أي الملك الأعلى في القيام بمصالحنا. ولما كان ذلك هو شأن الوكيل وكان في الوكلّاء من يذم قال: (ونعم الوكيل) أي الموكول إليه المفوض إليه جميع الأمور؛ روى البخاري في التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "هذه الكلّمة قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النّار، وقالها محمّد صلّى الله عليه وسلّم حين قالوا: إنّ النّاس قد جمعوا لكم. وقال: كان آخر كلّمة قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النّار: حسبي الله ونعم الوكيل". ولما كان اعتمادهم على الله سببا لفلاحهم قال: (فانقلبوا) أي فكان ذلك سببا لأنهم انقلبوا، أي من الوجه الذي ذهبوا فيه مع النبي صلّى الله عليه وسلّم (بنعمة) وعظمها بإضافتها إلى الاسم الأعظم فقال: (من الله) أي الذي له الكمال كلّه (وفضل) أي من الدنيا ما طاب لهم من طيب الثناء بصدق الوعد ومضاء العزم وعظيم الفناء والجرأة إلى ما نالوه. عند

---

537 آل عمران، 166-173.

ربّهم حال كونهم (لم يمسسهم سوء) أي من العدو خوفوه ولا غيره (واتبعوا) أي مع ذلك بطاعتهم لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بغاية جهدهم (رضوان الله) الذي له الجلال والجمال فحازوا أعظم فضله والله الذي لا كفء له عظيم في الدارين على من يرضيه، فستنظرون فوق ما تؤملون، فليبشر المجيب ويغتم ويحزن المتخلف، ولعظم الأمر كرر الاسم الأعظم كثيرا، ولما جزاهم سبحانه على أمثال ذلك بما وقع لهم من فوزهم بالسلامة والغنيمة بفضل من حاز أوصاف الكمال وتنزه عن كلّ نقص بما له من رداء الكبرياء والجلال، ورغبهم فيما لديه لتوليهم إياه، أتبع ذلك بما يزيدهم بصيرة من أن المخوف لهم مَن كيده ضعيف وأمره هين خفيف واهٍ سخيف وهو الشيطان، وساق ذلك مساق التعليل لما قبله من حيازتهم للفضل وبعدهم عن السوء بأن وليهم الله وعدوهم الشيطان فقال التفاتا إليهم بزيادة في تنشيطهم أو تشجيعهم وتثبيتهم: (إنّما ذلكم) أي القائل الذي تقدم أنه النّاس (الشيطان) هو الطريد البعيد المحترق538.

ومن آيات الله يمكن أن نستخلص بعضا من صفات الوكيل بالإضافة كما يقول الله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاة وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}539.

-الإيمان بالله ربّا واحدا مالكا للملك وكيلا معينا.

---

538 نظم الدرر للبقاعي – ج 2، ص 143

539 الأنفال، 1 . 4.

-الخوف من الله الذي سيحاسب الإنسان على ما قدمت يداه، ويراقبه من الميلاد حتى الوفاة في مدة الاختبار والابتلاء، فيستشعر الخليفة هذا المعنى العظيم فيخاف منه حبا فيه لأنه سبحانه لا يستحقّ المعصية بعدما أوجد الإنسان وسخر له الأرض وما فيها وما عليها ليقيم الخلافة الإلهية عليها.

-التوكلّ على الله في كلّ شيء لأنه الحافظ القيوم الرازق القوي المتين.

- إقامة الصّلاة، فهي الصلة بين الإنسان وربّهِ دون حجاب ودون واسطة فبها ينتقل المرء من عالم الملك على عالم الملكوت وتسمو روحه وتحلق في أنوار لا حصر ولا وصف لها.

-الإنفاق من رزق الله الذي وكلّهم عليه ومن ذلك حسن التوظيف للمال وتوجيهه لمساعدة المستحقّ للمساعدة، وتتعدد جوانب الإنفاق حسب الحاجة، لأنّه بعدم الإنفاق يكون الهلاك للبخيل الممسك وللفقير المحتاج وصدق الله في قوله: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}540.

عن ابن عباس: "ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة"، قال: ليس التهلكة أن يُقتل الرّجل في سبيل الله، ولكن الإمساك عن النفقة في سبيل الله"541.

وسبيل الله في مصارف عديدة، ومن هنا فالبخل هلاك للنفس وللغير، للنفس بحرمانها من طيبات الله في الدنيا ومن نعيم الله في

540 البقرة، 195.

541 تفسير الطبري - ج 3، ص 584

الآخرة، فمن يملك المال في مكان ما ويكنزه مع حاجة المكان لبناء مدرسة أو مستشفي أو مسجد أو مصنع أو مسكن ويقصر في ذلك بحجب المال ومنعه بكنزه أو بالانتفاع الشخصي به فهو قد أهلك نفسه وغيره.

-وجزاء من يؤمن بالله ويخافه وينفق في سبيله ولا يبخل بالنفس والمال رزق من الله ومغفرة.

وفي مجال الإنفاق فقد جعل الله الغني وكيلا على المال بشرط عدم البخل على الفقراء لأنهم عيال الله أي عالته المسئولون منه لذا فقد جعل الثواب الجزيل للمنفق في سبيل الله في صور الإنفاق المختلفة.

والوكيل بالإضافة الذي يعلم تمام العلم أن الرزق بيد الله فلا يخشى بأس أحد أو ظلم أحد فيأخذ في أسباب السعي للحصول على الرزق وهذا من صور التوكلّ التي عرفنا إياها الحبيب صلّى الله عليه وسلّم فقال: "لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حقّ تَوَكّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا"542.

لذا التوكلّ هو الأخذ بالأسباب" وقال الله تعالى: {وتزودا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}543.

أَيْ تَزَوَّدُوا وَاتَّقُوا أَذَى النّاس بِسُؤَالِكُمْ إِيَّاهُمْ وَالْإِثْم فِي ذَلِكَ، وَالتوكلّ لَا يَكُون مَعَ السُّؤَال وَإِنَّمَا التوكلّ الْمَحْمُود أَنْ لَا يَسْتَعِين بِأَحَدٍ فِي شَيْء، وَهُوَ قَطْع النَّظَر عَنْ الْأَسْبَاب بَعْدَ تَهْيِئَة الْأَسْبَاب،

---

542 سنن ابن ماجه – ج 12، ص 199

543 البقرة 197

كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصّلاة والسّلام "اِعْقِلْهَا وَتَوَكل"544، ولذا تؤخذ الأسباب بالتوكلّ على الله الوكيل المطلق جلّ جلاله الذي آمن به المستخلفون في الأرض وأولوه أمرهم طاعة تامة لا شريك له بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير.

نعم فمن التوكلّ المحمود عدم الاستعانة إلا بالله فنحن نقول (إياك نعبد) فأنت الوكيل علينا ولما كنت أنت الوكيل علينا فقد سلمنا لك أمرنا إليك و(إياك نستعين) عليك لا على غيرك مع الأخذ بالأسباب كما أمرتنا، فنلقي البذرة في الأرض بعد حرثها وتهيئتها ونرويها بالماء ونتوكلّ عليك في إخراجها وكذا في كلّ أمور حياتنا إخلاصا في العبادة وإفرادا في التوكلّ والاستعانة.

وعَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم: "أَنَّ دَاوُدَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصّلاة والسّلام كَانَ لَا يَأْكلّ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ"545.

وعن ابْن عَبَّاس، قَالَ: "كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحُجُّونَ وَلا يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ المتوكلّونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النّاس، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}". تزودوا فلا تؤذوا النّاس بسؤالكم إياهم، واتقوا الإثم في أذاهم بذلك.

وفيه: إن التوكلّ لا يكون مع السؤال، وإنما التوكلّ على الله دون استعانة بأحد في شيء، ويبين ذلك قوله عليه الصّلاة والسّلام: "يدخل الجنّة سبعون ألفًا بغير حساب، وهم الذين لا يسترقون، ولا

---

544 فتح الباري لابن حجر – ج 5، ص 161

545 فتح الباري لابن حجر – ج 6، ص 382

يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربّهم يتوكّلون". فهذه أسباب التوكلّ وصفاته546.

وقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم: "يَدْخُلُ الجنّة مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ قَالُوا وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ هُمْ الَّذِينَ لَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكّلُونَ فَقَامَ عُكَّاشَةُ فَقَالَ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ قَالَ أَنْتَ مِنْهُمْ قَالَ فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ قَالَ سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ".

وَقَوْله صلّى الله عَلَيْهِ وسلّم: (وَعَلَى رَبّهمْ يَتَوَكّلُونَ) اِخْتَلَفَتْ عِبَارَات الْعُلَمَاء مِنْ السَّلَف وَالْخَلَف فِي حقّيقَة التوكلّ، فَحَكَى الْإِمَام أَبُو جَعْفَر الطَّبَرِيُّ وَغَيْره عَنْ طَائِفَة مِنْ السَّلَفِ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَا يَسْتَحقّ اِسْم التوكلّ إِلَّا مَنْ لَمْ يُخَالِط قَلْبه خَوْف من غَيْر اللَّه تَعَالَى مِنْ سَبُع أَوْ عَدُوّ حَتَّى يَتْرُك السَّعْي فِي طَلَب الرِّزْق ثِقَة بِضَمَانِ اللَّه تَعَالَى لَهُ رِزْقه، وَقَالَتْ طَائِفَة: حَدّه الثِّقَة بِاَللَّهِ تَعَالَى وَالْإِتْقَان بِأَنَّ قَضَاءَهُ نَافِذ وَاتِّبَاع سُنَّة نَبِيّه صلّى الله عَلَيْهِ وسلّم فِي السَّعْي فِيمَا لابدّ مِنْهُ مِنْ الْمَطْعَم وَالْمَشْربّ وَالتَّحَرُّز مِنْ الْعَدُوّ كَمَا فَعَلَهُ الْأَنْبِيَاء صَلَوَات اللَّه تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. قَالَ الْقَاضِي عِيَاض: وَهَذَا الْمَذْهَب هُوَ اِخْتِيَار الطَّبَرِيُّ وَعَامَّة الْفُقَهَاء.

وَلَا يَصِحّ التوكلّ مَعَ الِالْتِفَات وَالطُّمَأْنِينَة إِلَى الْأَسْبَاب، بَلْ فِعْل الْأَسْبَاب سُنَّة اللَّه وَحِكْمَته وَالثِّقَة بِأَنَّهُ لَا يَجْلِب نَفْعًا وَلَا يَدْفَع ضُرًّا وَالْكلّ مِنْ اللَّه تَعَالَى وَحْده. قَالَ الْإِمَام أَبُو الْقَاسِم الْقُشَيْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّه تَعَالَى: اِعْلَمْ أَنَّ التوكلّ مَحَلّه الْقَلْب، وَأَمَّا الْحَرَكَة بِالظَّاهِرِ فَلَا

546 شرح ابن بطال – ج 7، ص 225

تُنَافِي التوكلّ بِالْقَلْبِ بَعْد مَا تَحقّقَ الْعَبْد أَنَّ الثِّقَة مِنْ قِبَل الله تَعَالَى، فَإِنْ تَعَسَّرَ شَيْء فَبِتَقْدِيرِهِ، وَإِنْ تَيَسَّرَ فَبِتَيَسُّرِهِ547.

التوكلّ طاعة:

وفي هذا قال الله تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ}548.

والتوكلّ على الله طاعة لله ولرسوله لأن الله قد عرفنا في كتابه أن لكلّ شيء سبب فلا ننصرف عن التوكلّ بالتواكلّ.

ونأخذ بأسباب النصر بإعداد الجيوش.

وبأسباب الشفاء بإعداد الدواء.

وبأسباب الطعام بشق الأنهار وتعمير الأرض وزراعتها.

وبأسباب القوّة في كافة أشكّالها بإعداد الإنسان الخليفة.

ونستلهم قول الله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كلّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا}549.

فالتوكلّ على الله هداية، وعدم التوكلّ على الله ضلال، لأنه الخالق المالك الذي يملك النفع والضر، ولا يملك كشف الضر سواه، ولا يملك رحمة بخلقه سواه، لذا فإن الله هو الكافي الذي لا كافي غيره وهو ملاذ وملجأ المتوكلّين، ومن يتوكلّ على الله فالله كافيه وهذا قوله تعالى لنبيه وبشراه لكلّ من يتخذه وكيلا ويصدق بكلّامه وأنبيائه: {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ

---

547 السابق

548 الأنفال- 46

549 الكهف 83- 85

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المتوكّلونَ}550

وسنختم بحثنا في اسم الله الوكيل وعلاقته بمعنى الخلافة وأن الخليفة هو من يتوكلّ عليه والاعتماد عليه مع الأخذ بأسباب النجاح وهذا ما تمثل في سيرة النبي صلّى الله عليه وسلّم في حياته بشكلّ عام وفي الهجرة بشكلّ خاص، مع أنّنا نجد التوكلّ في أسمى صوره في كلّ لمحة من ملامح حياته ومواقفه صلّى الله عليه سلم، ففي الهجرة صور الله لنا هذا التوكلّ في قوله تعالى في الحوار بين الصديق والحبيب بقوله تعالى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِّمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِّمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}551.

فمعية الله في التوكلّ عليه والأخذ بأسبابه، فلا حزن لمن كان الله معه، ولا هزيمة لمن كان الله ناصره، ولا فقر لمن كان الله رازقه، والسكينة لمن يستأنس به، والكفاية لمن يكتفي به كما اكتفي به زكريا عليه السّلام.

زكريا قيّوما:

قال تعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا ربّهُ قَالَ ربّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي

550 الزمر 37 -38

551 التوبة -40

الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}552

فقوله تعالى: (قائما يصلي في المحراب) يدلّ على قيّومية زكريا التي لا تكون إلّا مستمدّة من القيوم جلّ جلاله، القيوم "القائم على كلّ نفس بما كسبت، وقيل القائم بذاته المقيم لغيره، وقيل القائم بتدبير خلقه وحفظه، وقيل هو الذي لا ينام وقيل الذي لا بديل له"553.

وهنا فالقيوم من أسمائه الحسنى جلّ جلاله، والتي جاء ذكرها مقترنا مع اسمه الحي؛ لاقتران القيام بالحياة وهي رمزها ودلالتها؛ فكيف تعرف الحياة إذا لم يعرف ويظهر قيامه على الأشياء، وجاء اسم القيوم بهذه الصيغة البلاغية لما تحمله من معنى دقيق في قيامه على الأشياء الدقيقة وبما تحمله من معنى واسع لاشتماله على كلّ الأكوان من السماوات والأرضين وما بينهما، فهي التي يتضح بها معنى الأسماء الأخرى بما لها من ارتباط وثيق وأساسي، فنعرف الحياة بالقيام، وبها نعرف الثواب والانتقام، ولهذا جاء قوله تعالى: (قائما يصلي في المحراب) والقيام هنا تعبّد للحي القيّوم؛ فزكريا عليه السّلام كان قيّميان أي متعبّدا وحريصا على تعبّده لله تعالى، ومن ثمّ فالقيوم هو الذي تظهر علامات قيامه على خلقه كما ظهرت على زكريا عليه الصّلاة والسّلام، وكما تظهر فيما حولنا من الأمور والأشياء جلية وخفية، ومنها:

1 -قيامه على كلّ نفس: قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا

---

552 آل عمران 38، 39.

553 المصدر السابق، ص 236.

أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاس جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كلّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ}554. والخليفة القيوم هو الذي يرعى النفوس من الهلاك الجسدي والمعنوي، فيقوم برعاية الأجساد عن أسباب الهلاك بالنصيحة السليمة ويدعوهم إلى الطريق القويم وينهاهم عن الرذائل والموبقات التي بعدت بهم عن الطريق المستقيم.

2 . قيامه على استجابة الدعاء: قال تعالى: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}555. والخليفة دوره أن يدعو العباد المستخلفين في الأرض إلى العمل الناجح والصلاح والفلاح في الدين والدنيا؛ إن إعمار الأرض والحكم بما انزل الله تعالى هو

554 الرعد 31-34.

555 النمل 59 . 62.

صفة من صفات القيوم بالإضافة الذي استمد صفاته من صفات القيوم المطلق، وبذلك فإن تعليم العباد القيم الخيرة التي بها تعمر الأرض وتقوى العلاقات بين النّاس هو خير وسيلة لاستجابة الدعاء، مصداقا لقوله تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}556 فعلى الخليفة أن يحث النّاس ويحرضهم على الإكثار من أفعال الخيرات، ويعلمهم بأن لهم ربّ قيوم يقوم ويرى حوائجهم ليلا ونهارا، ويعلمهم أنه تعالى قريب مجيب، ولكون الخليفة قيوم بالإضافة فلابدّ أن يرى للناس أمرهم وأن يستجيب لمطالبهم، وأن يرعى حقّوقهم، بالمتابعة عينا وأثرا، وأن يشجعهم على أداء واجباتهم وحمل مسؤولياتهم وأن يتقوا الله وهم مدركون بأنه لا قيوم عليهم بالمطلق سواه.

3 . قيامه على علم ما تكنه الصدور: القيوم هو الذي لا يغفل ولا يهمل وإن أمهل، ولذا فهو القيوم على كلّ قول وكلّ فعل سواء كان قولا أو فعلا ذا أثر موجبا أو كان ذا أثرٍ سالبٍ، قال تعالى: {إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ}557، وقال تعالى: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا وَقَالُوا مَالِ

556 التوبة 103 . 105.

557 لقمان 21-24.

هَذَا الرّسول يَأْكلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا انْظُرْ كَيْفَ ضَربُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا}558. لما كان جلّ جلاله قيوما لابدّ وأن يعلم خفايا الأمور، وإلا كيف يكون قيوما من لا يستطيع أن يعلم الخفي والمستتر، فالقيوم لتكتمل قيوميته لابدّ أن يكون عليما بما في الصدور وبما هو أخفي من ذلك، فكما قال تعالى: {الرّحمن عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفي اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}559.

علم الصدور لا يعلمه بالمطلق إلا الحي القيوم، ولا يعلمه هو كما هو بأثره النفسي أو التفكري أو التذكري إلا صاحبه الذي يحس به أو بأثره عليه، ومع ذلك قد يكون صاحبه قاصرا خاصة إذا دخلته الأمراض النفسية والبدنية أو الضغوط والمؤثرات العقلية.

والخليفة القيوم بالإضافة لم يطلب منه ليعرف خفايا الأمور بالتجسس والتحسس لأحوال النّاس؛ لأنه تعالى نهى عن التجسس وتقييد أحوال النّاس والدخول في أمورهم الداخلية ما لم يطلب منه ذلك، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ

---

558 الفرقان، 5- 9.

559 طه، 5-8.

بَعْضًا أَيُحِبُّ أحدكُمْ أَنْ يَأْكلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ يَا أَيُّهَا النّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}560. ولكن يجب أن يكون فطنا عارفا لما يدور حوله من الأمور يقظا لكلّ من يحاول أن يعبث أو يفسد في الأرض بعد إصلاحها، فحين ذاك وجب عليه الرد وصدهم تنفيذا لأمر الله جلّ جلاله، قال تعالى: {إِنَّ ربّكمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ ربّ الْعَالَمِينَ ادْعُوا ربّكم تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كلّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}561، وقال تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ ربّكمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النّاس أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَلَا تَقْعُدُوا بِكلّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}562.

560 الحجرات 11-13.

561 الأعراف 54-57.

562 الأعراف 85،86.

وعليه فإن الحي القيوم هو الذي يعلم ما تكنه الصدور وما تظهره (باطن وظاهر) والقيوم هو المسؤول عن كشف ما ظهر وما بطن، ولهذا فالأعمال بالنيات ولكلّ أمريءِ ما نوى، ولهذا ألزم كلّ طائر بعنقه قال تعالى: {وَكلّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفي بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزرَ أُخْرى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحقّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفي بِربّك بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}563.

4 . قيامه على خلق النبات: قال تعالى: {أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ}564، وقال تعالى: {وَضَربّ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكلّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كلّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}565. وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كلّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ

---

563 الإسراء، 13 . 17.

564 النمل 60.

565 يس 78-83.

يَتَفَكَّرُونَ}566. لينظر الإنسان إلى ما حوله من الشجر باختلاف أنواعها وأحجامها سيجد أنّها لم تأتِ عبثا بل بقدرة صانع عالم قادر مسيطر على ما يصنع بقوّة وعزة فمهما يكبر حجم الشجرة فهي تحت قدرته وقوته، وهيمنته الذي لا يعزب عن علمه الشجر مهما كثر أو صغر، ولأنه الحي فهو الذي يستطيع إيجادها دون تكلّف أو عناء وبذلك كان اسم القيوم من أسمائه التي يجب على الخليفة أن يتحلى بها وليكون قيوما بالإضافة فعليه أن يرعى الشجر والعشب من حيث السماد لتقويتها وتحقّيق الاستفادة القصوى منها للحيوان عامة والإنسان خاصة، وبذلك يتحقّق له العناية الإلهية لأنه قام بواجبه نحوها، والله المستعان.

5 . قيامه على خلق الأرض: الأرض هي الطينة التي منها طينة آدم عليه الصّلاة والسّلام، فلو لم تكن الأرض سابقة ما كان آدم بالأمر (كن) مخلوق خلقا مباشرا منها، ولأن القيوم خلق الشيء وخلق من الشيء أشياء كان التكاثر والتعدد والتنوع، ومع أنّ الأرض لم تعد سرا في خلقها، إلا أن في خلقها سرا لا يعلمه كاملا ويقينا إلا هو، ونحن نعلم من هذا السر خلق آدم منها، ولأنه منها وفي أحسن تقويم كان هو المستخلف فيها.

وعليه فخلق الأرض نعمة كاملة غير منقوصة بالنسبة للمخلوقين منها والمخلوقين عليها، وذلك بتماثلها مع العمر الزمني الذي يحدده القيوم لكلّ مخلوق كبير أو صغير يُرى بالعين المجردة أو بالعين المضخمة للرؤية، أو أنه لم يُرى بعد وهو على نصيبه في الأرض يعيش.

---

566 النحل 11،10.

ومن الواجب الإصلاح والفلاح في الأرض ومن المحرم سفك الدماء فيها بغير الحقّ ومن المحرم الإفساد فيها فالأرض هي الكنز الذي منه تعيش المخلوقات ومنه ترتزق ومنه تكتنز ومنه تستثمر، فهي السطح المناسب للحياة وهي بجاذبيتها ربّت كبد حنونا على من فيها، فهي المتمسكة بمن فيها ومن عليها في ثبات وملاطفة وراحة تامة، إنها في حالة حركة دائمة ومع ذلك لا تحسس من تحتضنهم بما يقلقهم من على ظهرها إذا لم يحدث القيوم أمرا بزلزلة أو بركان أو فيضانات ومع ذلك فهي التي تحمل الماء الذي يروي عباد الله والنبات الذي يشبع حاجاتهم للأكلّ، والثمار المتنوعة التي فيها كلّ ما يحتاجه الجسم والعقل والبدن وسبحان الله والحمد لله على فضله الواسع الذي لا يُحصى. قال تعالى: {أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}567، وقال تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}568، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَممّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآَخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}569، وقال تعالى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ

567 النمل 61.

568 البقرة، 28،29.

569 البقرة، 267-269.

وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ آَمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ ربّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كلّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحد مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ ربّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ لَا يُكلّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ربّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ربّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ربّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}570.

إنّ في خلق الأرض دلالة واضحة على قيوميته وقدرة قيامه عليها وبكلّ دقة لأكبر دليل على سعة علمه بالأشياء أينا كان حجمها أو بعدها في عمق الأرض، فهذه الأرض وما خلق فيها من الأنهار والسهول والجبال والهضاب كلّها لم تكن عبثا بل جعلها لتخدم مستخلفيه الذين هم قائمون عليها بالإضافة والذين وجب عليهم أن يعمروها بالخير والبركة وأن يراعوا حدود الله فيها دونما طغيان أو بطر؛ لأن الذين أعجبتهم أنفسهم من الأمم السابقة ولم يحمدوا الله على ما آتاهم، وبدلوا نعمة الله كفرا كان مصيرهم جهنم كما قال تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النّار قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا يُقِيمُوا الصّلاة وَيُنْفِقُوا مِمّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وعلانية مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ اللَّهُ

---

570 البقرة، 284- 286.

الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآَتَاكُمْ مِنْ كلّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} 571.

6 . قيامه على خلق الرياح وتسخيرها: الرياح دائما في دائرة الممكن تأتي بالمتوقّع وتأتي بغير المتوقع، فقد تأتي بالأمطار وقد تأتي بالرياح الجافة وقد تأتي بالكوارث ولكلّ حساب، فالمتوقّع وغير المتوقّع متغيران رئيسان في دائرة الممكن. تؤسس عليهما تساؤلات أو فروض يمكن إثبات صحتها ويمكن بطلأنها.

الممكن:

هو الذي (لا شكّ في حدوثه، أو ظهوره كلّما توفرت معطياته أو شروطه). ولهذا لا يعد الممكن مستحيلا. وبما أنه غير مستحيل. إذن بالضرورة سيقع وفقا لما نتوقع أو وفقا لما لا نتوقع.

دائرة الممكن:

تتكون دائرة الممكن من (المتوقّع وغير المتوقّع). التي تتساوى فيها فرص ظهور كلّ منهما وفقا للفرض الصفري بنسبة ثابتة قدرها 50%.

المتوقّع:

هو الذي (بحدوثه أو ظهوره أو وجوده لا تحدث المفاجأة، ولا الاستغراب).

---

571 إبراهيم، 27-34.

ولهذا المتوقّع معطيات حدوثه أو ظهوره متوفرة بين أيدي الباحثين، ما يجعل صحة إثباته (هوّ كما هوّ). وعليه إذا ما وقع لا تحدث المفاجأة ولا الاستغراب.

غير المتوقّع:

هو الذي (لا تتوفر معطيات أو شروط حدوثه أو ظهوره، بين أيدي البحاثة ومع ذلك قد يقع). ما يجعله في حالة تساوي نسبي مع المتوقّع في دائرة الممكن. ولهذا إذا ما وقع تقع المفاجأة أو الاستغراب.

المستحيل: هو الذي لا إمكانية لوصوله أو بلوغه عبر الزمن.

ولكن بما أن كلّ شيء ممكن، فلماذا الاستغراب؟

الاستغراب: لحدوث أو ظهور غير المتوقّع، بدلا ممّا هو متوقع. أي ظهور ما لم يكن في الحسبان. وإذا فكر الخليفة في المتوقّع فقط قد يواجهه غير المتوقّع. ولذا عليه أن يتدبر ويفكر ويتذكر ويعتبر من القصص والحكم قال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرّسول وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا}572، وقال تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ

572 النساء، 82، 83.

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}573.

ولذا فإن الممكن امتداد متوقع وغير متوقع في دائرة الزّمان. وبما أن الممكن امتداد متوقع وغير متوقع في دائرة الزّمان. وأنّ الزّمان يمتد في الماضي والحاضر والمستقبل.

إذن: بالضرورة ستتباين صوره من وقت لوقت آخر وتتباين الأعمال وتتعدد القيم وهو وأحد أحد لا تأخذه سنة ولا نوم سبحانه.

في الماضي: بالنسبة لنا ونحن في هذا الزمن الحاضر. ما كان متوقعا أو غير متوقع قد وقع بالفعل أو لم يقع بالفعل. ولهذا يعد الممكن مثبتا ولن يعد متوقعا من حيث الحدوث أو عدمه. ولكن مع أنّه أصبح مثبتا إلا أنه في حاجة لبرهنة تُمكِّن المتحاورين أو البحاثة أو الدارسين من معرفته دليلا وحقّيقة.

فعلى سبيل المثال: قيل لأحد الأصدقاء أنّ الشيخ الفلاني أو العلامة الفلاني أو عالم علوم الفقه والدين الذي تعرف عنه كلّ خير قد قدمَ على أفعال لا أخلاقية (هتك عرض) مع أحد أقاربّه قبل خمس سنوات، فأجاب على الفور وبكلّ سرعة. هذا ليس ممكنا. أنا لا أصدق. وطلب الدليل والبرهان.

مع أنّ الأمر قد وقع قبل خمس سنوات إلا أنّ صديقنا لا زال لم يُصدِّق، وبالنسبة له وكأن الأمر لم يقع بعد. وعندما أثبت له دليلا وبرهانا قاطعا دخل في دائرة الاستغراب وكأنه لم يُصدِّق.

---

573 محمّد 20 . 24.

التعليق:

في الأمر الواقع أن الممكن يرتبط بالزّمان (الآن) في كلّ وقت من الأوقات الثلاثة. ولهذا يسبق الممكن وقوع الفعل أو المترتب على ما هو متوقع أو غير متوقع (أي نتوقع أولا، ثم يقع ما توقعنا، أو لا يقع). وهذا ما لا ينطبق على الزّمان الماضي الذي فيه وقع الفعل أو الحدث.

ولذا مع أنّ الفعل قد حدث قبل خمس سنوات، إلا أنّ الاستغراب لازال يلاحقّ الممكن في غير زمانه. وهذا هو الاستثناء، الذي يحيد عن القاعدة التي تنص على أنّ (المتوقّع وغير المتوقّع في دائرة الممكن) يسبقان حدوث الفعل.

وعليه: لا تُصدِر أحكاما مسبقة على الأشياء السابقة على أحكامك. ولكن تبيَّن، ثم احكم.

ولذا فالمتوقّع وغير المتوقّع المتعلق بالزّمان الماضي هو في حاجة للبحث عن دليل إثبات أو برهنة تُثبت وقوعه بالفعل أو عدم ثبوته لأجل أن تطمئن القلوب.

أمّا في الزّمان (الآن) الحاضر، فالتوقع وغير التوقع يسبقان حدوث الفعل أو وقوعه، ويظل الانتظار إلى أن يحدث أو لا يحدث. أمّا الفعل أو الحدث المتوقّع أو غير المتوقّع سيظل في الزّمان المستقبل. ويكون المتوقّعون وغير المتوقّعين في دائرة الممكن هم في حالة انتظار إلى أن يأتي الزّمان الذي فيه الفعل أو البرهان أو الدليل المثبت.

بناء على ما سبق فالقاعدة هي: أنّ دائرة الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع) يسبقان الفعل والسلوك. والاستثناء يقع الفعل أو يحدث السلوك قبل توقعه أو عدم توقعه في دائرة الممكن.

ولهذا:

فالممكن يُلاحقّ الماضي.

ويتزامن مع الحاضر.

ويسبق المستقبل.

وعلى الإنسان الذي كرمه الله في البر والبحر أن يعرف، أنّ علاقة قوية تربّط بين الممكن والقدرة. قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا يَوْمَ نَدْعُوا كلّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا}574، تكريم القيوم لبني آدم هو تكريم في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، فمن المتوقّع أن كلّ بني آدم هو خليفة، ومن غير المتوقّع أن يكون من بني آدم من هو غير خليفة، أفلا يتدبرون القرآن! ليكونوا جميعا خلفاء يستمدون صفاتهم من صفات مستخلفهم في الأرض. ولا غرابة أن يكون بعضهم من المستخلفين وبعضهم الآخر في غير دائرة المستخلفين، فالأمر يتعلق بالتخيير، والقيوم من حيث الخلق خلق الإنسان بالمطلق في أحسن تقويم، ووفقا لقاعدة لا إكراه في الدين فالمسألة اختيارية فمن تدبر وتبين واهتدى فقد أصبح خليفة يورث

---

574 الإسراء، 70 . 72.

في الدارين خيرا ونعيما كثيرا، ومن لم يؤمن بذلك فالقيوم عليه قائما بالحساب والعقاب الشديد.

وعليه:

فالإنسان يتوقّع ما هو ممكن، ولكنه قد لا يستطيع تحقّيقه نتيجة قصور إرادته وقدرته. فما يشاهد أو يُلحظ أو يُحس به أو ما يتم تذوقه أو شمه أو سمعه فهو الواقع في حدود الممكن. وقد يحدث الاختلاف في درجات التمييز بين ما يوضع في مجال الممكن بالنسبة للمدركات والقدرات والأحاسيس حيث هناك البعض يميّز بين الأشياء أكثر أو أقل من البعض الآخر.

فعلى سبيل المثال: الوصول إلى القمر كان في الزّمان الماضي مستحيلا وفقا لقدرات الإنسان وعلومه، وفي زماننا أصبح ممكنا.

وبما أن كلّ شيء ممكن.

إذن فلماذا الاستغراب؟

الاستغراب هو حدوث غير المتوقّع في الزمن الذي ينتظر فيه ظهور المتوقّع. أي ظهور ما لم يكن في الحسبان، وعليه يجب أن يضع الخليفة في حسبانه كلّ ما هو ممكن حتى لا يفاجأ.

الممكن برغم وجوده المتجزئ إلا أن منه ما يوضع في الحسبان (المتوقّع) ومنه ما لم يوضع في الحسبان (غير المتوقّع).

مثال: البحث عن العمل، لو لم يكن ممكنا، ما كان البحث عنه. ولهذا البحث عن العمل ممكنا، والحصول عليه ممكنا.

وعدم الحصول عليه أيضا ممكنا. هذا الأمر هو المتوقّع (ما يوضع في الحسبان). لكن إذا قُدِّمت لك الإهانات التي لم تكن في الحسبان، وأنت تبحث عن فرصة عمل، فهذا الأمر بالنسبة لك غير متوقع.

وعليه: فالحب متوقع، والزواج متوقع، والطلاق كذلك، والانحراف متوقع، والأنجاب متوقع، وأيضا عدم الأنجاب متوقع. الخيانة متوقعة، والطاعة والعصيان متوقعان، الكذب والصدق متوقعان، وأيضا أن يُعطى لك موعد ويُخَل به متوقع، وفي مقابل ما ذكرناه من متوقعات يكون غير المتوقّع وفي ذلك على سبيل المثال: أن تَقدم الأم على ارتكاب فعل الفاحشة مع ابنها فهذا غير متوقع، أو أن يَقدم الأب على فعل الفاحشة مع ابنته، فهذا غير متوقع أيضا، لأنه لم يوضع في حسبان القيم والأخلاق البنائية المستمدة من الدين الخاتم، الذي جاء فيه التحريم القاطع ومع ذلك كلّ شيء في دائرة المتوقّع وغير المتوقّع هو ممكنا، قال تعالى: {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا}575.

ولهذا، معاير المتوقّع هي التي على ضوئها تكون القواعد، وعلى معايير غير المتوقّع تكون الاستثناءات.

575 النساء، 22، 23.

– غير الممكن: هو المستحيل، الذي لا يمكن الإقدام على فعله، أو بلوغه مهما فعلنا عبر الزمن.

مثال:

. من غير الممكن أن نأتي بالشمس من المغربّ.

. من غير الممكن أن ندمج الشمس في القمر.

. من غير الممكن أن يطير الإنسان من غير جناحين.

. من غير الممكن أن نفكر إن فقدنا عقولنا.

. من غير الممكن أن نحي الموتى بقدراتنا هذه. وقد يتساءل البعض: ماذا تعني بقدراتنا هذه؟

أعني: إنَّ إحياء الموتى عبر الزمن كان ممكنا لبعض الرّسُل والأنبياء عندما إذن لهم القيم جلّ جلاله بذلك وذلك لتطمئن قلوبهم وليعلم من حولهم أنه على كلّ شيء قدير، ولكن في زمننا هذا فهو غير ممكن. قال تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلّمُ النّاس فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ والإنجيل وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي}576، وقال تعالى: {فَقُلْنَا اضْرِبّوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}577، وقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ربّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ

576 المائدة، 110.

577 البقرة، 73.

لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كلّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}578.

ومع أنّ إحياء الموتى اليوم لا يدخل دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع (مستحيلا) إلا أنه بإذن المحيي لمن اصطفي من الأنبياء والرّسُل كان ممكنا إعجازا منه للآخرين ومناصرة لإظهار الحقّ كما هو حال الذي تم إحياءه ليقول من الذي قتله.

وبناء على ما سبق فما هو الفرق بين الممكن والمستحيل؟

- الممكن، قابل للإثبات أو الاكتشاف. أي أنه في حاجة لمن يثبته ويبرهن على معطياته

أما المستحيل فمثبت. وهو الذي نعلم به ولا نعرفه.

إذن المستحيل: هو الذي لا يمتلك أمره إلا الحي القيوم جلّ جلاله، الخالق له والقائم على أمره والعالم بما يجب، قال تعالى: {وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ ربِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ}579، وقال تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ}580.

ولأنّ زمن الأنبياء والرّسُل صلوات الله عليهم وسلّم تسليما الذين يطلعهم القيوم جلّ جلاله على الغيب لم يعد بعد الرسالة الخاتمة رسالة محمّد عليه الصّلاة والسّلام الذي بعث للكافة مبشرا ونذيرا وسراجا منيرا ورحمة للعالمين، قال تعالى: {قَالَ ربّ إِنِّي أَعُوذُ

578 البقرة، 260.

579 يونس، 20.

580 النمل 65.

بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا ربّكم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قوّة إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}581.

وعليه، يقع (غير المتوقّع) أو يحدث دون قراءات أو حسابات سابقة، أو نتيجة قصور في القراءات والحسابات السابقة على وقوعه، ممّا يجعله يقع (كما هوّ) إثباتا. ولهذا يتطلب التعرف عليه وعلى علله ومسبباته لا حقّا، ليتم التعرف على نقاط الغفلة أو القصور التي لم تؤخذ في الحسبان المسبق. فعلى سبيل المثال: كان إعصار كاترينا (Katrina)2005 بالولايات المتحدة الأمريكية متوقعا، ما جعل الاحتياطات تؤخذ وفقا لما هو متوقع. ولكن الذي لم يكن في الحسبان درجة شدته ومستوى الدمار الذي خلفه، ولهذا كانت الاحتياطات المأخوذة ليست في مستوى وقوع الإعصار.

قال تعالى: {أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}582، وقال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

581 هود 47 . 53.

582 النمل 63.

وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النّاس وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كلّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمِنَ النّاس مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ القوّة لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ}583، وقال تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كلّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}584، وقال تعالى: {وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرّيَاحَ مُبَشّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تشكّرُونَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فترَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}585.

إن الذي يرى ما للرياح من حركة منظمة من خلال فصول السنة وما يتبعها من الأنواء، وموجات البرد واختلاف سرعتها من

---

583 البقرة، 164،165.

584 الأعراف 56،57.

585 الروم، 46-50.

موسم لأخر وما تقوم به من وظائف مهمة ومفيدة للإنسان ففي بعض الجهات تأتي قوية لتحمل ما بذلك المكان من الغبار لتحمله إلى أناس في بقعة ثانية تكون لهم فيه فائدة، وكذلك اختلاف سرعتها من فصل لفصل ففي الربّيع تكون خفيفة في بعض الأحيان وفي بعض الأحيان الأخرى قد تكون قوية وهي حاملة بحبوب اللقاح التي بها تتنوع وتتسع الرّحمة وفي ذلك فضل من القيوم عظيم، أي أنّها لا تتحرك إلا وهي تحت رعاية القيوم جلّ جلاله، الذي جعل كلّ شيء بحسبان، قال تعالى: {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كلّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ وَإِنَّ ربّك هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}586، وكذلك الرياح في موسم الشتاء تكون محملة بالسحب الثقال فتكون سرعتها هادئة لئلا يتمزق السحاب أو يذهب لغير موضعه فتمطر رحمة وغيث نافعا لإغاثة العباد الذين هم في حاجة إليها، ولهذا فالذي يعلم الأمر قادر على التصرف متى ما شاء كيف شاء سبحانه لا إله إلا هو. قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النّاس إِلَّا كُفُورًا وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كلّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا}587، لذلك جعل للرياح فوائد ومنها ما يأتي رادعا

586 الحجر 19-25.

587 الفرقان، 48-52.

للطغاة والمعاندين الذين يظنون أن حصونهم مانعتهم من الله قال تعالى: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُل مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ ربّنَا لأنزلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قوّة أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قوّة وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النّار فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}588.

وبذلك وجب على الخليفة أن يستفيد من هذه النعمة في إعمار الأرض بالنبات وذلك باستغلال مواسم الأمطار بالحرث والبذر، وكذلك الاستفادة منها في استخراج المياه من جوف الأرض، وفي توليد الطاقة اللازمة لحركة الإنسان وما ينتج عنها من زيادة في الإنتاج ويترتب على ذلك من الرفاهية والراحة التي توفر للخليفة في الأرض قدرا أكبر من الوقت للذكر والدعاء والتضرع، وإلا كيف يكون قيوما بالإضافة إذا لم يكن مراعيا لأنعم الله في البر والبحر، ومن جميع جوانبها، فهذه الرياح بقدر ما تأتيه من النذر الذي تظهر فيه قيوميته وقدرته وسطوته، فإنها مظهر من مظاهر رحمته بما تأتي به من الأمطار النافعة التي تجعل الأرض الجدباء خضراء وبما تأتي به من الراحة للنفوس.

588 فصلت، 13-20.

7 . قدرته على الإفناء: قال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}589. بقيوميته تعالى فإنه قادر على الفناء وإعادة البناء من جديد لما يشاء وكيف يشاء ومتى يشاء دونما شريك أو نديد ويظهر ذلك في:

أ . حياة النبات الذي تراه مخضرا ثم يصير أصفر اللون يابسا، ثم يبقى في مهب الريح يرفعه الله إلى أي مكان شاء، قال تعالى: {وَاضْربّ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا}590.

ب . إفناؤه للمال والإنسان: قال تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ ربّك ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا}591.

ج . إفناؤه للجبال يوم القيامة: قال تعالى: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أحدا وَعُرِضُوا عَلَى ربّك صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ ممّا فِيهِ وَيَقُولُونَ

589 المائدة، 17.

590 الكهف 45.

591 الكهف 46.

يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ ربّك أحدا}592.

ولذلك على الخليفة أن يكون قادرا على اتخاذ القرار فيما يرى ما هو صواب ليحي ما يحي على بينة ويفني ما يفني على بينة، ليكون خليفة لله في أرضه ويكون قادرا بذلك على التجديد واتخاذ القرار الصائب بإذنه تعالى، وعليه في ذلك أن يستخير ربّه في كلّ الأمور، فلا خاب من استخار، ولا من استشار.

8 . ملكه السماوات والأرض: عندما نقول ملكه للسماوات والأرض نعني ملكه لكلّ شيء، ومالك كلّ شيء وحده الذي يتصرف في كلّ شيء، ووحده القادر على ما نعلم في دائرة الممكن وما لا نعلم في دائرة علم الغيب، ولهذا فهو القيوم على كلّ شيء والحمد لله ربّ العالمين على ملكه الذي لا يبلى ولا يزول إلا بأمره. قال تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}593. وقال تعالى: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ}594، وقال تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}595، وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كلّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ

---

592 الكهف 47- 49.

593 البقرة، 107.

594 آل عمران، 189-193.

595 المائدة، 118-120.

عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}596.

وعليه أتساءل:

. ألا يكون بحقّ مالك السماوات السبع والأرضي السبع بغني لا مجال للمقارنة معه؟

. ألا يكون مالك هذا الملك العظيم بقادر على الهيمنة عليه؟

. ألا يكون محرك هذا الملك بقيوم على كلّ حركة وسكون فيه؟

. ألا يكون مزامن الحركة والسكون بعليم بكلّ أمر متعلق بكلّ زمان وحركة؟

. إلا يكون القادر العظيم بقادر على أن يخلق ما هو أعظم؟

. ألا يكون من خلق وهو يخلق في كلّ حين بقادر على إنهاء ما خلق؟

. ألا يكون من أوجد هذا الخلق بقادر على استبداله بخلق جديد؟

. ألا يكون من خلق الحياة والممّات بقادر على جعل الحياة سرمدية بعد أن يقضي بأمره (كن) على أفعال الموت؟

. ألا يكون من بيده أمر كلّ شيء مجازيا بالحسنات من يكون له طائعا، ومجازيا أصحاب السيئات بالعذاب الشديد؟

---

596 النور، 42،41.

ـ ألا يكون من المفيد أن نضع مقارنة بين الذين يركعون ويسجدون لخالق السماوات والأرضين وجعل لهم فيها أرزاقا، وبين الذين يركعون ويسجدون لمن لم يخلق جناح بعوضة؟

ـ ألا يكون من الأليق بنا أن نركع ونسجد للوأحد الأحد الذي لم يكن له كفؤا أحد وهو يخلق ولا يُخلق ولا نركع لمن يمرض وينافق ويفسق ويكذب ويسرق ويزنى ويطفف الميزان وإذا حكم بين النّاس ظلم ومال؟

9 ـ قيامه على خلق السحاب والسيطرة عليه: السحاب ماء معلق بغير عمد في السماء المرفوعة بغير عمد نراها، وبالرغم من أنه الماء إلا أنه يوقد نارا فتكون برقا يضيء الأرض والسماء في دائرة النسبية المكانية والزمنية، ومع أنّ ماء المطر في أساسه مرفوع من الأرض إلا أنه سيسقط عليها مطرا نافعا بعد أن كان خليطا بملح أجاج.

ماء البحار والمحيطات هو الماء الغالب على سطح الأرض ولذا فالسحاب الكثيف في معظمه هو مستمد من هذه المجمعات للمياه الملحة، وسبحان الله بدون أجهزة تحلية ينقى الماء العذب من الماء الملح وينقل من هذه الخزانات الراسية ليسقط مطرا على الأرض اليابسة فيحييها فتصبح مخضرة لونها يسر الناضرين ويشبع حاجاتهم رزقا من القيوم الذي يتولى الخلائق بالرعاية والعناية.

ولأنّ مياه البحار والمحيطات في أماكن من الأرض المنخفضة وهي ملحة فلا تنفع الأرض الجرداء بل إن انتقلت إليها جعلتها أكثر بورا وفقرا ولهذا فالقيوم القادر بالمطلق بأمره (كن) جعلها تتطاير وتتبخر حتى تصعد بالغصب عن قانون الجاذبية إلى ما هو

ممكن ولتسقط مطرا رحمة منه إنه الرّحمن الرّحيم. قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ}597، وقال تعالى: {وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}598. بقيوميته تعالى قادر على خلق السحاب والسيطرة عليه وإرساله إلى حيث يشاء دون أي استعانة أو نجدة بأحد، أما القيوم بالإضافة إلى خالقه لابدّ له وأن يستغيث ربّه في طلب السحاب النافع له وللمستخلفين على الأرض ليقوموا به شؤون حياتهم، وليستعينوا بذلك للقيام على الشجر والزرع والذي به يصلح شأن البهائم والتي تمدهم بكلّ ما يحتاجونه من الجلود والأصواف والأوبار ومن الحليب واللحم وغيرها من المنافع، تلك التي خلقها جلّ جلاله لتعين الإنسان على صروف وظروف الحياة المختلفة، ومن واجب الخليفة في ذلك أن يتضرع لخالقه بالدعاء في طلب الاستسقاء كلّما تأخرت عنهم الأمطار، وأن يدعو المستخلفين بالاستغفار لذنوبهم ليستعجلوا الماء النافع لهم ولغيرهم من البهائم والمزروعات. ولأنهم المستخلفون فهم القيومون بالإضافة وعليهم بالعمل والبحث العلمي الذي يمكنهم من بلوغ الأسرار وكشفها في نقل المياه واستعمار الأرض التي أوصاهم القيوم المطلق بإصلاحها وإعمارها وفلاحها.

597 النور 43.

598 الرعد 9-13.

10 . قيامه على جناته: ولأنه القيوم فهو القائم بكلّ شيء وعلى كلّ شيء، وله في ذلك ملوك وسلاطين ممّا خلق من الملائكة المكرمين وممّا لا نعلم مسخرين للخدمة والمراقبة والمتابعة وهم من حول العرش يحيطون بحمله ويسبحون بحمده.

وكما سبق أن بينا كيف بقيوميته يرفع الماء إلى السماء وعرفنا أن الماء الذي يطفئ النّار يوقد نارا فتكون برقا بأذنه، هذه آيات عظيمة فمن نظر إليها ونضر تفكر وتذكر وتتدبر حتى أيقن أنه الحقّ من الحي القيوم جلّ جلاله، ومن لا يتمكن من ذلك لا يمكنه أن يفكر في الكيفية التي بها تتم هذه العملية العجيبة ولماذا تتم هكذا؟ ومن أجل من؟

والخليفة وحده أدرك هذا الأمر وأدرك الأمر الأعظم وهو ما يخلق في الجنّة من نعم لا مثيل لها في الخلق الأرضي، قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا}599، وقال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}600، وقال تعالى: {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}601، وقال تعالى: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ

---

599 الفرقان، 10،11.

600 البقرة، 25.

601 آل عمران، 15.

عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ}602، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا}603.

11. قيامه على تدبير الأمر: الأمر كلّمة ذات دلالة مطلقة غير محددة في دائرة الممكن، فهو يحتوي ما يتعلق بالشيء المتعدد باستمداد الأشياء منه، ولهذا فالأشياء لا تحصى وفي مجملها هناك أشياء تتعلق بالوجود وهناك أشياء تتعلق بالعدم، وهناك أشياء تتعلق بالبعث وهناك أشياء تتعلق بالجنّة اللهم لا تحرمنا منها ومن الخيرات الحسان التي فيها وهي لا تعد ولا تحصى، وهناك أشياء تتعلق بالنّار اللهم أحفظنا منها ومن شرها. إنه مدبر الأمر بأسبابه ومعطياته وبأغراضه وغاياته وما يترتب عليه سبحانه ما أعظم شأنه إنه بكلّ شيء عليم وعلى كلّ أمر قيوم. قال تعالى: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرّحيم الَّذِي أَحْسَنَ كلّ شَيْءٍ

---

602 آل عمران، 195-198.

603 النساء، 56-57.

خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشكّرُونَ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكلّ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى ربّكم تُرْجَعُونَ}604.

12 . مكافأته النفوس بأعمالها: ولأنه قيوم فهو العليم بكلّ حال وبكلّ أمر ولا تخفي عليه خافية في الأرض ولا في السماوات العلا وما بينهما وفي كلّ مكان نعلمه أو لا نعلمه أنه القيوم العليم جلّ جلاله؛ وإنه يعلم ما تكنه وتظهره النفوس وهو بكلّ أمر عليم حكيم. قال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ ربِّهِمْ ربّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كلّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حقّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلأن جَهَنَّمَ مِنَ الجنّة وَالنّاس أَجْمَعِينَ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ تَتَجَافَي جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ أَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النّار كلّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النّار الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ}605.

604 السجدة 5- 11.

605 السجدة 12-20.

13 . قيامه بالرعاية لخلفائه: المستخلفون هم دائما في حفظ القيوم وفي رعايته من الشرور ومن كلّ بلية، وذلك باختيارهم للحقّ وإتباعه والاهتداء به فيما يقومون من عمل ومن قول ومن فعل وسلوك، وهكذا يتكفل أمر المحسنين والصالحين من عباده الوارثين ويتقبلهم بقول حسنا. قال تعالى: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاس ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّك كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّك وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}606.

وقال تعالى: {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ

606 آل عمران، 37- 45.

الْغَاوِينَ}607، وقال تعالى: {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ ربّك وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ ربّك حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}608. فهذه الرعاية التي منحها القيوم لمستخلفيه لابدّ أن يقابلها الشكّر منهم بما منحهم من الرعاية والعناية الإلهية التي لا تدوم إلا بالشكّر والثناء ويكون ذلك بالعبادة واتباع ما أمر واجتناب ما نهى عنه؛ لأن النعم تدوم بالشكّر لا بالجحود كما قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَّرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا}609، وقال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ ربّكم لَئِنْ شَكَّرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ}610.

14 . قيامه على المحو والتثبيت: قال تعالى: {يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ}611.

15 . قيامه على أمر الروح: قال تعالى: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا قُلْ كلّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكلّتِهِ فَربّكمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ ربّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا وَلَئِنْ شِئْنَا

607 الحجر 39-42.

608 الحجر 87-99.

609 النساء 146،147.

610 إبراهيم، 7،8.

611 الرعد 39،40.

لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا إِلَّا رَحْمَةً مِنْ ربّك إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا}612.

16 . قيامه على إرسال الرّسُل: القيوم هو الذي يصطفي الرّسُل ويقوم عليهم حتى يؤدوا الأمانات لأهلها شعوبا وقبائل وأممّا وللكافة كما هو حال الرسالة المحمّدية. قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكلّ صَبَّارٍ شكّورٍ}613، وقال تعالى: {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ}614، وقال تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالأنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آَيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ}615، قال تعالى: {وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالحقّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ}616. ولأن الرّسُل مستخلفين مباشرة باصطفاء من الله تعالى فإن المؤمنين برسالاتهم هم خلفاء بالإتباع (إتباع الرسالة والاهتداء بهديها).

---

612 الإسراء، 83-87.

613 إبراهيم، 4،5.

614 آل عمران، 184-186.

615 الأنعام، 130،131.

616 الأعراف 52 -53.

17 . قيامه على نصرة ومكافأة خلفائه: قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ ربّكم عَظِيمٌ وَإِذْ تَأَذَّنَ ربّكم لَئِنْ شكرّتمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذين مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شكّ مما تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ}617، وقال تعالى: {كَانَ النّاس أُمَّةً وَأحدةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالحقّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاس فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحقّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجنّة وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرّسول وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}618، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ وَمِنَ النّاس مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النّاس كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ ربّك لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ}619.

617 الرعد 6-9.

618 البقرة، 213،214.

619 العنكبوت 9-14.

18 . قيامه على هداية خلفائه: قال تعالى: {وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكّلون وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كلّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ}620، وقال تعالى: {الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصّلاة وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}621، وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاس وَيَكُونَ الرّسول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرّسول مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنّاس لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحقّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}622.

19 . قيامه على التبديل والتجديد: مالك الأمر لا ينتظر الاستئذان من أحد فهو بيده الأمر يقدم ويؤخر ما يشاء متى ما شاء إن شاء أن يفعل ما يشاء. قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالحقّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا

620 إبراهيم، 12-15.

621 البقرة، 1-5.

622 البقرة، 143،144.

إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ}623.

20 . قيامه على الخلق: خلقه بشر منهم المهتدين ومنهم ما دون ذلك ولكلّ منهم حسابه ثوابا أو عقابا، وهم في خلقهم على قدرات متعددة غير متساوين، فمنهم العلماء العظام ومنهم العلماء الذين يفتقدون لعظمته إن لم يكونوا مؤمنين به وبما خلق وبما أرسل من رسول، فهو يعلم بحال كلّ منهم ويعلم بحال كلّ ما خلق من إنس وجن وملائكة وما خلق من طير وحيوان وسمك ونبات وممّا نعلم ممّا خلق وممّا لا نعلم من كبيرة وصغيرة. قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ}624، وقال تعالى: {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}625، وقال تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كلّ لَهُ قَانِتُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

---

623 إبراهيم، 19-21.

624 إبراهيم، 32،33.

625 البقرة، 106- 108.

يُوقِنُونَ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحقّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ}626، وقال تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}627.

21 . قيامه على العذاب: الحمد لله الذي خلق العذاب عقابا للكافرين والمشركين والمفسدين في الأرض وسافكو الدّماء فيها بغير حقّ، فلو لم يخلق العذاب ما امن من آمن ولا اخشي الكثير ممّا هم الأن في خشية من ربّهم في أن يعملوا ما لا يرضيه. وبرغم كيد الكائدين فإن الله هو خير الكائدين وخير الرازقين ومهما ما مكر الماكرين فإن الله هو خير الماكرين. قال تعالى: {وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الواحد الْقَهَّارِ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النّار لِيَجْزِيَ اللَّهُ كلّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَأحد وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}628، وقال تعالى: {وَقُلِ الحقّ مِنْ ربّكمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ

---

626 البقرة، 116-119.

627 آل عمران، 179،180.

628 إبراهيم، 46-52.

سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا}629، وقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ}630، وقال تعالى: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحقّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ لِكلّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}631.

629 الكهف 29-31.

630 البقرة، 84-86.

631 الأنعام، 65-67.

22 . قيامه على حفظ القرآن: قال تعالى: {مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالحقّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ}632.

23 . قيامه على حفظ السماء: قال تعالى: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كلّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ}633، وقال تعالى: {إِنَّ إِلَهَكُمْ لواحد ربّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وربّ الْمَشَارِقِ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كلّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كلّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ}634، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ ربّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كلّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}635.

---

632 الحجر 8 -10.

633 الحجر 17،18.

634 الصافات 4- 10.

635 فصلت، 8-12.

24 . قيامه على المعاش والرزق: قال تعالى: {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ}636.

25 . قيامه على خزائن الدنيا: قال تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ}637، وقال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا}638، وقال تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشكّرُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ}639.

26 . قيامه على أمر الحياة والموت: قال تعالى: {وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ وَإِنَّ ربّك هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}640، وقال تعالى: {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرّحمن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكلّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ}641، وقال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ

636 الحجر 19،20.

637 الحجر 21.

638 النبأ 6-16.

639 الأعراف، 10،11.

640 الحجر 25.

641 يس، 11،12.

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ ربّك قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالحقّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ}642.

27 . قيامه على خلق الإنسان: خلقه للإنسان خلق للطينة التي منها الخليفة، والخليفة على أربّعة:

الأولى: استخلافه لآدم عليه الصّلاة والسّلام من التراب مباشرة أي من أديم الأرض الكريمة خلقه ثم قال له كن فكان على الحياة والممّات والحركة والسكون وسيكون يوم البعث في جنة النعيم في حياة دائمة لا تنتهي أبدا.

الثانية: استخلاف الأنبياء والرّسُل باصطفاء مباشر وبأمانات منه ورسالات من قصص وحكم وكتب وزبر وصحف وألواح وتوراة وإنجيل وقرآن كريم.

الثالثة: استخلاف بالإتباع أي إتباع ما جاء به الأنبياء والرّسُل صلوات الله وسلامه عليهم.

الرابعة: استخلاف بالتوحيد به وأحد أحد ودينه الخاتم وأحد لا يتعدد، ورسوله الخاتم بالرسالة الخاتمة هو الحقّ فمن تبعه كان خليفة ومن لم يتبعه فقد ضل.

---

642 ق، 38-45.

قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ}643، وقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّك لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كلّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ}644، وقال تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالحقّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ خَلَقَ الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ}645، وقال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرّحيم الَّذِي أَحْسَنَ كلّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشكّرُونَ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ ربّهِمْ كَافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكلّ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى ربّكمْ تُرْجَعُونَ}646.

28 . قيامه على خلق الجن: قال تعالى: {وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ}647، وقال تعالى: {خَلَقَ الإنسان مِنْ

---

643 الحجر 26.

644 الحجر 28-30.

645 النحل 1-4.

646 السجدة 4-11.

647 الحجر 27.

صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ ربّكمَا تُكَذِّبَانِ}648.

29 . قيامه على تسخير البحر والبر للإنسان: قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكلّوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشكّرُونَ}649، وقال تعالى: {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كلّ كَربٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ}650. وقال تعالى: {وَالأنعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكلّونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقّ الأنفُسِ إِنَّ ربّكمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}651، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أجل مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أحدكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الحقّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ}652.

30 . قيامه على مفاتيح الغيب: قال تعالى: {قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

---

648 الرّحمن، 14-16.

649 النحل 14.

650 الأنعام، 63،64.

651 النحل 5-9.

652 الأنعام، 60 . 62.

بِالظَّالِمِينَ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}653.

31 . قيامه على الشجر: قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كلّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ}654.

32 . قيامه برعاية الأرض: قال تعالى: {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}655.

33 . قيامه على السر والعلن: قال تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ}656، وقال تعالى: {لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ}657، وقال تعالى: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفي اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ

---

653 الأنعام، 59،58.

654 النحل 10- 13.

655 النحل 15-18.

656 النحل 19.

657 النحل 23.

الْحُسْنَى}658، وقال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لأنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرّسول يأْكلّ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يأْكلّ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا انْظُرْ كَيْفَ ضَربّوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا}659.

34 . قيامه بعذاب الكافر: قال تعالى: {إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وأحد فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ ربّكمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ}660.

---

658 طه، 6-8.

659 الفرقان، 3-11.

660 النحل 22- 26.

35 . قيامه على سؤال خلقه: قال تعالى: {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ}661.

36 . قيامه على ما بجوف الأنعام بجعله لبنا: قال تعالى: {وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأنعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}662.

37 . قيامه على رعاية النحل: قال تعالى: {وَأَوْحَى ربّك إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كلّي مِنْ كلّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ ربّك ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}663.

38 . قيامه على أعمار خلقه: قال تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}664.

39 . قيامه على درجات الرزق: قال تعالى: {وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ}665.

---

661 النحل 56،55.

662 النحل 65-57.

663 النحل 59،58.

664النحل 70.

40 . قيامه على خلق الأزواج: قال تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ}666.

41 . قيامه على الغيب: قال تعالى: {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}667.

42 . قيامه على نعمتي السمع والبصر: قال تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}668.

43 . قيامه على الطير في طيرانه وسكناته: قال تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}669.

44 . قيامه على أثاث الإنسان: قال تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأنعامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ}670.

45 . قيامه على راحة الإنسان: قال تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ

---

665 النحل 71.

666 النحل 72.

667 النحل 77.

668 النحل 78.

669 النحل 79.

670 النحل 80.

تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}671.

46 . قيامه على العذاب يوم القيامة: قال تعالى: {يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كلّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا ربّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}672.

47 . قيامه على مكارم الأخلاق: قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}673. ومن قيامه على مكارم الأخلاق: قال تعالى: {وَلَا تَقربّوا الزّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا وَلَا تَقْربّوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كلّتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كلّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ

671 النحل 82،81.
672 النحل 83-87.
673 النحل 91،90.

لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كلّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ ربّك مَكْرُوهًا}674.

48 . قيامه على الرزق: قال تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}675، وقال تعالى: {إِنَّ ربّك يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا}676.

49 . قيامه على ردع الشيطان عن المؤمنين: قال تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكّلونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ}677، ولأنّه بقيامه يفرض سيطرته على الشيطان: قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأجلبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي

674 الإسراء، 32-38.

675 النحل 97،96.

676 الإسراء، 31،30.

677 النحل 98-100.

لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفي بِربّك وَكِيلًا ربّكمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا}678.

50 . قيامه على إسراء الرّسول: قال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا}679.

51 . قيامه على الحساب بدقة: قال تعالى: {وَكلّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفي بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فحقّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفي بِربّك بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}680.

52 . قيامه على تفضيل الخلق: قال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجلةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جعَلْنَا لَهُ جهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشكّورًا كلّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ ربّك وَمَا كَانَ عَطَاءُ ربّك مَحْظُورًا انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ

---

678 الإسراء، 61-66.

679 الإسراء، 1،2.

680 الإسراء، 13-17.

وَلَلْآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا}681.

53 . قيامه على كلّ تسبيح: قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ}682، وقال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآَنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا}683.

54 . قيامه على كلّ شيء: فما ذكرناه هو فقط للتذكير إما إحصاء ما هو قائم عليه فهو لا يحصى سبحانه لقد أحصى كلّ شيء وعده عدا، قال تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}684، وقال تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرّحمن وَفْدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرّحمن عَهْدًا وَقَالُوا اتَّخَذَ الرّحمن وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرّحمن عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلّهُمْ آَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا}685. ومن قيامه على الشيء المطلق أذكر اثنين فقط هما:

---

681 الإسراء، 18-22.

682 النور 41.

683 الإسراء، 44،45.

684 المجادلة 6.

685 مريم 86 . 95.

قيامه على الزّمان والحركة:

الزّمان هو الملاحظ الذي لا يمكن مشاهدته، والذي لا يقاس بغيره أو من خارجه، فالزّمان لا يقاس إلاّ بالزمن، والدهر، كزمن، لا يقاس إلاّ بالأعوام والسنين، والأعوام لا تقاس إلاّ بالشهور كمواقيت طبيعية، والشهور لا تقاس إلاّ بالأيام، وهكذا عرفنا الساعات كزمن لقياس اليوم كزمن، إذا الزّمان هو المتدرج من الكلّ إلى الجزء الذي هو الآخر يتجزأ، أمّا في حالة جموعه فهو دائما المتدرج من المتجزئ إلى الكلّ.

وقد يتساءل البعض: ما علاقة الزّمان بالحركة؟ وأيهما الأسبق على الآخر؟ تكون الإجابة: لا حركة بلا زمان، ولا زمان بلا حركة. ولهذا لا يمكن أن يكون أحدهما سابقا على الآخر. فلو كان الزّمان سابقا على الحركة، لكانت الحركة عبارة عن حدث من أحداث الزّمان، وهكذا لو كانت الحركة سابقة على الزّمان لكان الزّمان عبارة عن حدث حركي أو مولود الحركة الأول، وكلّ منهما مترتب وجوده مع الآخر، وليس مترتبا عليه. ولهذا لو توقفت الحركة يتوقف الزّمان، وإذا توقف الزّمان توقفت الحركة، فلا حركة إلاّ بزمان، ولا زمان إلا بالحركة. إذا الزّمان والحركة هما الشيآن المكملان الواحد للآخر في الوجود المترتب عليهما.

وبما أن الزّمان والحركة شيئان، إذا هما الموجودان في الآن الواحد، ولهذا لا يمكن أن يكون الآن بأحدهما، ولا يمكن أن يكون الماضي، ولا يمكن أن يكون المستقبل. فالزّمان والحركة هما الشيآن اللذان كانا لحظة الانفجار العظيم، وهما السابقان في الخلق الذي يتكوّن من الزوجين، مصداقا لقول الله تعالى: {ومن كلّ شيء

خلقنا زوجين لعلكم تذكرون}686، وقال تعالى: {وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأنثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى}687، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كلّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَأحد وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكلّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}688، فالزّمان والحركة شيئان اثنان كغيرهما من الأشياء الأخرى التي تم خلقها من عند الله عزّ وجلّ. وبقوله تعالى: {وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلّ في فلك يسبحون}689

والليل كزمن أو ميقات يتوحد مع حركة الأرض والذي يسبح (يتحرك) وكأنه في حالة انطفاء، وهو في حركة منتظمة ومتناهية مكانا وزمانا.

ونتيجة انتظام حركة المتحرك مع زمانه فلا يمكن له (المتحرك) أن يدرك أحده الآخر (الليل والنهار والشمس والقمر) ومع أنّ الزّمان والحركة يلاحظان ولا يشاهدان، إلاّ أن المواقيت تشاهد، والليل والنهار والفجر والصبح والمغربّ مواقيت كلّها تشاهد. ولهذا

686 الذاريات، 49.

687 النجم 45 . 47.

688 الرعد 3، 4.

689 يس، 37-40.

لا متحرك إلاّ في مواقيت أو بمواقيت. إذا لا متحرك إلاّ والزّمان معه، ولا وجود لمواقيت إلاّ والحركة معها {لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلّ في فلك يسبحون}690.

وعليه أتساءل:

هل الزّمان والحركة كيفان لا يشاهدان، أم أنّهما كمّان يشاهدان، أم أنّهما شيء آخر؟

إذا كان الزّمان جسما فبالضرورة يكون كمّا، وإذا لم يكن جسما فماذا يكون إذا؟ ولذلك الكم يشاهد ويلاحظ إلى جانب تداخل الحواس الأخرى في إثباته، أما الكيف المجرد فيلاحظ ولا يشاهد، وهكذا حال الحركة فهي تلاحظ ولا تشاهد على الإطلاق، ولذلك فهي كيف، حالها حال الزّمان. وإلاّ هل هناك من يشاهد الحركة؟ في اعتقادنا لا يوجد من يشاهدها، ولكن قد يدّعى البعض بأنه يشاهد الحركة، وفي هذه الحالة أتساءل: هل هناك من يستطيع رسم صورة للحركة أو صورة للزمان أو حتى تصويرهما فوتوغرافيا؟ إذا لم يكن هناك من يستطيع إثبات ذلك فلا حجّة لأحد علينا ولنا في ذلك حجّة.

الحركة والزّمان يلاحظان ولا يشاهدان، فالذي يشاهد هو المتحرك وليست الحركة، والمتحرك دائما جسم يشاهد ويلاحظ، فالقمر كمتحرك يشاهد ويلاحظ ويلمس ولذلك يمكن تصويره أو رسمه، أما حركته فلا تشاهد ولذلك لا ترسم ولا تصور، وهكذا حركة البشر والكائنات والسيارات والطائرات وغيرها من الأجسام المتحركة هي الأخرى لا ترسم ولا تصور. وبناء على ذلك، لا يعد

690 يس، 40.

الزّمان ولا تعد الحركة، وإلاّ هل هناك من يستطيع عد شيء لا يراه (غير قابل للمشاهدة)؟ فالليل والنهار والفجر والمغربّ واليوم والشهر والعام هذه مواقيت يمكن عدها، والمواقيت ليست الزّمان، يقول الله تعالى: {وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربّكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكلّ شيء فصلناه تفصيلا}691، فالليل والنهار آيتان (علامتان) في الزّمان تمكِّنان البشر من معرفة عدد السنين ومعرفة الحساب الذي ييسر عملية تعاقب الليل والنهار وحركة الكواكب والنجم فلكيا، ولذلك ينبغي أن نميّز بين المواقيت التي هي علامات دالّة على زمان وحركة، وبين الزّمان المتصل الذي لا يفصله ولوج الليل في النهار وولوج النهار في الليل. فالمواقيت تشاهد (الليل والنهار والفجر والمغربّ)، وهي نتاج الحركة الطبيعية للأرض حول نفسها وحول الشمس مع توازن حركة الكواكب الأخرى التي تسبح في فلكها، ولذلك يعرف اليوم بالليل والنهار، ويعرف الشهر بحركة القمر من هلال إلى هلال، وتعرف السنة من حركة الأرض حول الشمس. ومع أنّ اليوم، والشهر، والسنة، والدهر مواقيت إلاّ أن كلاًّ منها زمن يختلف عن الآخر، ومثلما تختلف المواقيت في زمانها كذلك تختلف الكواكب والأجسام في حركتها وأحجامها. وعليه لو كان الليل والنهار هما الزّمان لكانا هما مقياسي الحركة، ولو لم يكن هناك حركة وزمان ما كان هناك شيء متحرك، ولهذا كلّ متحرك هو في حالة زمان، وكلّ حركة وزمان هما في حالة اتصال لا انفصام منذ البداية إلى النهاية.

691 الإسراء، 12.

الزّمان والحركة تراكميّان، أي أنهما في حالة تزايد إلى النهاية، فالزّمان في حالة إضافة، والحركة كذلك، ولم يكونا في حالة تناقص. ولهذا قلنا الزّمان في حالة زائدة لا في حالة ناقص، ويرمز إلى ذلك بالآتي: (ن + لا_).

والحركة هي الأخرى في حالة زائد لا ناقص، ويرمز إلى ذلك بالآتي:

(ح + لا_).

ولهذا الزّمان لا ناقص (ن لا-). والحركة لا ناقص (ح لا).

والذي ينقص ويزيد هو المتحرك سواء في وزنه أو طوله أو عمره أو عرضه أو مساحته أو حجمه أو سرعته، أو عدده وكمه، ويرمز إلى ذلك بالآتي: (م + أو-).

متحرك - متحرك = كم من المتحرك.

فإذا كانت سرعة كتلة المتحرك الأول 80 كيلو جرام، وسرعة كتلة المتحرك الثاني 50 كيلو جرام فيكون الفرق بينهما = 30 كيلو جرام. متحرك + متحرك = كم من المتحرك.

فإذا كان عدد المتحرك الأول 122 متحركا، وعدد المتحرك الثاني 323 متحركا، فيكون مجموع المتحركات = 445 متحركا.

والوقت هو الآخر يكون في حالة زيادة ونقصان سواء في طوله أو قصره أو عدده وكمه، ويرمز إلى ذلك بالآتي:

(و + أو-)

وقت + وقت = كم من الوقت.

30 ليلة + 7 ليالٍ = 37 ليلة.

وقت – وقت = كم من الوقت.

7 ليالٍ – 7 ليالٍ = 0 من الوقت، والوقت 0 هو وقت البداية أو وقت النهاية أو الاستمرارية.

سرعة الحركة والزّمان:

سرعة الحركة = سرعة الزّمان (س ح = س ن).

فعندما تكون س ح = 0، تكون من المسلمات س ن = 0. وعليه لا يمكن أن تكون الحركة أسرع من الزّمان ولا الزّمان أسرع من الحركة، ولهذا لا نسبية في الحركة المطلقة بل النسبية في الحركة الجزئية والمتجزئة.

وكذلك سرعة المتحرك = سرعة الوقت.

فلو كان المتحرك هو الأرض، والوقت هو الليل، فتكون سرعة الأرض = سرعة الليل، وإذا كانت سرعة الليل = 12 ساعة عندما يتعادل مع طول النهار، تكون من المسلمات سرعة الأرض وهي تتحرك حول نفسها = سرعة الليل أي أنها = 12 ساعة. والليل والنهار هما الزوجان المكوّنان لليوم، وأمس، وغد، وهذه جميعها مواليد التوأم (الحركة والزّمان)، أما إذا تكلّمنا بشكلّ خاص عن القطب الشمالي الذي يختلف فيه توازن الليل مع النهار، كما هو في المناطق غير القطبية، فهذا يعود إلى اختلاف مجال الحركة وسرعة المتحرك ممّا يجعل عدم توازن بين زمن الليل والنهار على الساكنين في المنطقة القطبية. وعليه فالأمس واليوم والغد لم تكن هي الزّمان، بل هي مواقيت تقع في الزّمان، فبما أن اليوم هو المتكوّن من الليل

والنهار، فإن الليل زمانا يستغرقه من الزّمان العام وهو الممتد من الأن الغروب إلى الأن الشروق، وإلاّ هل هناك من يعتقد بأن الليل والنهار ليس لهما زمان؟ وبما أن لهما زمانا، إذا فهما ليسا بزمان. وبما أنهما هكذا فما هما؟ هما ولدا التوأم (الحركة والزّمان)، ولهذا تكون الأيام هي الأخرى مواليد التوأم وليست من مكوناته أو مسبباته وعلل وجوده.

وعندما تكون سرعة الحركة = 0 فمن المسلمات تكون سرعة المتحرك هي الأخرى= 0، وقوته المتحركة = 0، وبما أن سرعة المتحرك = 0، إذا سرعة الزّمان بالنسبة إلى حركة المتحرك = 0. ولذلك يكون كلّ شيء بالنسبة إلى الحركة العامة هو في حالة توقف، وعندما يحدث التوقف العام فلا تكون الحياة. أما بالنسبة إلى المتحرك الجزئي إذا توقف عن الحركة المتولدة أو المدفوعة بقوّة فلا يمكن أن تكون الحركة العامة = 0، وذلك لأنها سابقة ومستمرة على المتحرك الجزئي.

فإذا كانت الحركة العامة عند بدء المتحرك الجزئي في الانطلاق من مكانه = 1000000 يوم من الزّمان، وسرعة المتحرك الجزئي = سرعة دوران الأرض حول نفسها، وإذا توقف المتحرك الجزئي بعد قضائه 48 ساعة من الزّمان، فهذا يعني أن التراكم الزمني عندما يتوقف المتحرك الجزئي = 1000002 يوم من الزّمان. ولذلك عندما كانت حركة المتحرك الجزئي = 0 كانت الحركة العامة = 1000000 يوم من الزّمان. وبعد دوران المتحرك الجزئي 48 ساعة بعدها أصبحت حركته = 0، وزمان حركته هو الآخر = 0، ولذلك نتيجة لتوقفه، ويكون زمانه في هذه الحالة هو زمان وجوده (فترة بدايته ونهايته) وهي الفترة التي تحتوي ما قبل صفر بداية الحركة

وصفر نهايتها. فإذا كان زمان وجود المتحرك السابق سابقا على زامن حركته المدفوعة بمائة (100) يوم، وهي فترة الزمن الصفري (زمن بداية الحركة)، واستمر مائة (100) يوم بعد زمن نهاية الحركة (بعد صفر النهاية)، ثم انتهى من الوجود (أعدم)، فتكون فترة وجوده = 202 يوم، وهي مجموع 100 يوم قبل صفر البداية + 2 يومين (48 ساعة) فترة الحركة المحصورة بين صفر البداية وصفر النهاية + 100 يوم فترة ما بعد صفر النهاية الحركية.

وعليه لم يكن هناك زمان طويل وزمان قصير، ولا زمان سريع وآخر بطيء، بل السريع والبطيء هو المتحرك، فإذا كان المتحرك سريعا كانت الحركة في حالة تساوٍ مع الزّمان بالنسبة إلى المتحرك، وكلّما كان المتحرك بطيئا كذلك يكون حال الحركة والزّمان في حالة تساوٍ بالنسبة إلى المتحرك. ولا يمكن أن يختل توازن الزّمان مع الحركة، ولهذا الزّمان والحركة لا يختلفان، بل الذي يختلف بين الحين والآخر هو السرعة (سرعة المتحرك الجزئي)، ولهذا الزّمان لا يختصر أو يُطوى وكذلك الحركة ولا تطوى ولا تختصر، فالذي يطوى ويختصر هو المسافة بالنسبة إلى المتحرك الجزئي سواء أكانت سيارة أو طائرة أو مقذوفا صاروخيا أو غيرها من المتحركات الجزئية والمتجزئة، وكلّ منها يقارن بالآخر من حيث السرعة ولا يقارن به من حيث النوع، فالنوع يقارن بالنوع نفسه، الغزال مع الغزال والزرافة مع الزرافة والذئب مع الذئب ولا يقارن الذئب مع الكلّب ولا الغزال مع الزرافة. ولهذا ينبغي مراعاة عناصر المقارنة وهي الخصائص والصفات والنوع والجنس، فإذا كان الهدف من المقارنة هو معرفة عناصر الالتقاء والتقاربّ فهذا يختلف عن الهدف من معرفة عناصر الافتراق واختلاف. فالأولى لكثرة معطيات التفرق. فالقمر كمتحرك

فلكي يقارن بكوكب المريخ كمتحرك فلكي، فكلّ منهما يشاهد ويلاحظ ويحس ويلمس، وبالإمكان اخذ عينات منهما للمعامل والمختبرات. والليل يقارن بالنهار لأنهما من جنس وأحد هو اليوم. إنهما يشاهدان ويلاحظان مع أنّهما يختلفان عن القمر والمريخ من حيث أنهما لا يلمسان، ولذلك لا تؤخذ منهما عينة للمعامل والمختبرات. وعليه إذا للشمس والقمر حركة زمنية على الأرض هي في حالة حركة الليل والنهار. والليل والنهار في حالة حركة مكانية على الأرض وهي حركة الشمس والقمر. ولهذا ليس كلّ مشاهد ومحسوس ملموسا كما هو حال الليل والنهار اللذين يشاهدان ولا يلمسان ولا تؤخذ منهما عينة لهذا الغرض اللمسي.

دائرة التوأم: (الزّمان والحركة)

المستقيم عبارة عن مجموعة نقاط متصلة بداية ونهاية، وتعد كلّ نقطة بداية لما بعدها ونهاية لما قبلها، وهكذا يستمر المستقيم في اتجاهه إلى أن تتصل آخر نقاطه بأولها فيكوّن المستقيم دائرة، ولكن لا يمكن أن تقفل هذه الدائرة ولا أي دائرة إذا لم تكن هناك حركة. وعندما تقفل الدائرة بآخر نقطة تكون هذه النقطة في منظومة تكوين الدائرة، وتصبح بعد ذلك بداية لما بعدها ونهاية لما قبلها. وعندما يكون وقتها الأن تكون الأن في حالة حركة، وتصبح كلّ النقاط السابقة لوقتها هي في الماضي، وبعد قفل دائرة الزّمان بآخر نقطة فلا يكون لغيرها من النقاط مستقبل في تكوين هذه الدائرة التي أقفلت بها ولذلك عندما تقفل دائرة الزّمان والحركة فلا يكون في هذه الدائرة مستقبل، ولهذا فمن أراد المستقبل فليعمل عليه قبل قفل دائرة التوأم التي لم يعد فيها مكان للمستقبل بعد النهاية، وأصبح اليوم الآخر. واليوم الآخر هو يوم الوقت المعلوم قال تعالى: {قال

فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم}692، ويوم الوقت المعلوم هو الذي نعلمه، ونعلم أننا لا نعلم يوم حدوثه، ولأن اليوم هو الوقت وليس الزّمان، فقال الله تعالى: {إلى يوم الوقت المعلوم} ولم يقل اليوم المعلوم. إذا اليوم هو الوقت، والليل والنهار والشروق والغروب هي أوقات، والوقت يرتبط بالمواقيت وهي العلامات الدالة على الحركة والزّمان {يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس}693، بمعنى أن الأهلة علامات دالة على وجود الحركة والزّمان. ومن خلال حركة الأهلة وفق المنظومة الفلكية نتعرف على اليوم وغد وأمس كمواقيت زمنية تلاحظ ولا تشاهد يحس بها ذهنيا ولا تلمس ماديا، وبما أنها لا تشاهد فكيف إذا تعد؟ تعد لأن مكوناتها تشاهد وتلاحظ، فمكوّنات اليوم هي الليل والنهار والشروق والغروب، وهذه جميعها تشاهد وتلاحظ، ولذلك تعد الأيّام بمواقيتها الحركية (الأهلة) ومواقيتها الزمنية (الليل والنهار). ولذلك تكون (الآن، وقبل، وبعد) مؤشرات لمواقيت حركية وزمنية، أما (أسرع، وأبطأ، ومتساوٍ) فهي مؤشرات لمتحرك.

وعليه أتساءل: هل الزّمان يعد؟ لا، الزّمان لا يعد، وذلك لأنه لم يقع تحت سيطرة حواسنا، فهو لا يلمس ولا يشم ولا يذاق ولا يشاهد ولا يسمع، ولكنه يدرك ويعقل مجردا، وبما أن الزّمان لا يعد، فما هو الذي يعد ونعتقد بأنه الزّمان؟ الذي يعد، ويعد به هو اليوم والشهر والعام والدهر، وهذه مواقيت لها بداية ونهاية معلومة ترتبط بحركة الفلك المكونة الليل والنهار والشروق والغروب والأهلة. ولذلك نعرف كم عدد الأيام والشهور والسنين وبما تحسب أعمارنا (كم

692 الحجر، 37، 38.

693 البقرة، 189.

قضينا من العمر) وتؤرخ أعمالنا وتسجل ولكن هل اليوم الذي به تؤرخ أعمالنا هو اليوم المساوي لأي يوم في حركة الكواكب والنجوم؟ من المسلمات لا. فاليوم الذي نعيشه على الأرض لم يكن هو اليوم على الكوكب عطارد، فعدد أيام السنة على الأرض 365 يوما تقريبا، في حين عدد أيام السنة على الكوكب عطارد يساوي 88 يوما تقريبا، وهذا يعني أن اليوم على الكوكب عطارد أطول بكثير من اليوم على الأرض. والسنة على الكوكب الزهرة تساوي 224 يوما تقريبا، وهذا يعني أن اليوم على الزهرة أطول من اليوم على الأرض وأقصر من اليوم على عطارد. واليوم الذي يعد به الله تعالى يساوي ألف يوم ممّا نعد على الأرض وذلك لأنها أيام شدائد، وأيام الشدائد بالضرورة تكون طويلة بالنسبة إلى من خفّت موازينه وهو في الهاوية وكذلك قد يكون المعنى بأن خيرات ربّك والتي لا تحصى سيكون اليوم فيها كألف سنة ممّا تعد على الأرض، وذلك جزاء لمن ثقلت موازينه وهي العيشة الراضية، وطبيعيا قد تختلف الحركة وذلك من حيث مجال امتدادها، أو من حيث سرعتها، ولهذا بالضرورة تختلف الأيام في الدنيا عن الأيّام في الآخرة، ولا ينبغي أن ننسى أنّ الأيّام التي يعد بها الله هي أيّام الحركة الكلّية للكون، وليس أيّام الحركة الجزئية للأرض حول نفسها، {وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}694.

الزّمان والحركة هما توأم الوجود الحي، وهذا الوجود بشكلّه المطلق مادي ولا مادي، ولهذا لا يكون المادي لو لم تكن هناك حركة وزمان مصاحبان له، ولا غير المادي يكون لو لم يكن هناك حركة وزمان مصاحبان له، وفي هذه الحالة لا يكون أحدهما سابقا

694 الحج، 47.

على الآخر {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}695 فلا الحركة سابقة على الزّمان ولا الزّمان سابق على الحركة، والكلّ في فلك يسبحون.

ومن خلال دراستنا للزمان والحركة نلاحظ ما يخالف القول بنسبيتهما، فالزّمان مطلق بسبب عدم تحكمنا فيه وسيطرتنا عليه، وهكذا تكون الحركة هي الأخرى مطلقة. ولتوضيح ذلك أعرض المثال الآتي على مطلق الزّمان ونسبية السرعة: إذا انطلق متسابقان من النقطة 0 صفر في وقت وأحد وليكن 0 الصفر الافتراضي، ووصل الأول نقطة 0 صفر النهاية بعد أن قطع مسافة 100 متر، في زمن 10 ثوان، ووصل المتسابق الثاني نقطة 0 صفر النهاية بعد أن قطع المسافة السابقة نفسها في زمن 20 ثانية، فماذا يعني هذا الاختلاف مع أنّ زمن البداية وأحد والمسافة المستهدف قطعها وأحدة؟

هذا يعني أن في الزمن الواحد قد تختلف السرعة بين المتحركات ممّا يؤدّي إلى اختلاف المسافة المقطوعة في الزمن الواحد. فعندما قطع المتسابق الأول المسافة في (10 ث)، قطع الثاني نصف المسافة تقريبا في الزمن نفسه الذي وصل فيه المتسابق الأول إلى نقطة النهاية (10 ث)، وعندما سُلمت راية النصر للمتسابق الأول (الفائز) في الزمن (15 ث) بعد الزمن الصفر (زمن البداية) لازال المتسابق الثاني يجري في المضمار لعدم وصوله نقطة النهاية. وعليه فالزمن لم يتباطأ مع سرعة الثاني ولم يسرع مع سرعة الأول، فالزمن هو الزمن تراكمي متصل ولم يختلف واختلفت السرعة بين المتسابقين، وذلك باختلاف قوّة الامتداد لكلّ منهما، ممّا جعل

---

695 الذاريات، 49.

متوسط سرعة الأول تساوي 10 متر في الثانية، ومتوسط سرعة الثاني تساوي 5 متر في الثانية، ولهذا قلنا الزّمان مطلق وثابت، والسرعة نسبية ومتغيرة.

والفرق يكون أيضا بين الحركة والامتداد، فالحركة مطلقة لأنها خارج سيطرتنا وتحكم أدواتنا، والامتداد نسبي حيث أنه متوافق مع قوّة الجسم الممتدة، فحركة الكون متصلة طبيعيا ومنتظمة، وحركة الأرض حول نفسها حركة مطلقة، وهي جزء من الحركة العامة، وهي المقدرة باليوم المتكون من الليل والنهار، وحركتها حول الشمس هي الأخرى حركة جزئية مطلقة (خارج قدرة تحكمنا) وهي المقدرة بالنسبة المتكونة من فواصل الأهلة الشهرية. ولهذا يتصل الزّمان بالحركة كاتصال التوأم بحبل المشيمة في رحم الأم، ممّا يجعل بينهما ثباتا واتصالا، فثبات الزّمان بثبات الحركة، وثبات الحركة بثبات الزّمان، ولهذا كلّ منهما مطلق. أما الامتداد، فنسبي، فامتداد الأرض حول نفسها نسبيّ بالنسبة إلى امتدادها حول الشمس، ولذلك يكون زمن امتدادها (دورانها) حول نفسها وامتدادها حول الشمس = 365:1 يوما تقريبا، وقد يختلف طول اليوم عن أمس وغد، وذلك نتيجة اختلاف مجال الامتداد ممّا يجعله (الامتداد) هو الآخر مختلفا باختلاف مجاله، ولهذا لا يختلف طول اليوم نتيجة اختلاف الحركة، فالحركة ثابتة ومطلقة، بل الذي يختلف هو مجال الامتداد، وعليه تكون الحركة ثابتة والامتداد متغير.

وقد يتساءل البعض: بما أننا لا نشاهد الحركة فما هو الذي نشاهده عندما يكون الجسم في حالة حركة ذاتية أو مدفوعة وهو منطلق من النقطة أ إلى النقطة ب؟ الذي نشاهده في هذه الحالة هو أولا: المتحرك وثانيا: الامتداد، فالمتحرك هو الجسم، والامتداد هو

اندفاع الجسم بين صفر البداية وصفر النهاية، فامتداد الرجل وفق خُطاها يُشاهد، وامتداد الفراشة من زهرة إلى زهرة يُشاهد، وامتداد الكرة من الهداف إلى الهدف يشاهد، وهكذا امتداد المستقيم أو المنحرف وكلّ ممتد بقوّة دفع ذاتية أو معتمدة على قوّة. وعليه الامتداد مادي وكلّ مادي يشاهد.

مجال الامتداد:

لا امتداد ولا حركة إلاّ في حدود الممكن، ولذلك يكون الممكن هو مجال الامتداد، ومجال الحركة والزّمان، ولأنه ممكن فهو متوقع الحدوث وبعد حدوثه قد يكون مساويا لما هو متوقع وقد يكون أكثر أو أقل وعليه فالممكن ضروري الحدوث، ولكن نسبة حدوثه احتمالية ممّا جعلنا نفترض لها ثلاثة احتمالات وهي:

الاحتمال الأول: يكون الممكن مساويا للمتوقع.

الاحتمال الثاني: يكون الممكن أقل من المتوقّع.

الاحتمال الثالث: يكون الممكن أكثر من المتوقّع.

وعليه لا يكون الامتداد إلاّ من مجال الممكن، ولا ممكن إلاّ في دائرة الزّمان، فما نشاهده أو نلاحظه ونحس به أو نتذوقه أو نشمه أو نسمعه فهو الواقع في حدود الممكن، ولذلك يحدث الاختلاف في درجات تمييزنا لما يقع في مجال الممكن بالنسبة إلى مداركنا وقدراتنا وأحاسيسنا، فمنّا من يميز بين الأشياء أكثر من بعضنا وهذا يعني أن للبعض منّا قدرة تمييزه أقل، والبعض الآخر يساوينا.

وعندما نتحدث عن الممكن فلا ينبغي الإغفال عن غير الممكن حيث لا وجود لغير الممكن بالنسبة إلى الله تعالى: {وَإِذَا

قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}696. أما بالنسبة إلى البشر فهناك الممكن، وهناك غير الممكن، الممكن في نضج القدرة، وغير الممكن في قصورها، ولهذا قد يتوقع المفكر ما هو ممكن، ولكنه قد لا يستطيع تحقّيقه نتيجة قصور إرادته وقدرته.

يقع الممكن في الزّمان الحاضر والزّمان المستقبل، ولا يقع في الزّمان الماضي، وذلك لأنّ الممكن هو افتراض قابل للتحقّق وليس افتراضا محقّقا، فالمحقّق هو الكائن أو الكائنة، أما الممكن فهو الذي لم يكن بعد ولكنه سيتحقّق في الأن أو في المستقبل ولهذا يكون الفرق واضحا بين المحقّق ككائن، وبين الممكن الذي سيتحقّق. وعليه يمكننا الأن الحوار مع السؤال الذي طرح منذ زمن بعيد في الفكر الفلسفي وهو: ما هو الأسبق في الوجود: الممكن أم الواقعي؟ ونحن نطرح تسألا نعتقد أنه أهم: أيهما اسبق الممكن أم المستحيل؟

لتكون الإجابة على السؤال الأوّل: أنّه لا واقعي إلا بممكن، أي أن الممكن يحتاج كي يوجد إلى واقعي يسبقه. والإجابة على السؤال الثاني: لو لم يكن المستحيل، ما كان للممكن وجودا أي أن الممكن دائما فعل مترتب على فعل سابق. ولذا على مستوى القيوم لا وجود للمستحيل، فالمستحيل مخلوق من الخالق الذي لا مستحيل أمامه، وعلى مستوى العباد فلا ممكن إلا من مستحيل.

ولذا لولا وجود مصدر للأمر ما كان للأمر وجود، ولكن من ناحية أخرى فالأمر السابق غير مطلق ممّا يجعلنا نقول: لا يمكن أن تتواجد الأشياء ما لم تكن ممكنة. فالله سابق الوجود على الممكن، وكلّ ما تحقّق من بعده وما سيتحقّق هو الممكن بالنسبة إليه،

---

696 البقرة، 117.

والبشر كمحقّق من هذا الممكن عندما يسعون إلى تحقّيق ما هو ممكن من ناحية عقلية، يكون الممكن في هذه الحالة سابقا على المحقّق ذهنيا أو إدراكيا. وهكذا يكون حال الممكن الإلهي الذي لم يحقّق بعد للمشاهدة والإدراك العقلي {وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون}697 بمعنى عندما يصدر الله أمرا وهو الممكن لابدّ وأن يتحقّق في الوقت المحدد له، وفي هذه الحالة يكون الممكن سابقا على المحقّق. وعليه يكون الممكن قرارا معطياته مثبتة للتحقّق، والتحقّق فعل تنفيذ الممكن وهو الكائن أو الكائنة، والبشر لا يحقّقون إلاّ الممكن، أما الله فيحقّق الممكن والمستحيل، فسبحان الله العظيم.

الامتداد الفكري:

هو محتوى لفظي عام في مضمونة حركة، ولهذا لا يمكن أن يكون هناك امتداد بدون حركة سواء أكان هذا الامتداد جسميا أو فكريا، والامتداد قد يكون طبيعيا كما هو عند حالات النمو، وقد يكون بالإرادة كما هو في حالات الاختيار، وقد يكون بالقوّة عندما يكون في مقابلة انكماش بالمغالبة، ويعتبر الامتداد مساحيا سواء أكان فكريا أو ماديا، وقد يكون ميسرا، وقد يكون بالقوّة، وقد لا يكون.

الامتداد في الفراغ ميسر مثله مثل الامتداد المجالي المسموح به لأنه لم يشكلّ أي عائق ولا يمتد خارج حدوده، وامتداد المغالبة بالقوّة يؤدّي إلى الاستزادة والفقدان بين الأطراف الممتدة، والامتداد المساوي في الصلابة قد لا يكون. والامتداد خارج الحيز يكون على

697 البقرة، 117.

حساب حيز آخر، وعندما تتلامس الأفكار أو الأجسام الممتدة يحدث الاحتكاك بينها، وقد ينجم عنه استيعاب أو صدام يكون له تراض أو مغالبة. وهكذا تمتد الأرقام المستقلة إلى النهاية بيسر وهي متصلة، وتستقل بالآحاد وتتصل بالجموع. امتداد الواحد إلى ما بعده من أعداد يساوي جموعا، ولهذا لا جموع إلاّ بالامتداد، امتداد الواحد خارج حدوده يشغل حيزا من المرتب عليه والذي لا يمكن أن يكون إلاّ به (بالواحد)، ولذلك لا وجود لأي كميات إلا بالامتداد الآحاد. فلو رسمنا مستقيما طوله 5 سم، فإن ذلك يعني امتداد خمس وحدات متصلة بالجموع تكوّن هذا المستقيم كما في الشكلّ رقم (1).

أ............................ ب

الشكلّ رقم (1)

وبما أن الوحدات الخمس منفصلة فكيف تكوِّن مستقيما متصلا؟ تكوّنه بالامتداد، امتداد الواحد إلى خارج قيمه (مجال حدوده)، بالإيجاب تجعله يتماس مع مجال القيم للعدد اثنين بالسلب، وهكذا تتصل بقية الأرقام الخمسة مسطرة ممّا يجعلها ترسم الخط المستقيم الذي أشرنا إليه. ولو لم تكن للأعداد نهايات بالسلب والإيجاب ما كانت هناك صلة بينها، ولهذا لا يمكن أن تتصل الأعداد بعضها ببعض لو كانت تمتد إلى مالا نهاية. وعليه تجمع الأعداد المستقلة، وتطرح الأعداد المتصلة، والأعداد المتساوية في الكم قد لا تتساوي في المقادير.

لقد عرفنا أن جمع 2 + 2 = 4، ولكن هل الاثنان الأولى تساوي الاثنين الثانية في المقدار؟ ولتوضيح ذلك لو افترضنا أن

الاثنين الأولى غزالان والاثنين الثانية أيضا غزالان، ولكن الاثنين الأولى عمرها سنة وأحدة، والاثنين الثانية عمرهما أربّع سنوات، فهل هم في حالة تساوٍ قيمي أو عمري؟ وحتى من الذهب قد لا تتساوى، فهل 50 جراما من الذهب تساوي 50 جراما من الذهب؟ مع أنّه من حيث الكم نعم أنهما متساويتان إلاّ أنه من حيث القيمة ليس بالضرورة أن تكونا متساويتين، لأن الخمسين جراما الأولى عيارها 18 والثانية عيارها 22. إذا الأعداد المتساوية في الكم ليس بالضرورة أن تتساوى في العمر أو النوع أو اللون أو المقدار. وهكذا لو تحصل أحد الطلبة في مادة الفيزياء على نسبة عالية، ولتكن 90%، هل هذا يعني أن كلّ من تحصل على هذه النسبة هو ممتاز في مادة الفيزياء؟ ليس بالضرورة أن يكون ممتازا في المادة مع أنّه ممتاز في هذا الاختبار، ولو أعيد له الاختبار باختلاف الأسئلة فقد لا يحصل على هذه النسبة العالية، وتكون النتيجة السابقة في شكّ لفقدانها مصادق الثبات. وعليه ينبغي أن يهتم التحليل العلمي والتفسير العلمي بعناصر الاختلاف والاتفاق بين النتائج المتساوية في الحاصل الحسابي، وألاّ يقتصر على المجامع الإحصائية فقط، لأن اتصال الأعداد وتساوي محصلاتها لا يعني تساويها.

وعند دراسة المواضيع تتصل الأفكار وتترابط في نسج منهجي ينظم وحدة الموضوع، ويظهره في شكلّه اللائق ليحل محله بين البحوث الناجحة التي سبقته. وتتصل الأفكار والمواضيع من أجل اكتمالها، وتحلل علميا عندما يتمكن الباحث من معرفة نقاط الاتصال والترابط بين تنقله من الكلّ إلى الجزء، ثم إلى المتجزئ، أو منه، إلى الجزء، ثم إلى الكلّ عند محاولته التعرف على العلل

والأسباب الكامنة والظاهرة. ولا يمكن أن يكتمل الموضوع بدون امتداد أفكاره، ولا يمكن أن يحلل بدون معرفة نقاط اتصاله. والباحث كمتقص للحقّائق لا يسترسل في دراسته، أو تشخيصه، أو علاجه للحالات ما لم تكن أفكاره متصلة، وإلمامه بالموضوع متكاملا. وهكذا تتكوّن الظواهر والمشاكلّ المستقلة من علل وأسباب متصلة، ومن الصعب أن تحلل، أو تفسر المواضيع قيد البحث ما لم يراع الباحثون ذلك الامتداد الذي يربّطها فيما بينها. فعدم التعبير عن الكبت على سبيل المثال قد يؤدّي إلى الانفجار السلوكي المتوقّع وغير المتوقّع، ولا غرابة في ذلك لأن الانفجار السلوكي مرتبط بكبته المفروض، ويحدث الانفجار برغبة الإنسان في التنفيس الوجداني الذي يحقّق له الرضاء، حتى وإن ترتب عليه ثمن عقابي، وكذلك كبت الغرائز، قد يؤدّي إلى عدم الانضباط النفسي، وعدم الانضباط النفسي قد يؤدّي إلى انحراف السلوك. إذا هناك امتداد بين الكبت وعدم الانضباط، فكبت الغرائز قد يؤدّي إلى التمرد والثورة على أدوات الكبت، بغرض التخلص من سيطرتها، ويحدث الصراع نتيجة تواجه امتدادين بالقوّة تجعل أحدهما يمتد على حساب الآخر إذا أنهزم أو ضعف، وعندما تتعادل الكفتان قد تكون بينهما مواجهة بتماس حدود اتصال القوّة المتكافئة ممّا يجعل لامتدادهما نهاية.

لا امتداد إلاّ بحركة، وكلّ كائن أو جماد هو في حالة حركة كلّية، أو جزئية، أو متجزئة، فالأرض على سبيل المثال ككلّ تتكون من أجزاء تتجزأ إلى يابسة وماء ونار وكلّها تتجزأ، ولكلّ منها بداية ونهاية، وكلّها في حركة مستمرة، وإذا تساءل أحد: بما أن الكلّ في حالة حركة، فهل للثبات وجود؟ نعم لكلّ حركة مستمرة ثبات في

الاستمرار، ولكلّ مستمر نهاية يثبت عندها. وإذا تساءل آخر: لمن يكون الثبات؟ بالتأكيد للحركة. إذا شاهدنا أي شيء ثابت كما يعتقد المشاهد على سبيل المثال للأرض والجبال، فإن ذلك الثبات يعبر عن وجود الحركة {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}698 ولذلك لا يوجد الثابت المطلق، بل الذي يوجد السكون، والسكون دليل على وجود حركة كامنة تظهر للمشاهدة عندما تتوفر اشتراطاتها.

الحركة والسكون متلازمان، ويستوعب كلّ منهما الآخر، ويحمله في أحشائه، وهكذا لكلّ متحرك حركة، ولكلّ ساكن سكون، ويترتب كلّ منهما على الآخر، يبدأ السكون حيث تنتهي الحركة أو تتوقف، وتبدأ الحركة حيث يبدأ السكون أو يتوقف، فلا حركة إلاّ لسكون ولا سكون إلاّ لحركة، ويكمن كلّ منهما في الآخر كما تكمن البراكين في باطن الأرض، وكما تكمن الحقّيقة في صدر حاملها، وكما تكمن الفراخ في البيض (كمون المتحرك في الساكن)، فالبركان لا يمكن أن ينفجر إلاّ بقوّة الحركة الكامنة فيه، ولا يهدأ البركان ولا يتوقف إلاّ بقوّة الحركة الكامنة فيه، ولا يهدأ البركان ولا يتوقف إلاّ بقوّة السكون فيه، وهكذا تكون الحقّيقة كامنة في الصدور الواعية بحركتها إلى أن يتم الإدلاء بها، وبقوّة وجوبها، ولهذا يعتبر الكندي الحركة هي حالة من التبدل والتغير، ولكلّ حركة بداية، ونهاية699. ويتم الاتفاق معه في هذا القول العلمي، بأن للحركة بداية، ونهاية، وأنها في حالة تبدل كما تتبدل الأرقام في جمعها وطرحها، وبقية حساباتها الرياضية، ولهذا لم يكن السكون

---

698 النمل، 88.

699 حسام محيي الدين الآلوسي، فلسفة الكندي وآراء القدامى، والمحدثين فيه، بيروت، دار الطليعة، 1985م، ص 195، 205.

عدما للحركة، ولم تكن الحركة عدما للسكون، بل كلّ منهما معرض للعدم، باعتبارهما وجودا. وكما يكمن السكون في الحركة، تكمن الحركة في السكون، وكذلك تكمن الحركة في الحركة، ككمون حركة الدم في حركة القلب. ويكمن المتحرك في المتحرك، ككمون الجنين في بطن أمه، وكمون حركة الركاب في السيارة أو الطائرة، أو البالون أو السفينة، وعليه قد تكون الحركة ذاتية، وقد لا تكون (قد تكون مدفوعة، أو محمولة)، وكلّها تحدث بفعل قوّة.

والحركة الذاتية تنقسم إلى جزأين:

الجزء الأول:

حركة واعية بإرادة الاطمئنان، وتحقّق أهدافا شخصية، أو ذاتية أو موضوعية، دون أن تؤثر سلبا في الآخرين، مثل إشباع الإنسان لحاجاته وهو راضٍ، ولا يمس حاجات الآخرين حتى ولو كان بإمكانه تناولها، وهذه الحركة تحقّق الانسجام والتراضي، وتؤدّي إلى الوحدة.

الجزء الثاني:

حركة واعية بإرادة الخوف، وتحقّق أهدافا شخصية، أو ذاتية، أو موضوعية، وتؤثر سلبا في الآخرين، مثل إشباع الإنسان لحاجاته على حساب حاجات الآخرين، وهذه الحركة تؤدّي إلى الصراع والشقاق، وتؤدّي إلى الفرقة، وكلّ ذلك يحدث من أجل المستقبل، ممّا يجعل للحركة مستقبلا، وللمستقبل حركة. وتعبر الحركة عن وجود

طاقة ظاهرة أو كامنة تجعل الجسم أو الشكلّ في حالة حركة ثابتة، أو متغيرة، من وقت إلى آخر.700

حالتا الحركة:

أولا: الحركة الممتدة

وهي التي تحدث عندما تمتد القوّة في مجالها الذي تتمكن من الوصول إليه كلّما سنحت لها الفرصة في ذلك. وقد تكون الحركة فكرية، وقد تكون مادية.

1- الحركة الفكرية:

هي التي تحدث عندما تمتد الأفكار من عقول وصدور حامليها إلى عقول وصدور أخرى، فتشغل حيزا عندهم نتيجة امتدادها إليهم، وهكذا تمتد الأخبار، والإشاعات، وتنتشر بين النّاس حسب قوّة تأثيرها سلبا أو إيجابا وحسب قوّة الفكرة أو الحجّة التي تتضمنها. والأفكار الموجبة عندما تمتد خارج المجال أو البعد الذي يمكنها التأثير فيه قد تحقّق نتائج سالبة، فالمناداة بالوحدة العالمية إنسانيا موجبة، ولكن عندما تتجاوز أهمية البعد القومي في البناء والتنظيم الاجتماعي تكون على حسابه، وتكون نتيجة الجهد المبذول في التنشئة الاجتماعية تساوي صفرا في حالتين.

الحالة الأولى:

700 هادي العلوي، نظرية الحركة الجوهرية عند الشيرازي، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى 1983م، ص 62-75.

مهما بذل من جهد تجاه المجتمع من أجل تحقّيق البعد العالمي على حساب البعد القومي لا يتحقّق ممّا يجعل الصفر هو نتيجة الجهد المبذول.

الحالة الثانية:

تركيز الجهد التربّوي على تنمية أو تطوير الاتجاهات العالمية لدى الناشئين يُضعف وعيهم بأهمية البعد القومي، وتكون النتيجة: مستقبل المجتمع يساوي صفرا، ويصبح سيره (مشيته) كالغراب الذي كان يعتقد أن بإمكانه أن يقلد الحمامة في مشيتها فنسي مشيته ومشية الحمامة.

وقد يُوجّه المجتمع كذلك فكريا أو سياسيا تجاه تحقّيق البعد القومي على حساب البعد المحلي، فتكون النتيجة هي الأخرى صفرية في حالتين:

الأولى:

عدم تحقّيق الوحدة القومية نتيجة انسلاخ المجتمع عن مكوناته الأساسية للأمة وهي الأسرة والعشيرة والقبيلة.

والثانية:

عدم تحقّيق الوحدة المحلية على المستوى الاجتماعي نتيجة إهمالها في التربّية الاجتماعية.

وكذلك العمل على ترسيخ التكوين الاجتماعي المحلي على حساب البعد القومي تكون النتيجة صفرية في حالتين:

الأولى: تشتت المستوى المحلي لفقدانه مجال التمدد الطبيعي (التربّية القومية).

والثانية: فقدان الأمة أو فقدان الإحساس بها يجعل حياة الأفراد في خطر لفقدانهم المظلة الاجتماعية. (فالأمة تكوين اجتماعي علاقته (القومية)، والقبيلة تكوين اجتماعي علاقته (القبيلة)، والأسرة تكوين اجتماعي علاقته (الأسرة)، وأمم العالم تكوين اجتماعي علاقته (الإنسانية)، هذه بديهيات. ثم هناك تكوين سياسي يكوّن الدولة هو الذي يشكلّ خريطة العالم السياسية، ولكن لماذا تتغير خريطة العالم من عصر إلى آخر؟ السبب هو أن التكوين السياسي هذا قد يكون منطبقا على التكوين الاجتماعي وقد لا يكون كذلك. فعند انطباقه على الأمة الواحدة يدوم ولا يتغير، وإذا تغير نتيجة استعمار خارجي أو تدنٍّ يعود للظهور مرة أخرى تحت شعار الكفاح القومي أو النهوض القومي، والوحدة القومية).

2- الحركة المادية:

هي التي تمتد بقوّتها الملموسة أو المحسوسة والقابلة للمشاهدة والملاحظة، ويكون لها أثر إيجابي، أو أثر سلبي باختلاف المتأثرين بها، مثل امتداد السيل الجارف في الوادي الذي يقتلع بقوّة امتداده كلّ مهتز منتهٍ عندما يقع في طريقه، وهذه قد تكون سالبة أو موجبه، حسب الموضوع، والمقيَّمين له، وباختلاف الزّمان والمكان، ومع أنّه قد يحدث سلبيات أو أضرارا، إلاّ أنه قد يحقّق العمار، بارتوائه للأرض وإحيائه للأشجار أو للنباتات التي كادت أن تموت

أو تختفي[701]. وقد تكون الحركة نتيجة انفجار بركاني يحدث بعد تمدد القوّة الكامنة في بطن الأرض عندما تضعف أمامه مقاومتها، فتفتح له الطريق للخروج إلى النهاية، وحسب مجال قوته ودائرة تأثيره، وهكذا يتمدد الجنين في بطن أمه، وتتمدد النبتة من نواتها إلى النهاية، أو تنكمش إلى النهاية. وإذا سألك أحد: هل الحركة تشاهد أم تلاحظ؟ فبماذا تجيب؟ في اعتقادنا أن الحركة لا تشاهد، ولكنها تلاحظ. ولكي أجيب أتساءل: بما أن الحركة لا تشاهد، إذا ما هو الذي يشاهد ويعتبر حركة؟ إنه المتحرك. إذا الحركة تختلف عن المتحرك، لأن المتحرك قابل للمشاهدة والملاحظة معا، أما الحركة فتلاحظ فقط، لأنها غير ملموسة، لافتقادها إلى المادة التي تتوحد فيها. إذا الحركة هي الكامنة في المتحرك، وهي التي تحدث كلّما حدث لها تمدد بالقوّة، يجعلها في حالة ظهور بدلا من حالة الكمون، وهي العلاقة التي تحدث بين المتحرك والمحرك، فإذا اعتبرنا على سبيل المثال كرة القدم هي المتحركة، فمن يكون المحرك لها؟ هل هو اللاعب، أم قدم اللاعب؟ بالتأكيد لو لم يكن اللاعب محركا للقدم ما كان القدم محركا للكرة، إذا هناك محرك مباشر وهو القدم، ومحرك غير مباشر وهو العقل والجسم كوحدة وأحدة، وتتداخل العلاقة بين المتحرك والمحرك باتصال وانفصال، تتصل في الفكرة والدرجة، وتنفصل في الأداء والخصوصية.

تتصل حركة اللاعب وتتداخل من الفكرة التي تمتد من العقل إلى البدن، والجسد، فتحركه وفق خطة وأحدة متناسقة، وبخصوصيات كلّ عضو من البدن، ممّا يجعل لليدين وللرأس والقدم

---

701 هادي العلوي، نظرية الحركة الجوهرية عند الشيرازي، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1983م، ص 62-75.

حركات مختلفة، كلّ حسب وظيفتها، ودورها في أداء المهمة المناطة بها. وحسب هذه الأدوار يشاهد المتفرج حركة اللاعب متسقة، ولكنه يشاهد بالتحديد حركة القدم في علاقة مباشرة ومنفصلة مع الكرة في أثناء دفعها إلى الإمام، أو الخلف، أو أحد الجانبين، فتمتد الكرة بقوّة دفع المتحرك (القدم) إلى نقطة انتهاء القوّة أو المسافة المقطوعة، ولهذا قوّة الحركة هي التي تحدد الامتداد، وليس المتحرك هو الذي يحددها، مع أنّه لولا المتحرك ما عرفنا الحركة ولا كانت تشغل حيزا.

ثانيا: الحركة المنكمشة:

هي الحركة التي تطوي حركة الامتداد، أو هي العودة إلى الأصل، كعودة الشجرة إلى النواة التي كانت تكمن فيها، لأن كلّ شجرة منتهية باعتبارها شيئا (وكلّ شيء منتهٍ)، ولكن هل ستنتهي الأشجار بعد موت كلّ ما نبت منها؟ بالتأكيد لا. في عالم الوجود الحي ستنتهي كلّ الأشجار الموجودة على قيد الحياة، وحسب أعمارها الممكنة لبقائها، وستنمو أشجار أخرى منكمشة في نواها. ولهذا لا امتداد إلاّ من انكماش، فالانكماش هو أساس كمون القوّة الممتدة. قوّة النهار لا يمكن أن تمتد إلاّ إذا انكمش الليل، وقوّة الليل هي الأخرى لا تمتد إلاّ إذا انكمش النهار، وقوّة انبساط اليد لا يمكن أن تتم إلاّ إذا انتهت قوّة انكماشها. ونتيجة الانكماش، والامتداد، تسبح الكواكب في فلكها، وهكذا امتد الكون لحظة الانفجار العظيم، وهي نقطة البداية، وسيعود الكون إلى الانكماش عند نقطة النهاية، مصداقا لقوه تعالى: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ}702، أي يوم أن تنكمش السماء، يكون الله قد

702 الأنبياء، 104.

أعادها إلى حالتها التي كانت عليها. وكما أنّ الامتداد لا يقتصر على المادة المشاهدة، أو الملاحظة، كذلك الانكماش لا يقتصر على ذلك، لأنّ كلّ ممتد لابدّ وأن ينكمش سواء أكان ماديا، أو فكريا، فالأفكار في أساسها منكمشة في العقول والصدور، ثم تمتد من خلال الاتصال، بالتبشير، والترشيد، والتحريض، والتنظير، وبالجدل تترسخ، أو تصحح، وتكون في حالة شكّ إلى أن تثبت، أو تنفي. وقد تمتد أفكار وتنتشر بقوّة حجتها، ثم تعود إلى الانكماش عندما تضعف حجتها. وكلّ من الانكماش والامتداد يتضمن قوّة، ففي مرجحة القدم أثناء ضربّ الكرة تنكمش بقوّة في حركة إلى الخلف، لتمتد بقوّة إلى الأمام لضربّ الكرة ودفعها إلى الهدف، وإذا انكمشت القدم بقوّة إلى أعلى وإلى الأمام يتم دفع الكرة بقوّة إلى الخلف، وهكذا في حالة الجانبين، لأن القوّة هي التي تظهر في حالتي الامتداد والانكماش، وهي التي لا تقاس إلاّ بعد الظهور من الكمون إلى الحركة.

في الفرحة والبهجة قوّة تمتد إلى أن تمتلئ الصدور بها، وتنكمش الأحزان أمامها، وإذا انكمش الفرح والبهجة امتدت الأحزان والاضطرابات. ففي حالة العلاج ينبغي أن يهتم الباحث بامتداد حركة الإيجابيات، وانطواء حركة السلبيات.

وبما أنّنا نتكلّم عن الامتداد والاتصال الاجتماعي علميّا، فما هو الامتداد الاجتماعي؟ هل هو المتكوّن من المفرد والمثنى والجمع والمكان والزّمان؟ أم هو أكثر من ذلك؟ فلو كان المتكون من امتداد الأفراد المتزايدين عن المثنى كان المجتمع في هذه الحالة كمّا، وإذا كانت الجموع من كلّ شيء تكوّن كمّا، فهل المجتمع هو الآخر مجرد كم؟ وهل الكمّ المجتمعي يبيّن صورة للمجتمع، أم يبين صورا

للبشر المتجمعين؟ في اعتقادنا لا تكتمل صورة المجتمع الذهنية إلاّ إذا تم اللقاء بين عناصره، وأن يكون بينهم تفاعل، وأن يكون لهم امتداد (امتداد ثقافي وحضاري) إذا المجتمع هو التقاء وتفاعل امتداد مجموع الأفراد والجماعات المتفاهمين على أهمية المكان والزّمان لكلّ وأحد منهم (إنه مجتمع الأمة الواحدة)، أما المجتمعات الأخرى فهي عبارة عن حشود مؤقتة تلتقي على مصلحة وتتفرق على مصلحة. إذا امتداد الأفراد بأعداد هائلة بدون تفاعل الأهداف الخاصة والعامة عبارة عن حشود (كمية) لا تعطي معنى للمجتمع، فالمجتمع كمّ وكيف، كمّ من البشر، وكيف من القيم. ولهذا المجتمع كمفهوم ضروري ذهنيا ولا يرسم، لأنّه لم يكن مثلثا ولا مربّعا ولا أي شكلّ من الأشكّال الهندسية. وهكذا التطور كالمجتمع لا يرسم مع أنّ دلالته ترسم بيانيا بالمنحنيات والمضلعات والأشكّال الهندسية الأخرى. ويتضح التطور بمقارنة أثر المتغيرات في الموضوع عبر الزمن سواء أكان الموضوع قابلا للمشاهدة أو الملاحظة.

المكان:

هو حيّز تشغله الأجسام ويمكن ملاحظته وقد يكون من الصعب مشاهدته، والمكان سابق على الجسم أو الشكلّ، كأسبقية القالب على المقولب فيه، وبالمشاهدة قد يصعب على المشاهد الفصل بين المكان والجسم الذي يملؤه، ولكن باستخدام وسيلة الملاحظة يمكن التمييز بينهما. إذا المكان هو الإطار العام الذي يحتوي الأشكّال والأجسام، فلولا وجود مكان للأرض ما كانت. ولكن ما هو مكان الأرض؟ هو الإطار الخارج عنها والذي يشكلّ محيطها الحسابي، ولذلك فالمحيط لا يمكن أن يكون جزءا من المحاط، محيط الأرض لا يمكن أن يكون جزءا منها، ولا هي تكون جزءا

منه. وفي اعتقادنا لا يمكن أن يكون للمحيط شكلّ ثابت أو قالب محدد، بل المحيط متباين دائما، ولا يقتصر على الأشكّال المستطيلة والمربّعة والمثلثة أو الدائرية، بل يتعداها إلى كلّ شكلّ وكلّ جسم، فللطائر محيطه وللإنسان محيطه الذي يحدد معالمه. وهكذا لكلّ شكلّ محيط خاص به. ولهذا أتساءل: هل هذا الإطار أو المحيط يمكن مشاهدته؟ في اعتقادنا من الصعب مشاهدته، ولكن بالإمكان ملاحظته، فالمشاهدة لا يمكن أن تتم إلاّ للأشياء المحددة والمحصورة كالأجسام والأشكّال الهندسية، أما الملاحظة فتتعدى ذلك إلى ملاحظة الظواهر، فالمكان ظاهرة والزّمان ظاهرة، والطلاق ظاهرة، والزواج ظاهرة، والحركة ظاهرة، وهذه الظواهر وغيرها لا يمكن أن تشاهد بالعينين ولا بوسائل تقنية حديثة، ولكن جميعها تلاحظ، وإلاّ هل هناك من يستطيع مشاهدة الحركة أو الزواج أو الزّمان؟ إنه من غير الممكن.

الحركة لا تشاهد، ولكن الذي يشاهد هو المتحرك، فرفع القدم إلى الخلف ودفعها إلى الأمام لضربّ كرة القدم تشاهد، ولكنها لم تكن هي الحركة، بل الذي يشاهد هو المتحرك (القدم)، ومن خلال مشاهدة القدم تلاحظ الحركة، حركة القدم وحركة الكرة. إذا الحركة هي ربّط العلاقة بين المتحركات من الذهن إلى الهدف وهذه كلّها لا تشاهد، ولكنها تلاحظ، ولذلك يكون الفرق واضحا بين المتحرك والحركة، والفرق بينهما هو أن المتحرك لابدّ وأن تكون له صورة أو شكلّ، ولهذا يشاهد أما الحركة فلا يمكن أن تكون لها صورة أو شكلّ ولهذا لا تشاهد.

كلّ الأشكّال الهندسية لا يمكن أن تكوّن أشكّالا إلاّ ولها أماكن، فالمكان هو القالب الذي تتشكلّ فيه الأجسام والأشكّال

الهندسية. فالأرض كشكلّ هندسي تتكوّن في مكان ومن مادة، والمكان بالنسبة إليها هو الإطار الخارجي أو المحيط الخارجي الذي تحمل فيه، والأرض هي المادة الداخلية المحاطة بدائرة مكانية، ولهذا من الصعب على البسطاء في المعرفة والبحث العلمي أن يدركوا الفارق أو يفصلوا بين الأرض كمادة وبين محيطها الخارجي، أما الملاحظ العلمي فيمكنه إدراك الفارق بينهما ويمكنه الفصل بينهما، حيث أنه يعرف أن المادة التي تتكوّن منها الأرض لم تكن المادة التي يتكوّن منها محيطها الخارجي. وعليه لا يتم الاتفاق مع رأي الفيلسوف ديكارت في قوله: (الأجسام لا تختلف عن المكان الذي يحتويها)703. فالمكان كما سبق وان بيّنا شيء والجسم الذي يملؤه شيء آخر، فالأجسام عندما تشغل حيزا تتحد مع المكان من حيث التماس المحيطي، فعلى سبيل المثال: كمية الماء في الخزان الذي طوله ستة أمتار، وعرضه أربّعة أمتار، وارتفاعه متران، يكون حجمها يساوي 6 × 4 × 2 = 48 مترا مكعبا، وهو حجم الشكلّ الربّاعي السابق الذكر، وعندما يتم تفريغ الماء من الخزان الربّاعي يكون حجم المكان هو المحيط بالماء، وهو الجدران السداسية المكوّنة للشكلّ الربّاعي، ولهذا يكون الماء هو الجسم، والمحيط ذو الستة أوجه هو المكان الذي ينفصل عنه الجسم المائي عندما يفرغ منه، فيكون حيزا خاليا من الجسم المشاهد والملموس، فهو حيز مكاني يمكن ملؤه بأي جسم آخر يمكنه أن يحتويه بالشكلّ السابق. وللمكان الخارجي المشاهد مكان يحتويه هو الآخر، فمكان الخزان المائي السابق هو أعلى سطح المسكن، قاعدته السطح ومكانه في الهواء وهو الحيز الذي يشغله منه، والذي لا يمكن مشاهدة المكان

703 الموسوعة الفلسفية العربيّة، معهد الإنماء العربّي، المجلد الأول، الطبعة الأولى، 1986م، ص 780.

إلاّ به (بالخزان كجسم)، والذي يمكن ملاحظته بدونه. فعندما يُزال الخزان من مكانه، فهل يمكن لأحد أن يشاهد المكان الذي كان فيه الخزان؟

إذا المكان يمكن ملؤه بجسم، سواء أكان جسما صلبا أو غير صلب، وأي جسم إذا لم ينتظم مع الحركة أو يتزن معها فلابدّ وأن يصيبه الخلل، ولهذا كان للهندسة ضرورة في البناء والتصميم، لأنها هي التي تجعل للمكين مكانة، ولذلك ينبغي أن تكون مكانه أي جسم متزنة على الأرض، أو في مجال حركتها الذاتية أو المدفوعة إليها، كاتزان مكانة الود في الصدور، فالمكانة حيز، والحيز قد يكون مكينا وقد لا يكون، يكون مكينا كحيز الجنين في بطن أمه الذي يجعل للجنين مكانة عاطفية عند أمه وهي تحمله وهنا على وهن {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ}704، وعندما يكون المكان غير مكين، يكون غير مأسوف عليه إذا ما غُيّر أو أُزيل من الوجود.

المكان المجرّد:

المكان المجرّد هو الحيز السابق على كلّ شكلّ مشاهد، والذي يمكن مشاهدته بعد انشغاله بجسم، والفرق بين المكان والمكانة، هو أن المكان يمكن أن يكون مشاهدا، ويمكن أن يكون مجردا، أما المكانة فهي دائما مجردة تلاحظ ولا تشاهد، مكانة الحبيب في فؤاد حبيبه، ومكانة الأبوة والأمومة بين البشر. والعلاقة بينهما (بين المكان والمكانة) هي أن المكانة مع أنّها مجردة إلاّ أنّها تشغل حيزا، ممّا يجعلها تنتقل من المجرد إلى المشاهد. فعندما تكون للمؤمن مكانة

704 المؤمنون، 12،13.

بين النّاس فقد تدفعهم هذه المكانة إلى الدفع به إلى مكان بينهم، فمكانة محمّد عليه الصّلاة والسّلام هي التي جعلت له مكانا بين المسلمين، وهكذا مكانة أبي بكر وعمر وعثمان وعلى من بعده رضي الله عنهم، فمكانتهم هي التي حرضت مجتمعهم على أن يجعل لهم أماكن الصدارة وتحمل المسؤولية من بينهم. {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}705، بمعنى اعملوا على أن تكون لكم مكانة واعتبارات لكي تأخذوا حيزا لتوجدوا فيه، ولكن أية مكانة هذه؟ هل هي مكانة عليا أم مكانة دنيا؟ ولأنّ هذه الآية تشير إلى الكافرين والظالمين فهي تشير إلى المكانة الدنيا. أما المؤمنون فمكانتهم عليا، ولذلك ينبغي أن يعملوا عليها لكي يكون لهم اعتبار. إذا المكان سواء أكان مجردا أو غير مجرد يختلف عن المكانة. المكانة اعتبار ورضا نتيجة تقدير نفسي، والمكان المجرد هو الذي لا يشاهد ولكن يحس به ويلاحظ، كمكان الخليفة والقائد والرئيس والملك في تحمل المسؤولية، ولهذا الخلافة والقيادة والرئاسة والملكية لا ترسم ولا تشاهد ولكنها تلاحظ ولها قوانين ونظم. إذا المكانة هي المنزلة التي تشغل حيزا، فمكان المنزل من الحديقة قد يعطيه مكانة رائعة لدى المشاهدين والملاحظين، بمعنى يشغل حيزا من مجال تفكيرهم، ويجعل الانشراح في صدورهم، ويخرج الكلّمات من أفواههم، ولذلك قد لا يكون الفرق بين المكانة والمكان حيث أن جمع مكانة مكانات وعندما يتمكن الشيء من مكانة فهو مكين. وعليه لا مكان ولا مكين إلا والقيوم عليه وعلى من فيه، فسبحانه القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم مصداقا لقوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ

705 الأنعام، 135.

إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}706.

عمل زكريا:

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد عن حمّاد سلمة، عن ثابت، عن أبي رافع، عن أبي هريرة، أن رسول الله – صلي الله عليه وسلّم – قال: "كان زكريا عليه السلام نجارا"707

وفاة نبي الله زكريا:

وردت مجموعة من الأقوال حول قتل النبي زكريا كما سبق ذكرها والتي من بينها بعد أن قُتل ابنه يحي، أمر الملك الظالم حاكم فلسطين (هيرودوتس)، أرسل هذا الملك في طلب أبيه زكريا عليه السّلام فاستخفي منهم، فدخل بستانًا ومر بشجرة عند بيت المقدس فنادته الشّجرة بمشيئة الله: هلُمَّ إليّ يا نبي الله، فلما أتاها عليه السّلام انشقت بقدرة الله ومشيئته فدخلها فانطبقت عليه وبقي عليه السّلام في وسطها، فأتى عدو الله إبليس اللعين فأخذ هُدْبَ رداء زكريا عليه السّلام فأخرجه من الشّجرة ليصدقوه إذا أخبرهم، ثم لقي القوم الذين خرجوا في طلب زكريا عليه السّلام وكان متشكلّا لهم بصورة رجل فقال لهم:

ما تريدون؟

706 البقرة، 255.

707 مسند أحمد ت شاكر، 8، ص 68.

قالوا: نلتمس زكريا.

فقال: إنّه سحَر هذه الشّجرة فانشقت له فدخلها.

فقالوا: لا نصدقك!

قال لهم: فإنّ لي علامة تصدقونني بها، فأراهم طرف ردائه فأخذوا الفؤوس وقطعوا الشّجرة وشقّوها بالمنشار فقتل نبي الله زكريا فيها؛ فجاءهم من الله انتقاما.

وذكر الإمام ابن جرير وغيره قتل بني إسرائيل زكريا عليه السّلام كما قتلوا ابنه يحي، وقد أجمعوا على قتل المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، ولكنّ الله حفظه من كيدهم، ورفعه إليه، وألقى شبهه على غيره فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدون أنّهم قتلوا المسيح عليه السلام[708] والحمد لله ربّ العالمين.

708 الوسطية في القرآن الكريم، ص 284.